دكتور محمد سيد أحمد المسير



الطبعة الثانية
مزيدة ومنقحة

١٩٨٨



الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

إهــــداء

إلى: أمي..

التي علمتني القرآن استجابة لبشرى رؤيا صالحة حين الوضع أعطيت فيها دواة ولوحا وقيل لها أقرئيه القرآن..

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله «أعطى كل شيء خلقه ثم هدى»، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير من لاينطق عن الهوى، وعلى آله الأطهار، وصحبه الأخيار وأعلام أمته الأبرار..

وبعد..

فإن موضوع «الروح» قد شغل الفكر الفلسفى طوال عصوره التاريخية، وناله الكثير من الجدل والنقاش، وتعرض لحكم النفى والإثبات وهذا شأن مسائل الفلسفة مادامت تقوم على الخبرة الذاتية، والانطباع الشخصى، والتذوق الفردى.. وصدق الله حيث يقول: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾ (النساء: ٨٢).

ثم كان العلم الحديث، وتمكن من كشف كثير من نواميس الكون، وتحليل كثير من مظاهر الطبيعة.. ومع ذلك فقد ظلت هناك مغاليق لم يطرقها البحث العلمى بعد، بل هناك حقائق لايتطاول العلم إلى الوصول إليها، حتى وإن حاول فسيرتد إليه الطرف خاسئا وهو حسير.

ولهذا آثرت أن أكتب عن «الروح» بادئا الرحلة من عالم المجهول حيث النشأة الأولى، ومصاحبا لها فى حياتها مع البدن، وباحثا عنها فى النشأة الأخرى بعد مفارقة البدن...

وقد حاولت أن أجيب عن تلك الأسئلة:

كيف نشأت الروح؟.

ومتى؟

وما علاقتها بالبدن حال الحياة؟
ومتى تنقطع تلك العلاقة؟
وما مصير كل من الروح والبدن؟.

ولم يكن ذلك رجما بالغيب وإنما هو النص الدينى القاطع كما تحدث رب الآخرة والأولى وكما أوحى إلى عبده ما أوحى.. وقد ذكرت آراء الفلاسفة والعلماء فى كل نقطة أثرت حولها البحث وعقبت على ذلك كله بما يبرز كلمة الحق ويدحض شبه المبطلين...

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

فى ٢٩ من ربيع الأول ١٣٩٥هـ
الموافق ١١ من ابريل ١٩٧٥م

محمد سيد أحمد المسير

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى.

أما بعد

فيسرني أن أقدم للقارئ الكريم هذا الكتاب فى طبعته الثانية وقد دخلت عليه زيادات وتحقيقات، بدأت بالعنوان، وسرت فى بعض مباحثه..

لقد كان العنوان فى الطبعة الأولى «الروح بين الإسلام والفلسفة»، ورأينا أن يصير العنوان «الروح فى دراسات المتكلمين والفلاسفة»، لأن هذا العنوان الجديد أقرب إلى تصوير اتجاه البحث..

وقد جاء البحث - بتوفيق الله وفضله - على النحو التالى:

مدخل:

آثرت أن أبدأ بحثى عن الروح ببيان حكم الشرع، وذلك متوقف على فهم قوله تعالى: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾[1].

وذكرت خلاف العلماء حول هذه الآية..

ما المراد بالروح المسئول عنها؟

وما معنى كون الروح من أمر الله؟

وما العلم القليل؟.

ورجحت أن المراد بالروح هنا هو القرآن المجيد، وليس فى الآية ما يشير إلى تحريم البحث أو كراهته وأيدت ذلك بالدليل.

---

(١) سورة الإسراء آية ٨٥.

تمهيد:

تحدثت فيه عن اطلاقات لفظ الروح فى اللغة والقرآن والفلسفة، وحددت مفهوم الروح بأنه:

الجوهر الذى هو الإنسان فى الحقيقة بعيدًا عن البدن المادى المحسوس، والذى يناط به التكليف وعليه تقوم الحياة...

وجريت على استعمال لفظ الروح والنفس بمعنى واحد كما هو رأى جمهور الفلاسفة واختيار أبى حامد الغزالى وابن حزم الاندلس، ثم هو وضع اللغة، وقبل ذلك وبعده هو استعمال القرآن مثل قوله تعالى: ﴿ثم سواه ونفخ فيه من روحه﴾[1].

وقوله سبحانه: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾[2] ولما كان أهم ما يشغل العلماء فى مسألة الروح هو وجودها وخلودها فقد قسمت البحث إلى بابين...

الباب الأول: الروح فى الحياة الدنيا وفيه أربعة فصول...

الفصل الأول: حقيقة الروح.

وسلكت فيه مرحلتين:

(أ) مرحلة النفى: وفيها تعرضت لآراء أولئك الذين يزعمون نفى وجود الروح أو يفسرونها تفسيرا يبطل وجودها المتفرد...

(ب) مرحلة الإثبات: وفيها عرضت أدلة المثبتين للوجود الروحى المتميز.

وبعد ذلك استعرضت تصورات الوجود الروحى لدى الفلاسفة والمتكلمين، وانتهيت إلى أن الحق الذى لا مرية فيه أن للنفس وجودا مغايرا للبدن المادى المحسوس وأن الدلائل الشرعية والبراهين العقلية قد تظاهرت

(١) سورة السجدة آية ٩.

(٢) سورة الزمر آية ٤٢.

على إثباته وأجمعت على وجوده.. وما وراء ذلك من اختلاف فى ماهية هذا الوجود هل هو مادى أم مجرد؟ فشىء غير الاعتقاد الواجب فلم يقم دليل قطعى على تجرد الروح كما أن أدلة القائلين بماديتها دون اليقين الصريح..

الفصل الثانى: نشأة الروح.

وقد استطلعت رأى الفلاسفة وبينت علاقة ذلك بنظرية العقول العشرة وأثبت تضارب رأى ابن سينا فى تلك النشأة ثم عقبت بمناقشة نظرية العقول مناقشة موضوعية أظهرت فيها فساد مبناها وسوء مسلك بعض المفكرين فى محاولة تبريرها إسلاميا.

وانتقلت بعد ذلك إلى رأى المتكلمين وعرضت وجهة نظر القائلين بحدوثها قبل البدن أوبعده، وذكرت أدلة كل منها ثم وقفت وقفة طويلة لمناقشة تلك المحاولة لاثبات ما يسمى «عالم الذر» استنادا إلى قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى﴾[1].

وانتهيت إلى أن الأية تشير إلى ما أودعه الله فى كل إنسان من فطرة قبول الحق وإلى ما أرشدهم به من آيات الأنفس والآفاق، وإلى ما ألزمهم به من الشرع وبعثة الرسل فذلك رأى كثير من السلف والخلف بل من المفسرين من اقتصر عليه كالزمخشرى.

الفصل الثالث: الروح مع البدن.

وقد اخترت من علاقة الروح مع البدن جانبين حظيا باهتمام الفلاسفة والعلماء وهما:

(أ) المعرفة الإشراقية

ودرستها عند الفلاسفة والمتصوفة واتخذت من ابن سينا وابن طفيل

---

(١) سورة الأعراف آية ١٧٢.

نموذجين للفلاسفة، والغزالى والدكتور عبد الحليم محمود نموذجين للمتصوفة.. وكان لى مع كل منهم وقفة لوجه الله والحق.

(ب) الرؤى والأحلام

استعرضت أقوال الباحثين قديما وحديثا فى مسألة الأحلام وخاصة لدى مدرسة التحليل النفسى وجليت النظرية الإسلامية فى ذلك .

الفصل الرابع: الروح عقب الموت

قد يبدو هذا العنوان للوهلة الأولى بعيدًا عن عنوان الباب «الروح فى الحياة الدنيا» ولكن إذا لاحظنا أنى تناولت فيه مبحثين هما:

(أ) عالم البرزخ.

(ب) تحضير الأرواح.

وأن عالم البرزخ قبل يوم القيامة وأن تحضير الأرواح محاولة من البشر فى هذه الدنيا لاستراق السمع - أدركنا حينئذ صلته بالباب.. وقد استعرضت فى المبحث الأول دلائله وآراء العلماء فى حقيقته ورجحت رأى ابن حزم مع بعض تحفظات عليه ومع عدم إنكار لرأى الجمهور، فالكل محصور فى دائرة الجواز العقلى وليست فيه استحالة بينة والمدار على النص الوارد وفهمه ولكل وجهة..

وفى البحث الثانى تتبعت نشأة تحضير الأرواح وتطورها ومزاعم أربابها ثم عقبت على ذلك برفضها لتصادمها مع فكرة الثواب والعقاب الشرعيين وعزوتها إلى عالم الجن وحده فهو الذى يعيش حولنا ومكلف مثلنا ومنه الصالح والقاسط.

وبهذا ينتهى الباب الأول.

الباب الثانى: الروح فى اليوم الآخر.

مهدت له بفذلكة عن البيان الإلهى الأول لخطة بناء الحياة فى قوله تعالى: ﴿فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى. ومن أعرض

عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى. قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرًا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى. وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى﴾[١]

ووضحت أن العقيدة الدينية على مدار الرسالات الإلهية تتلخص فى الإيمان بالله وتطبيق منهجه فى الحياة والاستعداد ليوم الجزاء.. وبينت أن عقيدة البعث مرتبطة بالألوهية فلا بعث بغير إيمان بالله..

ثم فصلت مذاهب الفلاسفة والمتكلمين فى البعث وحقيقته على النحو التالى:

الفصل الأول: المذهب المادى وقدمت خلاصة لرأيه فى البعث وأردفتها بدفع الشبهات التى آثارها وركزت على النقاط التالية:

١ - إثبات الروح.
٢ - حقيقة الحقائق (وجود الله تعالى).
٣ - إمكان البعث.
٤ - حكمة البعث.
٥ - الدين والحضارة.

الفصل الثانى: مذهب الفلاسفة الالهيين.

عرضت فيه رأى أفلاطون الإلهى باختصار كمقدمة لاستطلاع رأى الفلسفة الإسلامية فى البعث ثم فصلت رأى ابن سينا تفصيلا تاما لأنه علامة القوم وطريقته أدق، ونظره إلى الحقائق أغوص كما يقول الشهر ستانى وكل الصيد فى جوف الفرا... ولقد ألقيت ضوءا كاشفا على الملحمة الفلسفية التى أثارها كل من الإمام الغزالى وفيلسوف قرطبة ابن رشد حول قضية البعث

---

(١) سورة طه آية ١٢٣: ١٢٧.

وانتهيت إلى أن البعث الروحانى المحض هو رأى الفلسفة الإسلامية، وحقيقته عودة الروح إلى تجردها عن علائق البدن واتصالها بعالم العقول.. وارتكز هذا القول على أساس من نظرية العقول العشرة، وترتب عليه محاولة تطويع النصوص الدينية لتحمل هذا الاتجاه..

وقد بينت رأيى فى كل من نظرية العقول وقضية التأويل..

الفصل الثالث: التناسخية.

وقدمت فيه معنى التناسخ فى اللغة والاصطلاح ومن هم القائلون به من الفرق والنحل وسقت بعض أدلتهم ورددت عليها ثم ناقشت رأيهم فى البعث بالتفصيل ووقفت وقفة مع قوله تعالى: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[1] وهل يعد ذلك من التناسخ أم لا ؟.

الفصل الرابع: مذهب المتكلمين.

بينت فيه رأى الجمهور ورأى المحققين، وطريق إثبات البعث الجسمانى - ودلائله وكيفية الإعادة وأثبت رأيى فى كل ذلك.

الفصل الخامس: منهج القرآن فى إثبات البعث، حاولت فيه أن نقف خاشعين أمام الهدى الإلهى مستلهمين منهجه فى عرضه لعقيدة البعث والاستدلال عليها، بعد هذه الجولة الطويلة فى معترك المذاهب والآراء، وقد أجملت هذا المنهج فى اتجاهات ستة ومثلت لها..

فإن أكن قد وفقت فذلك الفضل من الله وإن تكن الأخرى فحسبى أنى بذلت الجهد، وأعملت الفكر وأخلصت النية..

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى ١٥ من جمادى الآخرة سنة ١٤٠٨هـ - ٣ من فبراير سنة ١٩٨٨م

أبو حذيفة

د. محمد سيد أحمد المسير

---

(١) سورة البقرة آية ٦٥.

مدخل:

حكم البحث فى الروح

حاول الإنسان - منذ وجد - أن يكتشف أسرار الكون، وقد استطاع بعد لأى أن يهتدى إلى كثير من خصائص الطبيعة وظواهرها مؤكدا حكمة الله «الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى».

ومع تمكن الإنسان - بما وهبه الله - من قهر العالم الطبيعى وتسخيره لخدمته فإن الظاهرة الإنسانية نفسها ظلت مغلقة عليه، مجهولة لديه قرونا متطاولة نظرا لتعقدها، وسرعة تغيرها، واختلافها من بيئة لأخرى، وتطورها من جيل لآخر.. ولهذا تعددت العلوم التى تدرس الظاهرة الإنسانية وتفرغت لدراسة كل جزئية على حدة فنشأت مجموعة من العلوم مثل:

علم النفس: الذى يهتم بدوافع الإنسان وغرائزه وعواطفه وأنواع سلوكه.
علم الاجتماع: الذى يشرح علاقة الإنسان بالآخرين.
علم الاقتصاد: الذى يتناول النشاط المادى للإنسان.
علم التاريخ: الذى يبرز ماضى الإنسان فردا أو جماعة.
علم السياسة: الذى يركز على نشاط الإنسان المتصل بنظام الدولة والحكم.
علم الأخلاق: الذى يبين الفضيلة والخير والحق كى يلزم بها الإنسان.

وهكذا تواكبت العلوم لدراسة الظاهرة الإنسانية فى اتجاهات عدة، ومع التقدم العلمى الهائل ومع الخطى الحثيثة فى المكتشفات ومع كثرة التجارب وتنوعها فمازال هناك الكثير، والكثير جدًا، مجهولا وغامضا (وفوق كل ذى علم عليم).

ومن ذلك ظاهرة «الروح» وسر الحياة..

ماهو؟ وأين؟ ومن أين؟ وإلى أين؟.

وما كان لنا - نحن أبناء الأزهر الشريف - أن نسير فى هذا البحث دون سند دينى يؤكد خطانا ونستمسك به فى رأينا، ومن هنا ينبغى أن نبدأ البحث ببيان حكم الشرع فيه.

والجواب متوقف على فهم قوله تعالى:.

﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾[١].

ما المراد بالروح المسئول عنها؟ وما معنى كون الروح من أمر الله؟ وما العلم القليل؟.

قال فى متن الجوهرة:

ولا تخض فى الروح إذا ما وردا	نص من الشارع لكن وُجدا
لمالك هى صورة كالجسد	فحسبك النص بهذا السند

وفى شرح هذين البيتين نجد الإمام عبد السلام اللقانى يقول:

«(ولا تخض) نحن معاشر جمهور المحققين فى بيان حقيقة (الروح) بجنس وفصل مميزين لها، لتعذر الوقوف عليهما لعدم ورود السمع بهما ولا يتلقيان إلا منه.

وأشار إلى علة النهى عن الخوض فيها على هذه الطريقة بأنه خلاف الأدب مع الشارع، حيث لم يبينها لنبيه ﷺ بقوله: (إذا ما وردا) أى عدم خوضنا فى بيانها على سبيل الندب، فالخوض فى بيان حقيقتها مكروه لعدم التوقيف فى ذلك، إذ هى من المغيبات التى لا تعرف إلا من قبل الشرع، ولم

(١) سورة الإسراء آية ٨٥.

يرد (نص) أى دليل (من الشارع) وهو الله تعالى ببيانها، لأن نبينا ﷺ لم يبلغنا ذلك عنه، وكل ما هو كذلك فالأولى الكف عن الخوض فيه.

ولذا قال الجنيد: «الروح شىء استأثر الله بعلمه، ولم يطلع عليه أحدًا من خلقه، فلا يجوز لعباده البحث عنه بأكثر من أنه موجود»[١].

وحكى الشيخ الباجورى فى شرحه على الجوهرة «أن كلام الجنيد يدل على الحرمة».

وقال الشيخ السهروردى:

«واعلم أن الكلام فى الروح صعب المرام، والإمساك عن ذلك سبيل ذوى الأحلام، وقد عظم الله تعالى شأن الروح، وأسجل على الخلق بقلة العلم حيث قال: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾.

ثم قال الشيخ: وحيث أمسك رسول الله ﷺ عن الإخبار عن الروح وماهيته بإذن الله تعالى ووحيه، وهو صلوات الله عليه معدن العلم وينبوع الحكمة فكيف يسوغ لغيره الخوض فيه والاشارة إليه»[٢].

فتحصل من هذه النقول أن هناك اتجاهًا فى الفكر الإسلامى يرفض البحث فى الروح تنزيهًا على سبيل الندب لأنه خلاف الأدب مع الشارع، أو تحريمًا لأنها مما استأثر الله بعلمه.

ولتوضيح سبب هذا النهى كما يفهم من الآية الكريمة نقول:

(أ) ذهب بعضهم إلى أن الأمر فى قوله تعالى: ﴿من أمر ربى﴾ بمعنى الشأن، والإضافة فيه للاختصاص العلمى، وليس الإيجادى لاشتراك الكل فيه..

فالمعنى أن الروح من جنس ما استأثر الله بعلمه، وتكون الإجابة عن

---

(١) حاشية الأمير على شرح الشيخ عبد السلام على الجوهرة فى علم الكلام ص ١٣٤ ط المطبعة الأزهرية المصرية سنة ١٣٤٢ هـ.

(٢) عوارف المعارف للسهروردى بهامش إحياء علوم الدين للغزالى حـ ٤ ص ١٩٩ ط دار إحياء الكتب العربية.

سؤالهم بترك الجواب نهيًا لهم عن الخوض فيها..

(ب) ذهب آخرون إلى أن إجابة الله تعالى أوضحت أن الروح من عالم الأمر أى عالم المجردات التى لا تدرك، وليس من عالم الخلق أى المحسوسات التى يمكن تعريفها، وأن علم البشر قاصر على علم الخلق وهو ما يشير إليه قوله سبحانه ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾.

(جـ) قد يكون من مسببات النهى ما روى فى سبب النزول أن اليهود قالوا لقريش اسألوا محمدًا عن ثلاث، فإن أخبركم باثنتين وأمسك عن الثالثة فهو نبى، اسألوه عن أصحاب الكهف وعن ذى الرنين وعن الروح..

فسأل المشركون رسول الله ﷺ عن هذه الثلاثة، فقال ﷺ: غدًا أخبركم، ولم يقل: إن شاء الله، فانقطع عنه الوحى فترة من الزمن ثم نزل بقوله تعالى: ﴿ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدًا إلا أن يشاء الله﴾[1].

ثم فسر الوحى قصة أصحاب الكهف، وقصة ذى القرنين، وأبهم.قصة الروح ونزل قوله تعالى: ﴿ويسألونك عن الروح... الآية﴾.

* * *

ونحن نرى – مع كثير من العلماء سلفًا وخلفًا – أنه ليس فى الآية الكريمة ما يشير إلى تحريم البحث فى الروح أو كراهته، ودليلنا ما يلى:

١ – نحن لا ننكر أن هناك سؤالاً وقع عن الروح، فذلك منطوق الآية فضلًا عن كونه ورد فى بعض روايات صحيحة أخرجها البخارى ومسلم.. ومع ذلك فلم يتفق المفسرون ولا المحدثون على أن الروح المسئول عنها هى الروح الإنسانى.. وهاك ما قاله أحدهم:

واختلفوا فى الروح الذى وقع السؤال عنه، فروى عن ابن عباس أنه جبريل عليه السلام، وهو قول الحسن وقتادة.

---

(١) سورة الكهف آية ٢٣.

وروى عن على أنه قال: ملك له سبعون ألف وجه، لكل وجه سبعون ألف لسان يسبح الله تعالى بكلها.

وقال مجاهد: خلق على صورة بنى آدم لهم أيد وأرجل ورءوس وليس بملائكة ولا ناس يأكلون الطعام.

وقال سعيد بن جبير: لم يخلق الله تعالى خلقًا أعظم من الروح غير العرش، لو شاء أن يبتلع السموات السبع والأرضين السبع ومن فيهن لقمة واحدة لفعل.

وقيل: الروح هو القرآن.

وقيل: المراد منه عيسى، فإنه روح الله تعالى وكلمته ومعناه أنه ليس كما تقوله اليهود، ولا كما تقوله النصارى..

وقال بعضهم: هو الروح المركب فى الخلق الذى يحيا به الإنسان»[1].

ولنا هنا ملاحظة فكثير من هذه الآراء لا دليل عليها ولا مستند لها من الشرع.

٢ - إن تعليق إثبات النبوة على عدم الإجابة عن الروح كما قال اليهود لقريش - يبعد عقلاً، فإن الجهل بالشىء ليس دليلاً على صحة النبوة، وقد دار الكلام كثيرًا فى القرآن والحديث عن النفس وتعلقها بالبدن فى الحياة وبعدها، فكيف تروى هذه الأخبار الصحيحة ثم تقول إن الرسول ما كان يعرف شيئًا عن الروح؟

ثم إن لنا وقفة مع سبب النزول، فالذى جاء فى صحيح البخارى هكذا:

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: بينا أنا مع النبى ﷺ فى حرث - وهو متكئ على عسيب[2] - إذ مرّ اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن

(١) تفسير السراج المنير للخطيب الشربينى جـ٢ ص٣١٨

(٢) بوزن عظيم، وهى الجريدة من النخل التى لا خوص فيها.

الروح، فقال ما رابكم إليه[١]، وقال بعضهم لا يستقبلكم بشيء تكرهونه، قالوا: سلوه، فسألوه عن الروح، فأمسك النبى ﷺ فلم يرد عليهم شيئًا، فعلمت أنه يوحى إليه، فقمت مقامى، فلما نزل الوحى قال: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلًا﴾.

ونلاحظ بعض الفروق:

- إن السؤال هنا وقع من اليهود فى المدينة، لكن الروايات الأخرى عن ابن عباس عند الترمذى وابن اسحق وغيرهما تنسب السؤال إلى المشركين فى مكة بتحريض من اليهود.

- إن الوحى - فى رواية البخارى - نزل على الرسول ﷺ عقيب السؤال مباشرة، لكن الروايات الأخرى تذكر انقطاعًا للوحى ثلاثة أيام أو خمسة عشر يومًا أو غير ذلك.

- لا نجد فى رواية البخارى ما يشير إلى أن الروح المسئول عنها هى أرواح بنى آدم، وإنما ورد السؤال عن الروح مطلقًا، فتحديدها بأرواح بنى آدم محل نظر ولا قطع فيه..

وإزاء هذا الاضطراب فى روايات الحديث رجح الأئمة رواية ابن مسعود على باقى الروايات لأنه كان حاضر الواقعة، ومال الإمام ابن حجر إلى الجمع فقال:

«ويمكن الجمع بأن يتعدد النزول، ويحمل سكوته ﷺ فى المرة الثانية على توقع مزيد بيان فى ذلك...

ولكن ابن حجر تدارك الأمر فقال:

---

(١) من الريب وهو الشك.

«وإن ساغ هذا فما فى الصحيح أصح»[١].

٣ - قال الإمام ابن القيم:

«وأكثر السلف بل كلهم على أن الروح المسئول عنها فى الآية ليست أرواح بنى آدم، بل هى الروح الذى أخبر الله عنه فى كتابه أنه يقوم يوم القيامة مع الملائكة وهو ملك عظيم...

وبعد أن ساق إحدى روايات البخارى قال:

ومعلوم أنهم إنما سألوه عن أمر لا يعرف إلا بالوحى، وذلك هو الروح الذى عند الله لا يعلمها الناس.

وأما أرواح بنى آدم فليست من الغيب، وقد تكلم فيها طوائف من الناس من أهل الملل وغيرهم فلم يكن الجواب عنها من أعلام النبوة..» ثم ساق ابن القيم مجموعة روايات عن ابن عباس رضى الله عنهما ضعف بعضها مثل رواية السدى عن أبى مالك وقال: «مثل هذا الإسناد لا يحتج به... وفيه أشياء منكرة...».

وحكم على بعض الروايات بالاضطراب مثل رواية داود بن أبى هند عن عكرمة، ورواية أبى بشر عن مجاهد، ورواية خصيف عن مجاهد، ورواية جويبر عن الضحاك، ورواية ابن جريج عن عطاء.. كلهم عن ابن عباس وقال:

«وقد اضطربت الروايات عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية أعظم اضطراب فإما أن تكون من قبل الرواة أو تكون أقواله قد اضطربت فيها»[٢]

٤ - تكلم الأنبياء والعلماء فى الله عز وجل وصفاته العليا وأسمائه الحسنى

---

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى جـ٨ ص ٤٠١، وأطراف الحديث فى مواضع متعددة فى صحيح البخارى فى ١٢٥، ٤٧٢١، ٧٢٩٧، ٧٤٦٢.

(٢) الروح لابن القيم ص ٢٢٥:٢٢٨ ط صبيح سنة ١٣٩٣ هـ.

وكمالاته المقدسة، وناقشوا المنكرين، وردوا الشبهات، وبحثوا فى الوجود والوحدانية والرؤية والكلام الإلهى، وغير ذلك من الواجب لله تعالى والجائز فى حقه سبحانه والمستحيل.. ولم نسمع أحدًا يعتد برأيه - يذهب إلى حرمة البحث فى الإلهيات أو كراهته، بل إن القرآن المجيد صريح فى حتمية العلم والمعرفة فى جانب عقيدة التوحيد، قال تعالى: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾[١] فهل الروح أعلى شأنًا أو أخفى معرفة؟!

نعوذ بالله من ذلك..

٥ - نقل الإمام ابن حجر:

«وقد خالف الجنيد ومن تبعه من الأئمة - جماعة من متأخرى الصوفية فأكثروا من القول فى الروح، وصرح بعضهم بمعرفة حقيقتها وعاب من أمسك عنها»[٢].

واستدرك صاحب متن الجوهرة وأشار إلى أن علماء المالكية قد خاضوا فى بيان حقيقة الروح وعلق الشارح اللقانى فقال «وتخصيص أهل مذهب مالك بالذكر لأنهم أتقى أرباب المذاهب للشبهات، وأشدهم محافظة على النصوص الشرعية...

ثم قال: فلو كان الخوض فيها ممتنعا لم يقدم عليه مثل هؤلاء الأكابر[٣].

٦ - لو كانت الروح مما لاسبيل إلى معرفته لقيل: قل إنما علمها عند ربى، كما قيل فى شأن الساعة...

وذكر الشيخ القاسمى فى تفسيره أنه لو لم يكن السبيل لمعرفة الروح ولو بوجه ما متيسرًا لكثير من الناس لم تكن هناك فائدة لأمره تعالى بالتفكير فيها، والتبصر فى شأنها للتوصل إلى معرفة الله تعالى بل كان الأمر عبثا..

---

(١) سورة محمد آية ١٩.

(٢) فتح البارى جـ٨ ص٤٠٤

(٣) حاشية الأمير (مرجع سابق) ص١٣٤.

فدل قوله تعالى ﴿أو لم يتفكروا فى أنفسهم﴾[١].
وقوله تعالى ﴿وفى الأرض آيات للموقنين. وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾[٢]
ونحو ذلك على أنها أمر تدركه العقول وبه يكون الوصول[٣]»

الفهم الصحيح للآية الكريمة:

يمكن أن نفهم الآية الكريمة على أحد وجهين: الأول: إن السؤال كان عن حقيقة الروح الإنسانى، وهذا إختيار جمع من المفسرين، ولا حرج فى ذلك، فهو رأى من آراء، ليس أصحها ولا أقواها، وقد وصفه الإمام الرازى فى تفسيره بأنه الأظهر، فقال «للمفسرين فى الروح المذكورة فى هذه الآية أقوال، أظهرها أن المراد منه الروح الذى هو سبب الحياة...[٤]»

ويفهم الجواب فى قوله تعالى: ﴿قل الروح من أمر ربى﴾ على احتمال من هذه الاحتمالات:.

(أ) اكتفى الجواب بأنها من أمر الله أى فعله وخلقه وتكوينه، وقد جاء الأمر بمعنى الفعل فى قوله تعالى: ﴿وما أمر فرعون برشيد﴾[٥].

والروح نوع من العلم الخاضع للتحصيل، وفى تذييل الآية بقوله تعالى ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ إشارة إلى ذلك، حيث إنهم أمة أمية، لم تتسع مداركهم لأكثر مما يحيط بهم من سماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج...

وهذا هو ما حدث أيضًا حين سألوا عن الهلال، ما باله يبدو دقيقا مثل الخيط ثم يزيد حتى يمتلئ ويستوى، ثم لايزال ينقص حتى يعود كما بدأ، فاكتفى القرآن بأن أرشدهم إلى حكمة ذلك دون الإشارة إلى حقيقته، فقال

---

(١) سورة الروم آية ٨.
(٢) سورة الذاريات آية ٢٠،٢١.
(٣) محاسن التأويل جـ١٠ ص٣٩٨٤.
(٤) التفسير الكبير ج٢١ ص٣٧.
(٥) سورة هود آية ٩٧.

﴿يسألونك عن الأهلة، قل هى مواقيت للناس والحج..﴾[١].

ومع ذلك لم يقل أحد إن البحث فى علم الفلك حرام أو مكروه..

(ب) يمكن أن نقول إن الآية الكريمة لم تذكر الجواب عن حقيقة الروح لأن سؤالهم كان على وجه التعنت والاستهزاء.

وكثيرا ما سأل المشركون عن أشياء أو طلبوا أشياء على وجه التعنت والاستهزاء فلم يجابوا إليها، وعلى سبيل المثال نقرأ قوله تعالى: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كِسفا، أو تأتى بالله والملائكة قبيلا. أو يكون لك بيت من زخرف، أو ترقى فى السماء، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه﴾.

ماذا كان الجواب؟ ﴿قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرًا رسولا﴾[٢].

(جـ) هناك اتجاه يرى أن الجواب قائم على إرشاد السائلين إلى أن مدخل معرفة الروح هو الشرع، وليس الفلسفة أو الرأى، وبالتالى فعليهم أن يؤمنوا أولا بالله ربا وبمحمد نبيا ﷺ ليهتدوا إلى معرفة الروح عن طريق ما جاء فى القرآن والسنة من أوصاف تتعلق بالروح فى نومها ويقظتها، فى حياتها ومماتها، فى نعيمها وعذابها، فى دنياها وآخرتها.

قال الإمام السهيلى توضيحا لهذا الرأى: ..

«فمن دخل فى الشرع وتفقه فى الكتاب والسنة عرف الروح، فكان معنى الكلام: ادخلوا فى الدين تعرفوا ماسألتم عنه، فإنه من أمر ربى أى من الأمر الذى جئت به مبلغا عن الرب»[٣].

---

(١) سورة البقرة آية ١٨٩.

(٢) سورة الاسراء آية ٩٠: ٩٤.

(٣) نقلا عن سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد للإمام الصالحى جـ٣ ص ٥٦٥ تحقيق الأستاذ عبد العزيز عبد الحق ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة سنة ١٣٩٥هـ.

الثانى: إن المراد بالروح فى الآية الكريمة الوحى بالقرآن، وقد اهتم به الإمام الرازى ولم يبد عليه اعتراضا، وساق أدلته وأردفها بعبارات موحية، فأحيانا يقول: واللائق بالروح المسئول عنه فى هذا الموضع ليس إلا القرآن..

وفى عبارة أخرى: وجب أيضا أن يكون المراد من هذا الروح القرآن حتى تكون آيات القرآن كلها متناسبة متناسقة.. فى الوقت الذى عرض فيه الإمام الرازى مطاعن وجهت للرأى القائل بأن الروح هى مابه الحياة أو ملك من الملائكة هو أعظم قدرا وقوة، أو خلق على صورة بنى آدم[1].

وقد جعل الشيخ القاسمى تفسير الروح فى الآية الكريمة بالقرآن متعينا وهذا ما نختاره لمايلى:.

١ - إن القرآن سمى روحا، كما فى قوله تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا﴾[2].

فالقرآن حياة البشر أفرادا وجماعات، وبه سعادتهم فى الأولى وكرامتهم فى الآخرة.

٢ - إن سابق الآية، وعلى مدى أكثر من عشر آيات متتالية يدور حول نعمة القرآن، وضرورة تمسك الرسول وتنسكه به مهما بلغ استفزاز المشركين فإن الباطل زهوق، والقرآن شفاء للمؤمنين، ولايزيد الظالمين إلاخسارا.

ولنقرأ قوله تعالى: ﴿وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره، وإذا لاتخذوك خليلا، ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا، إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا...﴾ الآيات.

٣ - إن لاحق الآية وعلى مدى عشر آيات أخر يدور حول معجزة

---

(١) راجع التفسير الكبير جـ٢١ ص٣٨: ص ٤٠.

(٢) سورة الشورى آية ٥٢.

القرآن وتحديه للإنس والجن، كما يبين عنت المشركين واستهزاءهم بالقرآن وطلبهم معجزات مادية حسية.

ولنقرأ قوله تعالى: ﴿ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ثم لاتجدلك به علينا وكيلا، إلا رحمة من ربك إن فضله كان عليك كبيرا، قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا..﴾ الآيات.

٤ - وردت آيات أخرى تحمل نفس المعنى وهو تساؤل المشركين عن حقيقة القرآن، ومدى صدقه، وتنبئ عن ارتيابهم فيه.. مثل قوله تعالى: ﴿ويستنبئونك أحق هو؟ قل إى وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين﴾[١].

فالضمير فى توله أحق هو - راجع على أرجح الأقوال إلى القرآن المجيد، قال الإمام الرازى: «واختلفوا فى الضمير فى قوله أحق هو، فقيل أحق ما جئتنا به من القرآن والنبوة والشرائع، وقيل ما تعدنا من البعث والقيامة، وقيل ما تعدنا من نزول العذاب علينا فى الدنيا»[٢].

ومثل قوله سبحانه: ﴿عم يتساءلون، عن النبأ العظيم، الذى هم فيه مختلفون﴾ والنبأ العظيم هو القرآن وقد تساءلوا عنه هل هو شعر؟ هل هو سحر؟ هل هو كهانة؟ هل هو أساطير الأولين؟!.

ومن هنا فإن معنى آية الإسراء أن الناس تساءلوا عن القرآن، وحاروا فى أمر الظاهرة القرآنية، واختلفوا فى تفسيرها وتعليلها مع ما صاحبها من نبوة محمد بن عبد الله ﷺ ذلك النبى الأمى.

فأجابهم الله تعالى بأن القرآن وحى منزل من الله عز وجل، والعرب يومئذ قوم جاهليون، لا عهد لهم بالعلوم والمعارف فضلا عن الوحى وخصائص

---

(١) سورة يونس آية ٥٣.

(٢) التفسير الكبير جـ١٧ ص١١٦.

النبوة، وهو ما يشير إليه التذييل بقوله تعالى: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ أى معرفتكم قاصرة ومداركم محدودة، وما عليكم إلا أن تسموا بها عن ربقة التقليد والتعصب البغيض ولذا كان من الآيات اللاحقة لآية الروح قوله تعالى: ﴿ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا﴾[1]».

---

(١) سورة الإسراء آية ٨٩.

تمهيد:

إطلاقات لفظ الروح

فى اللغة:

جاء فى كتب اللغة عن كلمة «روح» مايأتى[1]: الروح - يذكر ويؤنث - وهو بالضم ما به حياة الأنفس.

الرَّوْح - بالفتح - الراحة والرحمة ونسيم الريح.

الرَّوَح - بالتحريك - السعة، وسعة فى الرجلين دون الفجح (التكبر) وكان عمر رضى الله عنه أروح.

ومكان رَوْحانى - بفتح الراء - طيب، والرُوحانى- بالضم - ما فيه روح، وكذلك النسبة إلى الملك والجن.

والنفس هى الروح، وخرجت نفسه أى روحه.

والنفس الدم يقال: سالت نفسه، وفى الحديث «ماليس له نفس سائلة فإنه لاينجس الماء إذا مات فيه».

والنفس الجسد.

ونفس الشيء عينه يؤكد به.

والنَفَس - بالتحريك - واحد الأنفاس، والطويل من الكلام يقال: كتبت كتابًا نفسا أى طويلا.

فى القرآن:

ورد لفظ الروح، فى القرآن إحدى وعشرين مرة يجمعها عدة معان هى:

---

(١) القاموس المحيط جـ١، ومختار الصحاح.

١ - جبريل عليه السلام، وعبر عنه بلفظ الروح مثل قوله تعالى: ﴿تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر﴾[١] أى أنه إذا كان ليلة القدر نزل جبريل عليه السلام فى كبكبة من الملائكة يسلمون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله تعالى كما ورد بذلك الخبر.

وبلفظ «روح القدس» مثل قوله سبحانه: ﴿قل نزله روح القدس من ربك بالحق﴾[٢].

أى نزل جبريل بالقرآن منجماً لحكم جليلة، والقدس - بسكون الدال وضمها - الطهر اسم ومصدر، وإضافة الروح إلى القدس كما يقال حاتم الجود والمراد الروح المقدس وحاتم الجواد.

وبلفظ الروح الأمين مثل قوله جل شأنه:.
﴿نزل به الروح الأمين على قلبك﴾[٣].

أى نزل بالقرآن على سبيل التدريج - جبريل عليه السلام، ووصف فيما سبق بالقدس وهنا بالأمين ليجمع الحسنيين فهو طاهر فى ذاته مبرأ من كل دنس وإثم، وأمين فيما يمارسه من عمل وما يتحمله من رسالة.

وبلفظ «روحنا» مثل قوله تعالى:

﴿فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا﴾[٤].

أى أرسلنا إلى مريم البتول جبريل عليه السلام ليطمئن فؤادها ويعلمها مسبقًا بما اختصها الله به من كرامة بولادة عيسى عليه السلام من غير أب، فتمثل لها جبريل بشرًا سويا لتأنس بحديثه إذ لو رأته على صورته الحقيقية لنالها الفزع الأكبر.. وهكذا كان جبريل مع النبى محمد ﷺ يأتيه فى صورة دحية الكلبى ولم يره على صورته الحقيقية إلا مرتين الأولى فى بدء النبوة

(١) سورة القدر آية ٤.
(٢) سورة النحل آية ١٠٢.
(٣) سورة الشعراء آية ١٩٣.
(٤) سورة مريم آية ١٧.

والأخرى ليلة الإسراء والمعراج قال تعالى: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى﴾[١].

٢ - القرآن المجيد كما فى قوله تعالى:

﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورًا نهدى به من نشاء من عبادنا﴾[٢].

والمعنى أوحينا إليك يا محمد كما أوحينا إلى النبيين من قبلك وأنزلنا عليك كتابًا هو روح الدنيا وسر الحياة فلابد لدنيا الناس من دين الله.

٣ - الوحى... مثل قوله سبحانه:

﴿يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق﴾[٣].

أى يختار الله لرسالته من يصطفيه ويصنعه على عينه فيلقى إليه الوحى والنبوة ليدعو الناس إلى الحق وإلى طريق مستقيم وينذرهم ﴿يوم لاينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم﴾[٤].

والملاحظ أن الروح عندما يأتى بمعنى الوحى أو القرآن يتبع بلفظ «من أمره» أو «من أمرنا» مما يؤكد المعنى الذى سبق أن قلناه وهو أن المراد بالروح فى آية ﴿ويسألونك عن الروح﴾ هو القرآن.

٤ - عناية الله وكفالته لعباده المخلصين مثل قوله جل شأنه:

﴿أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه﴾[٥].

أى أولئك الذين استقاموا على أمر الله وشايعوا أولياءه وجانبوا حزب الشيطان - جعل الله قلوبهم مصابيح الهدى، وشد أزرهم بنصر منه وتأييد...

٥ - المسيح عيسى بن مريم مثل قوله تبارك وتقدس:

---

(١) سورة النجم آية ١٣: ١٤.
(٢) سورة الشورى آية ٥٢.
(٣) سورة غافر آية ١٥.
(٤) سورة الشعراء آية ٨٨، ٨٩.
(٥) سورة المجادلة آية ٥٨.

﴿إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾[١].

ومعنى أن عيسى كلمة الله أنه نشأ من غير الطريق المألوف بكلمة الله التكوينية مباشرة ﴿إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون﴾، والتعبير بأنه ﴿روح منه﴾ فيه مزيد تشريف وإن كانت جميع الأشياء من خلق الله وهذا كقوله سبحانه ﴿وطهر بيتى للطائفين﴾[٢] ﴿هذه ناقة الله﴾[٣] ﴿وأن المساجد لله﴾[٤].

وسمى عيسى بذلك أيضا لكونه بشرى جبريل روح القدس.

٦ – المرحلة الأخيرة من مراحل خلق آدم عليه السلام مثل قوله تعالى: ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين﴾[٥].

أى إذا تم تقويم خلقته وتصوير أعضائه وإبداع أجهزته وخلقت الحياة فيه – وليس ثم نفخ ولامنفوخ وإنما هو تمثيل لجعله حيًا حساسًا ناطقًا بعد أن كان جمادًا – فعلى الملائكة حينئذ أن يسجدوا لآدم عليه السلام سجود تحية وتقدير امتثالا لأمر الله وخضوعا له سبحانه إلا أن قبلة سجودهم هى آدم كما جعلت الكعبة قبلة للصلاة وإنما الصلاة لله وحده لا شريك له.

فى الفلسفة:

يرى بعض الفلاسفة أن العقل أشرف الموجودات لأن جوهر العقل المطلق هو الله يليه الروح وهو أقرب إلى عنصر النور ثم النفس وهى أقرب إلى عنصر الهواء والتراب[٦].

---

(١) سورة النساء آية ١٧١.
(٢) سورة الحج آية ٧٦.
(٣) سورة الشعراء آية ١٥٥.
(٤) سورة الجن آية ١٨.
(٥) سورة الحجر آية ٢٩.
(٦) الإنسان فى القرآن – العقاد ص ٣٦. ط دار الهلال.

ويميز ابن سينا فى بعض كتبه بين النفس والعقل فيقول[١]:

«والنفس إنما نسميها نفسا من جهة وجودها فعالة فى جسم من الأجسام فعلاً من الأفاعيل فأما بحسب جوهره الذى يخصه والذى يفارق به فلا نسميه نفسا إلا بإشتراك الاسم والجاز، والأشبه أن يكون اسمه الخاص به حينئذ العقل لا النفس».

وقد نجد اضطرابا عند ابن سينا حين يجعل العقل قوة من قوى النفس وحين يقول بنظرية الفيض وأن العقل فاض عن الأول ثم فاضت عنه النفس.. ولكن الأرجح - كما يقول الدكتور الأهوانى - فى مذهب ابن سينا أن العقل قوة من قوى النفس، وأن النفس عند مفارقتها البدن قد تسمى نفسا ولكن الأصح أن يقال عنها عقل.

وحكى ابن القيم عن الجمهور أن النفس والروح مسماهما واحد، وأن النفس فى القرآن تطلق على الذات بجملتها كقوله تعالى: ﴿فسلموا على أنفسكم﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾[٤].

وتطلق على الروح وحدها كقوله تعالى: ﴿يـٰأيتها النفس المطمئنة﴾[٥] وقوله تعالى: ﴿أخرجوا أنفسكم﴾[٦] وقوله تعالى: ﴿ونهى النفس عن الهوى﴾[٧] وقوله تعالى: ﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾[٨].

وأما الروح فلا تطلق على البدن لا بانفراد ولا مع النفس[٩]».

وذكر الإمام الغزالى أن ألفاظ النفس والروح والقلب والعقل قد تطلق على معنى واحد هو:

(١) أحوال النفس - تحقيق د. الأهوانى ص ٥٣ دار احياء الكتب العربية ١٣٧١ هـ.

(٢) سورة النور آية ٦١.

(٣) سورة النحل آية ١١١.

(٤) سورة المدثر آية ٣٨.

(٥) سورة الفجر آية ٢٧.

(٦) سورة الأنعام آية ٩٣.

(٧) سورة النازعات آية ٤٠.

(٨) سورة يوسف آية ٥٣.

(٩) الروح ص ٣٢٤.

الجوهر القائم بالإنسان من حيث هو حقيقته، وبه يكون التكليف والخطاب من الله تعالى، وهو الحى الفعال المدرك من الإنسان.

فهذه الألفاظ متحدة بالذات مختلفة بالاعتبار، فمن حيث حياة الجسد روح، ومن حيث الشهوة نفس، ومن حيث آلة الفكر عقل، ومن حيث محل المعرفة قلب.

وأشار الغزالى إلى أن الغالب على أهل التصوف أنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان، فيقولون لا بد من مجاهدة النفس وكسرها..»[١].

ونقل الإمام ابن كثير عن السهيلى أن الروح التى ينفخها الملك فى الجنين هى النفس بشرط اتصالها بالبدن واكتسابها بسببه صفات مدح أو ذم، فهى إما نفس مطمئنة أو أمارة بالسوء.. قال:كما أن الماء هو حياة الشجر ثم يكسب بسبب اختلاطه معها اسمًا خاصًا، فإذا اتصل بالعنبة وعصر منها صار ماء مصطارًا أو خمرًا، .ولا يقال له ماء حينئذ إلا على سبيل المجاز..

وكذا لا يقال للنفس روح إلا على هذا النحو، وكذا لا يقال للروح نفس إلا باعتبار ما تؤول إليه، فحاصل ما نقول أن الروح هى أصل النفس ومادتها، والنفس مركبة منها ومن اتصالها بالبدن، فهى هى من وجه لا من كل وجه..»[٢]

وفى كلام الإمام ابن حزم عن إطلاق لفظ الإنسان ذكر أن طائفة ذهبت إلى أنه إنما يقع على الجسد دون النفس وهو قول أبى الهذيل العلاف واحتجوا بقوله تعالى: ﴿فلينظر الإنسان مم خلق، خلق من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب﴾[٣]

(١) إحياء علوم الدين جـ ٣ ص ٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم جـ ٣ ص ٦١ دار إحياء الكتب العربية.

(٣) سورة الطارق آية ٥: ٧.

وبقوله تعالى: ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى، ثم كان علقة فخلق فسوى﴾[١].

وهذه بلا شك صفة للجسد لا صفة للنفس لأن الروح إنما تنفخ بعد تمام خلق الإنسان الذى هو الجسد.

وذهبت طائفة أخرى إلى أن لفظ الإنسان إنما يقع على النفس دون الجسد وهو قول إبراهيم النظام، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿إن الإنسان خلق هلوعًا، إذا مسه الشر جزوعًا، وإذا مسه الخير منوعًا﴾[٢].

وهذا بلا خلاف صفة النفس لا صفة الجسد، لأن الجسد موات والفعالة هى النفس وهى المميزة الحية الحاملة لهذه الصفات والأخلاق.. وذهبت طائفة إلى أنه إنما يقع عليهما معًا كالبلق الذى لا يقع إلا على السواد والبياض معًا.

وعلق ابن حزم قائلاً:

وكلا هذين الاحتجاجين حق وليس أحدهما أولى بالقول من الآخر، ولا يجوز أن يعارض أحدهما الآخر لأن كليهما من عند الله عز وجل، فقد ثبت أن الإنسان اسم يقع على النفس دون الجسد، ويقع على الجسد دون النفس، ويقع على كليهما مجتمعين فنقول فى الحى: هذا إنسان وهو مشتمل على جسد وروح.

ونقول للميت: هذا إنسان وهو جسد بلا روح.

ونقول : إن الإنسان يعذب قبل يوم القيامة وينعم، يعنى النفس دون الجسد..[٣]

وأخيرًا يقول ابن حزم: «والنفس والروح اسمان مترادفان لمسمى واحد ومعناهما واحد..»[٤].

---

(١) سورة القيامة آية ٣٦: ٣٨. (٢) سورة المعارج آية ١٩: ٢١.

(٣) يرى ابن حزم أن عذاب القبر ونعيمه واقع على الروح فقط وهو مخالف لجمهور أهل السنة.

(٤) الفصل فى الملل والأهواء والنحل جـ ٥ ص ٦٥، ص ٧٤ ط دار الفكر سنة ١٤٠٠ هـ.

وفى رسالة «حى بن يقظان» لابن طفيل نجد تعبيرين عن الروح هما :

(أ) الروح الإنسانى.

(ب) الروح الحيوانى.

والروح الإنسانى هو:

أمر ربانى إلهى لا يستحيل ولا يلحقه الفساد ولا يوصف بشىء مما توصف به الأجسام ولا يدرك بشىء من الحواس ولا يتخيل ولا يتوصل إلى معرفته بآلة سواه بل يتوصل إليه به فهو العارف والمعروف والمعرفة، وهو العالم والمعلوم والعلم لا يتباين فى شىء من ذلك، إذ التباين والانفصال من صفات الأجسام ولواحقها، ولا جسم هناك ولا صفة جسم ولا لاحق جسم.

والروح الحيوانى هو:

الذى يناط به الحس والتغذى والتحرك بالإرادة وهو واحد بالحقيقة فى سائر جنس الحيوان، ومسكنه القلب، ومركز التوزيع الدماغ الذى تخرج منه الأعصاب إلى سائر أعضاء الجسم، وأى عضو عدم هذا الروح بسبب من الأسباب تعطل فعله وصار بمنزلة الآلة المطرحة التى لا يصرفها الفاعل، فإن خرج هذا الروح بجملته عن الجسد أو فنى أو تحلل بوجه من الوجوه تعطل الجسد كله وصار إلى حالة الموت.

وهذان المعنيان يجعلهما ابن سينا اعتبارين للنفس الإنسانية الواحدة فهو يقسمها إلى قسمين:

(أ) العقل العملى:

وهو مبدأ حركة بدن الإنسان بعد الروية وإذا كانت النفس الحيوانية محركة للحيوان أيضًا فليس ذلك بعد روية وتفكير بل بنزوع شوقى ينبعث إما عن الشهوة أو الغضب، والعقل العملى هو الذى يتسلط على البدن ويسوسه فتنشأ الأخلاق.

(ب) العقل العملي:

قوة من شأنها أن تدرك حقائق الكليات المجردة فإن كانت مجردة بالذات فذاك وإن لم تكن فإنها تصيرها مجردة بتجريدها حتى لا يبقى فيها من علائق المادة شيء.

وبإيجاز معبر يقول ابن سينا[١] «فكأن للنفس وجهين وجه إلى البدن ويجب أن يكون هذا الوجه غير قابل ألبتة أثرًا من جنس مقتضى طبيعة البدن (لئلا تنشأ الأخلاق الرديئة) ووجه إلى المبادئ العالية ويجب أن يكون هذا الوجه دائم القبول عما هناك والتأثر منه»

هذا.. والنفس واحدة لكن لها صفات فتسمى باعتبار كل صفة باسم خاص مثل:

النفس المطمئنة:

ويشرحها ابن القيم بقوله[٢]:

«اطمأنت إلى ربها بعبوديته ومحبته والإنابة إليه والتوكل عليه والرضا به والسكون إليه، فإن سمة محبته وخوفه ورجائه منها قطع النظر عن محبة غيره وخوفه ورجائه، فيستغنى بمحبته عن حب ما سواه، ويذكره عن ذكر ما سواه، وبالشوق إليه وإلى لقائه عن الشوق إلى ما سواه، فالطمأنينة إلى الله سبحانه حقيقة ترد منه سبحانه على قلب عبده تجمعه عليه وترد قلبه الشارد إليه حتى كأنه جالس بين يديه يسمع به ويبصر به ويتحرك به ويبطش به، فتسرى تلك الطمأنينة فى نفسه وقلبه ومفاصله وقواه الظاهرة والباطنة، تجذب روحه إلى الله ويلين جلده وقلبه ومفاصله إلى خدمته والتقرب إليه..

(١) أحوال النفس ص ٦٤.

(٢) الروح ص ٣٢٩.

النفس اللوامة:

اختلف الناس فيها هل هى من التلوم وهو التردد فهى كثيرة التقلب فسبحان مقلب القلوب أم من اللوم؟

وإذا كانت من اللوم فهل هى خاصة بالمؤمن يراجع نفسه دائمًا أم هى عامة فالمؤمن من يلوم نفسه على ارتكاب المعصية والشقى يلوم نفسه على فوات حظها وهواها؟

وهل ذلك فى الدنيا أم فى الآخرة حيث يلوم كل إنسان نفسه إن كان محسنًا فلم لم يستزد وإن كان مسيئًا فلم لم يتب؟

كل هذه الأقوال حق ولا تنافى بينها ولكن ابن القيم يقدم لنا تفسيره فيقول:[١] اللوامة نوعان:

لوامة ملومة وهى النفس الجاهلة الظالمة التى يلومها الله وملائكته.

ولوامة غير ملومة هى التى لا تزال تلوم صاحبها على تقصيره فى طاعة الله مع بذله جهده فهى غير ملومة وأشرف النفوس من لامت نفسها فى طاعة الله واحتملت ملام اللائمين فى مرضاته فلا تأخذها فيه لومة لائم فهذه قد تخلصت من لوم الله،وأما من رضيت بأعمالها ولم تلم نفسها ولم تحتمل فى الله ملام اللوام فهى التى يلومها الله عز وجل.

النفس الأمارة:

وهى الجانب الشرير من الإنسان وقرينها الشيطان يعدها الأمانى الكاذبة ويقذف فيها بالباطل ويأمرها بالسوء والفحشاء.

وفى حديث رواه النسائى والترمذى وأخرجه ابن حبان عن ابن مسعود

---

(١) الروح ص ٣٣٧.

رضى الله عنه قال: قال ﷺ: «إن للشيطان لمة بابن آدم، وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان ثم قرأ ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً﴾ الآية»

وبعد - فإننا سنجرى فى بحثنا على استعمال النفس والروح بمعنى واحد هو: الجوهر الذى هو الإنسان فى الحقيقة، بعيدًا عن البدن المادى المحسوس، والذى يناط به التكليف وعليه تقوم الحياة..

فذلك وضع اللغة يقال: خرجت نفسه أى روحه..

وهذا رأى جمهور العلماء كما أشار إليه الغزالى وابن حزم وابن القيم.. وقبل ذلك وبعده هو استعمال القرآن المجيد حيث قال فى خلق آدم عليه السلام ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين﴾[١].

فالروح هنا هى المرحلة الأخيرة من خلق آدم وبها صار إنسانًا قابلاً للخطاب والتكليف..

وقال جل شأنه: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى﴾[٢]

فالنفس هنا مراد بها ما كان بها حياة الإنسان وحركته.

وجاء فى السنة المطهرة استعمال الروح والنفس بمعنى واحد، ففى الحديث الشريف الذى يبين مراحل تطور الجنين يقول عليه الصلاة والسلام «إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يومًا نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل الله الملك فينفخ فيه الروح..»

---

(١) سورة ص آية ٧٢.

(٢) سورة الزمر آية ٤٢.

فالروح هنا تعنى المرحلة الأخيرة من خلق الإنسان وبها صار حيا حياة إنسانية، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرًا ما يقسم ويقول:

«والذى نفسى بيده..»

فالروح والنفس بمعنى واحد.

الباب الأول

الروح فى الحياة الدنيا

وفيه فصول أربعة:

الفصل الأول : حقيقة الروح.

الفصل الثانى : نشأة الروح.

الفصل الثالث: الروح مع البدن وفيه مبحثان:

(أ) المعرفة الإشراقية.

(ب) الرؤى والأحلام.

الفصل الرابع: الروح عقب الموت وفيه مبحثان:

(أ) عالم البرزج.

(ب) تحضير الأرواح.

الفصل الأول

حقيقة الروح

هل للروح وجود حقيقى؟ وما ماهية هذا الوجود؟.

سؤالان أو سؤال ولازمه شغل الفكر الفلسفى طوال عصوره وتباينت فيه الآراء وتناقضت معه الأفكار..

ولبيان ذلك نسلك مرحلتين:

(أ) مرحلة النفى وفيها نعرض آراء أولئك الذين يزعمون نفى وجود الروح أو يفسرونها تفسيرا يبطل وجودها المتفرد.

(ب) مرحلة الإثبات وفيها نعرض أدلة المثبتين للوجود الروحى المتميز.

وبعد ذلك نستعرض تصورات الوجود الروحى لدى الفلاسفة والمتكلمين مع الترجيح لما نراه أقرب إلى الحق وأدنى لشواهد الشرع.

مرحلة النفى:

أنكر بعض الفلاسفة الروح ولم يثبتوا إلا الجسد وعناصره التى يتركب منها وما ينشأ عن الصورة التركيبية من خواص ليست لأحد العناصر منفردا..

وحكى الإمام الرازى[1] عن الأطباء وأبى الحسين البصرى من المعتزلة أن العناصر الأربعة إذا امتزجت وانكسرت سورة كل واحد بسورة الآخر حصلت كيفية معتدلة هى المزاج، ومراتب هذا المزاج غير متناهية فبعضها هى

---

(١) التفسير الكبير جـ٢١ ٤٥.

الإنسانية وبعضها هى الفرسية، فالإنسانية عبارة عن أجسام موصوفة متولدة عن امتزاجات أجزاء العناصر بمقدار مخصوص.

وكان الأصم - كما نقل الأشعرى[١] - لا يثبت الحياة والروح شيئا غير الجسد ويقول: ليس أعقل إلا الجسد الطويل العريض العميق الذى أراه وأشاهده، وكان يقول: النفس هى البدن بعينه لا غير وإنما جرى هذا الذكر على جهة البيان والتأكيد لحقيقة الشيء لاعلى أنها معنى مغاير للبدن.

ومن عجب أن يذهب بعضهم إلى أن الروح هى الدم الصافى تقوى الحياة باعتداله وتفنى بفنائه وحجتهم فى ذلك أن الإنسان إذا مات لم يفقد من جسمه إلا دمه، ومنهم من قال إن الروح هى النسيم الداخل والخارج من الهواء[٢].

ويرى الفلاسفة الماديون أن الفكر - وهو أخص وظائف النفس - ليس إلا وظيفة عضوية للمخ لإنتاج الأفكار كما أن وظيفة المعدة هضم الطعام ووظيفة الكبد إفراز الصفراء، وكيفية إحداث المخ للأفكار - كما يقول الفرنسى غابانيس[٣] (١٧٥٧ - ١٨٠٨) - هو أن التأثيرات تتوارد إلى المخ فتدخله فى العمل كما تنزل الأغذية إلى المعدة فتهيجها إلى زيادة إفراز العصارة المعدية.

لمزيد من الإيضاح فإن هوبز الفيلسوف الإنجليزى (١٥٨٨ - ١٦٧٩) يفسر الوجود كله بالمادة حتى عمليات الذهن العقلية، فالمعرفة كلها مصدرها الإحساس الذى هو عملية مخية تبدأ بمؤثر خارجي يضغط على الجسم الإنسانى، أما الانفعالات فهى كلها حركات جسمية، والتخيل أساسه إحساس متقادم، والذاكرة مجموعة إحساسات قديمة ذابلة وأما تداعى المعانى فهو يرجع إلى حركات فى المخ[٤].

---

(١) مقالات الإسلاميين جـ٢ ص٢٧.

(٢) المواقف لعضد الدين الإيجى مع شرح الشريف الجرجانى جـ٧ ص ٢٥٠.

(٣) دائرة معارف القرن العشرين - محمد فريد وجدى جـ٤ ٣٣٠.

(٤) الفلسفة ومباحثها - د. أبو ريان ص ١٧٥.

وترى الفلسفة الماركسية أن الفكر لايصدر عن جوهر روحى فى الإنسان وإنما هو انعكاس للمادة ونتاج لها بسبب حركتها المستمرة، وعندهم ما يسمى بالمادية الجدلية التاريخية بمعنى أن المنطق مادة وتاريخ فلا وجود إلا للمادة، ومظاهر الوجود نتيجة تطور متصل للقوى المادية فى حركتها المستمرة التى تتخذ أشكالا متعددة فزيائية وكيميائية (كحركات ذرات الماء وجزئياتها) وبيولوجية (حركات الأجسام البروتينية) واجتماعية (الصراع بين طبقات المجتمع الواحد)[١].

وسميت هذه المادية الجدلية بالتاريخية لأن الماركسية تنقم على الفلاسفة نظرتهم التأملية الذاتية التى تحاول تفسير العالم، وتذهب الماركسية إلى الاهتمام بدراسة تاريخ الإنسان لأن الوجود الخارجى هو الذى ينشىء الوجدان الإنسانى من غير عكس، وأن الجدل ليس مجرد قرع حجة لحجة وإنما هو انتقال من حال وجودية إلى حال وجودية أخرى، وبصيرورة المادة وتغيرها يتغير الناس.

ويزعمون أنه فى ظل المجتمع البدائى الأول كانت الحرفة السائدة هى الجمع والالتقاط فلم يكن يبذل الإنسان حينئذ مجهودا فى استغلال الطبيعة واستثمار مواردها وهذه الصورة المادية أثرت فى حياة الناس ونظمهم فكان المجتمع شيوعيا تنتفى فيه الملكية الخاصة والاسرة - وحين وجدت طاحونة اليد كان العصر عصر استرقاق لأن الملاك لم يكن فى مقدورهم إدارة الرحى.. وهكذا يفسرون كل مظاهر الحياة السياسية والأخلاقية عن طريق تطور أساليب انتاج الثروة المادية وتأثيرها.

وهناك اتجاه آخر ينفى الروح ويقدم تفسيرا للفكر والأخلاق يعتمد على نظرية التطور لدارون (١٨٠٩ - ١٨٨٢) التى تقوم على قانون الانتخاب الطبيعى القائل بأن الحياة نشأت بمحض الاتفاق والمصادفة البحتة، فالخلية

---

(١) مقدمة فى الفلسفة العامة - د. يحيى هويدى ص ١٧٨.

الحية أو الأميبا صورة متطورة من المادة البحتة غير العضوية ثم تطورت تلك الخلية البسيطة إلى أخرى معقدة فظهرت المملكة النباتية والحيوانية ثم ظهرت الزواحف بأنواعها وما لبثت أن انقرضت وقام على أنقاضها الثدييات ومن بينها الإنسان الذى تطور عن القردة العليا والفرق بينه وبين الحيوان فرق بالكم والدرجة فقط، والعاطفة الأخلاقية لدى الإنسان ماهى إلاصفات ووظائف يتطلبها الانتخاب الطبيعى، والحياة النفسية عند الإنسان هى كما عند الحيوان مرتبطة بوظائف الأعضاء.

وقوانين الانتخاب الطبيعى ثلاثة هى:

١ - قانون الملاءمة بين الحى والبيئة الخارجية.

٢ - قانون استعمال الأعضاء أو عدم استعمالها بحيث تنمو الأعضاء أو تضمر أو تظهر أعضاء جديدة حسب الحاجة.

٣ - قانون الوراثة وهو يقضى بأن الاختلافات المكتسبة تنتقل إلى الذرية.

وبعد - هذه باختصار اتجاهات النافين لوجود الروح الإنسانى.

نقد ونقض:

أولا: كثير من الفلاسفة يعد وجود النفس أمرًا بدهيا لايحتاج إلى برهان، حتى إن «ديكارت» أبا الفلسفة الحديثة (١٥٩٦ - ١٦٥٠) وهو فى شكةالمطلق أثبت أن النفس حقيقة لامرية فيها.. وها هو ذا يقول[١]:

أنا أستطيع الشك فى كل شىء ماخلا شكى، ولما كان الشك تفكيرا فأنا أفكر، ولما كان التفكير وجودا فأنا موجود (أنا أفكر إذن أنا موجود) تلك حقيقة مؤكدة واضحة متميزة خرجت من ذات الفكر لها ميزة نادرة هى أنى أدرك فيها الوجود والفكر متحدين اتحادا لا ينفصم، ومهما يفعل الروح الخبيث (الشيطان) فليس يستطيع أن يخدعنى فيها لأنه لايستطيع أن يخدعنى

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة - يوسف كرم ص٦٦.

إلا أن يدعنى أفكر.. وإذن فأنا أتخذ هذه الحقيقة مبدأ أول للفلسفة، فالفكر مبدأ لأنه وجود معلوم قبل كل وجود، وعلمه أوضح من علم كل وجود، وهو معلوم بداهة..

ومهما نعلم فنحن بفكرنا أعلم فمثلا لو اعتقدت أن هناك أرضا بسبب أنى ألمسها وأبصرها فيجب أن أعتقد من باب أولى أن فكرى موجود، إذ قد أفكر أنى ألمس الأرض دون أن يكون هناك أرض، ولكن ليس من الممكن ألا أكون موجودا فى الوقت الذى أفكر فيه، ثم أنا أتخذ هذه الحقيقة معيارا لكل حقيقة، وتعريف الفكر... بالإجمال.. أنه كل ما يحدث فينا بحيث ندركه حالا بأنفسنا، فحين أقول إنى شىء مفكر أقصد أنى شىء يشك ويثبت وينفى ويعلم قليلا من الأشياء ويجهل الكثير، ويحب ويبغض ويريد ويأبى، ويتخيل ويحس.. والفكر صادر عن النفس - أو هو النفس أو الروح - خالص ثابت عندى مهما أشك فى وجود جسمى وسائر الأجسام».

ثانيا: إن أى محاولة لتفسير الروح بعوارض الجسد أو لوازمه هى محاولة فاشلة، ومجرد إدعاء باطل، ولايعقل أن يكون الروح نسيماً من الهواء أو عرضا للبدن وإلا لماتوفى الإنسان لأن الهواء يحيط به والعرض لايفارق الجوهر الحامل له.. كما يترتب على ذلك أن يتبدل الإنسان فى كل ساعة آلافًا مؤلفة من الأنفس والأرواح لأن الهواء الداخل فى التنفس غير الهواء الخارج ولأن العرض لا يبقى عندهم زمانين فهو متجدد دائما..

هذا وقد أصبح من المشاهد عمليات نقل الدم وتبادله بين الناس فهل تتبادل الأرواح حينئذ إذا كان الروح هو الدم؟!.

وقد استطاع الطب حديثًا أن يغير دم الإنسان بأكمله فى بعض حالات المرض فما ظن أولئك الذين يفترون الكذب؟!.

ثالثًا: إن ثبوت كون المخ هو سبب الإدراك لايستدل منه على أن المخ هو المدرك فى الحقيقة وإنما يقال عنه حينئذ إنه آلة للإدراك كما أن العين آلة

للإبصار، والأذن آلة للسمع، وليس المبصر هو العين ولاالسامع هو الأذن وإلا لثبت ذلك طردا وعكسا، ولكننا نلاحظ أن العين قد تكون سليمة من كل عاهة ومفتوحة ولايبصر الإنسان من أمامه لفرط فزع أو شدة ألم أحاط به، وقد يكون فى تلك الحال فينادى عليه أدنى الناس منه مكانا ولا يسمع له نداء.

ثم إن النائم يبصر ويسمع ويتكلم فى رؤياه وقد بطل عمل بصره الجسدى وعمل أذنيه الحسى، وكلام لسانه المادى: بل بدأ[1] العلماء فى الفترة الأخيرة يتعرفون على أسرار جديدة فيما يختص بعملية الإبصار فليس من الضرورى أن تكون لنا عيون تقليدية فقد وجد العلماء أن بعض الكائنات البدائية جدا والتى تتكون من خلية واحدة لاغير - قادرة على الرؤية لقد اكتشفوا تفاعلات معينة فى جدار جسمها، ووجدوا أن هذه التفاعلات تتم فقط، عندما يصدر عنها مايشير إلى أنها رأت شيئا... رأت طعاما فسعت إليه أو رأت مصدر خطر فابتعدت عنه..

من ذلك نستنتج أن العقل المبصر السامع المتكلم غير الجسد، وهو المسمى نفسا أو روحا.

وليس لقائل أن يدعى أن عدم الرؤية والسماع عند فرط الفزع أو الألم حدث من انصراف الإنسان عن التمييز لاشتغال المخ بما ألم به.. فهذا إيراد واهى الدعائم - كما يقول العلامة محمد فريد وجدى[2] - فإن الذى شأنه أن ينصرف من شىء إلى شىء فيقف على أمر دون آخر لايعقل أن يكون ماديا محضا فقد عهدنا الآلات المادية لاتنصرف إلى شىء دون شىء إلا إذا حال بينهما حائل مادى فالمرآة لا يعقل أن تنصرف إلى رسم شخص دون شخص مادام ليس بين أحدهما وبينها حجاب كثيف.. وإذا كان المخ - كما يزعمون - مادة محضة مثل آلة الساعة فمن الجنون أن نعزو لها الانصراف إلى ألم أو فزع،

---

(١) جريدة الجمهورية (١٩٧٣/١/٤).

(٢) دائرة معارف القرن العشرين جـ٤ ص ٣٣٢.

إذ التألم والفزع أمور معنوية محضة وربما كانت وهمية فإن كان يخجلك أن تقول: فزع القطار عن القضيب أو تألمت الساعة فضلتنى عن الوقت - كان أولى لك أن تخجل من ادعاء تألم المخ أو فزعه وهو فى نظرك مادة محضة!!!.

رابعًا: وأما مادية هوبز فما هى إلا مادية ديمقريطس وأبيقور بكل سذاجتها ونسى هؤلاء جميعا أو تناسوا أن استتباع الظاهرة النفسية لمظهر انفعالى طبيعى فى البدن لايجعلها مادية، فالروح تتعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف.

ثم إن محاولة قصر المعرفة على الحس تضييق لمجال الفكر، ووأد لتطلعاته، وماذا هم قائلون وقد تحولت المادة إلى طاقة غير محسوسة؟ وكيف يفسرون خداع الحواس؟ أليس السراب مثلا حين رؤيته ينقدح فى نفسنا أنه حقيقة ولا مصحح لهذا الوهم إلا حكم العقل المجرد البعيد عن الحس؟!.

وأسوق هنا موقف الإمام الغزالى عندما أراد الوصول إلى الحقيقة فيقول:[1]

من أين الثقة بالحواس؟

وأقواها حاسة البصر وهى تنظر إلى الظل فتراه واقفًا غير متحرك وتحكم بنفى الحركة ثم بالتجربة والمشاهدة - بعد ساعة - تعرف أنه متحرك وأنه لم يتحرك دفعة بغتة بل على التدريج ذرة ذرة حتى لم تكن له حالة وقوف.

وتنظر إلى الكوكب فتراه صغيرًا فى مقدار دينار ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض فى المقدار.

هذا وأمثاله من المحسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكذيبًا لا سبيل إلى مدافعته.

فقلت قد بطلت الثقة بالمحسات أيضًا فلعله لا ثقة إلا بالعقليات التى هى

(١) المنقذ من الضلال - تحقيق د. عبد الحليم محمود ص ٧٧.

من الأوليات كقلنا: العشرة أكثر من الثلاثة والنفي والإثبات لا يجتمعان فى الشيء الواحد، والشيء الواحد لا يكون حادثًا قديمًا، موجودًا معدومًا، واجبًا محالاً.

فقالت الحواس: وبم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسات وقد كنت واثقًا بى فجاء حاكم العقل فكذبنى ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقى فلعل وراء إدراك العقل حاكمًا آخر إذا تجلى كذب العقل فى حكمه كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس فى حكمه..

وعدم تجلى ذلك الإدراك لا يدل على استحالته.

فتوقفت النفس فى جواب ذلك قليلاً، وأيدت إشكالها بالمنام وقالت أما تراك تعتقد فى المنام أمورًا وتتخيل أحوالاً، وتعتقد لها ثباتًا واستقرارًا ولا تشك فى تلك الحالة فيها ثم تستيقظ فتعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل؟!

فبم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده فى يقظتك بحس أو عقل هو حق بالإضافة إلى حالتك التى أنت فيها لكن يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها إلى يقظتك كنسبة يقظتك إلى منامك وتكون يقظتك نومًا بالإضافة إليها فإذا وردت تلك الحالة تيقنت أن جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها؟!

ولعل تلك الحالة ما تدعيه الصوفية أنها حالتهم إذ يزعمون أنهم يشاهدون فى أحوالهم التى لهم إذ غاصوا فى أنفسهم وغابوا عن حواسهم - أحوالاً لا توافق هذه المعقولات.

ولعل تلك الحالة هى الموت إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»[1].

فلعل الحياة الدنيا نوم بالإضافة إلى الآخرة فإذا مات ظهرت له الأشياء

(١) هذا الحديث ذكره على قارى فى الموضوعات.

على خلاف ما يشاهده الآن ويقال له عند ذلك «فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد» ا هـ.

وهذا تحليل عميق لأغوار النفس الإنسانية وكل ما يعنينا منه فى هذا المقام أن وراء الحس مجالاً أرحب قد نسميه عقلا أو نفسًا أو روحًا.

خامسًا: إن الفلسفة الماركسية جعلت الإنسان كالآلة الصماء؛ وادعاؤها أن الفكر انعكاس فقط للمادة وهم باطل فإن الفكر قبل أن يكون إنعكاسًا فهو إسقاط يقوم فيه الإنسان بفرض الفروض وهو بعد ذلك تقييم ومعيار يحكم على الشىء.. وتاريخ الإنسانية لا يفسر تفسيرًا ماديًّا فحسب بل إنه قبل ذلك وبعده.. عقل وروح فإذا تحسسنا جذور الحضارات الأولى التى شيدها الإنسان نجد أنها قامت على أساس من الدين والتدين، وما الأهرام بكل شموخها، وما فن التحنيط بكل دقته، وما تلك الفنون الرائعة فى النحت والنقش والتصوير.. ما كل ذلك إلا ثمرة إيمان وفكر وروح.. وكذلك الحال فى الحضارات الفارسية والصينية والإغريقية فقد تفجرت عن عقيدة وتوثقت بإيمان.

وإذا كان إيمان هؤلاء لم يصل إلى حقيقته أو كماله فإن المسلمين يوم عرفوا طريقهم إلى كتاب الله واستلهموه رشدهم وألقوا إليه السلم – قادهم إلى أمة هى من التاريخ غرته ومن الزمان ربيعه، حيث جعل من حفاة الأعراب وسدنة الأصنام علماء الإنسانية وحكماءها ودعاة التوحيد والوحدة فيها وعاشت حضارتهم فى دنيا الناس قرونًا زاهرة أنتجت للإنسانية كل ما تصبوا إليه فى وقتها، ومهدت للحضارة الحديثة التى كان عمدها الرئيسية مراكز حضارة الإسلام فى الأندلس وصقلية والقاهرة ودمشق وبغداد.. ولا يمكن إدراك سر ذلك وفهم أسبابه إلا إذا رددناه إلى قوة الإيمان وصدق العقيدة فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان[1].

---

(١) لمزيد من التفصيل راجع «الدين والحضارة» ص ١٦٨ من هذا الكتاب.

سادسًا: إن القول بالتطور مجرد فرض يعوزه التحقيق العلمى وكل ما ادعوه من أدلة هى:

١ - الدليل التشريحى:

قالوا أن أجزاء الهيكل العظمى للإنسان تتشابه بمثيلاتها فى الحيوانات الأخرى، فذراع الإنسان والرجل الأمامية من ذوات الأربع تتشابه عظامها فى التركيب وإن اختلفت فى الوظيفة وكذلك الحال بالنسبة للأجهز ة الهضمية والتناسلية.. الخ.

وهذا الدليل لا ينهض برهانًا على دعواهم،ومتى كان التشابه دليلاً على أن أحدهما أصل للآخر وذلك الآخر منقلب عنه؟!

لقد كان الأولى أن يقال إن تشابه الخلق دليل على وحدة الخالق وصدق الله إذ يقول: ﴿وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾[1].

٢ - دليل التراكيب الأثرية:

ويعنون به أن بعض الأعضاء زائدة فى الإنسان ولا فائدة منها مثل الشعر الموجود فى جسم الإنسان البالغ، وكذا الزائدة الدودية، والقدرة على تحريك الأذن عند بعض الناس. فظهور هذه الفضلات ما هى إلا آثار لصفات فقدها الإنسان منذ أمد بعيد نتيجة التكيف مع الوضع الجديد.

وبدهى أن العلم لا يعرف الكلمة الأخيرة؛ والحكم على هذه الأعضاء بالزيادة حمق وبلاهة فهل أحطنا علمًا بكل شىء وعرفنا كل صغيرة وكبيرة فى الإنسان أعضائه ومشاعره؟! كلا وفوق كل ذى علم عليم.

---

(١) سورة الأنعام آية ٣٨.

٣ - دليل الصور الجنينية:

وقد بنى على أساس أن تحولات الجنين فى الفرد الواحد صورة مصغرة لتحولات النوع وقالوا أيضًا أن الأطوار الأولى للجنين تتشابه فى كل من الإنسان والحيوان، وحاول ارنست هيكل (١٨٣٤ - ١٩١٩) عرض صور لجنين القرد وجنين الإنسان كى يثبت تطابقهما[١].

وقد ثبت أن هيكل كان مزورًا فى الصور التى عرضها وافتضح أمره وظهر بعده عن المنهج العلمى. وقد زعم أن الحياة ترجع إلى أصل واحد هو «المونيرا» التى تركبت اتفاقًا من الآزوت والهدروجين والأكسجين والكربون ثم تطورت على التوالى حتى تكونت جميع الكائنات الحية وبينها وبين الإنسان - فى زعمه - اثنتان وعشرون حلقة، وقد رتبها مستعينًا ببقايا الأحياء فى طبقات الأرض ولما لم يجد من الكائنات ما يملأ هذه السلسلة الوهمية بدأ يتخيل كائنات حية لم توجد ليسد بها الفراغ.

فهل تبنى حقائق العلم على التخيل؟!

وهل من الأمانة العلمية الافتراء على التاريخ؟!

٤ - دليل الحفريات:

فقد اكتشفوا هياكل وجماجم بشرية قديمة تثبت فى نظرهم التطور الذى توالى على الإنسان

وكل ما اكتشفوه من حفريات للإنسان إنما يؤكد الاختلاف الكمى للإنسان فى مختلف العصور فكونه هنا ماردًا وهناك قزمًا، أو جمجمة هذا الإنسان أكبر حجمًا من ذاك.. ليس فيه شائبة تطور الإنسان عن نوع آخر

---

(١) راجع كتاب الفلسفة ومباحثها - د. أبو ريان ص ١٧٨ وتاريخ الفلسفة الحديثة يوسف كرم ص ٤٠٠ وأسس الفلسفة د. توفيق الطويل ص ١٢٠.

وإنما هو تطور داخل النوع الواحد تبعًا للبيئة وظروف الطقس والمناخ.

وقوانين الانتخاب الطبيعى الثلاثة منقوضة:

فبالنسبة لقانون الملاءمة نجد أن القردة العليا تعايش الإنسان الأول فى بيئة واحدة وتخضع معه لظروف واحدة ولا تتطور فتصبح من بنى البشر كما أن أشجار الغابات منذ أزمان سحيقة تتجاور وتسقى بماء واحد ومع ذلك فهى أنواع شتى وليست نوعًا واحدًا. وبالنسبة لقانون نمو الأعضاء وضمورها حسب الحاجة نجد أن من البشر من يولد بأصابع زائدة عما اعتاده الناس أو بوضع خلقى شاذ غير مألوف.. فأى قانون يحكم هؤلاء الشواذ من البشر؟!

وبالنسبة لقانون الوراثة نجد أن اليهود والعرب منذ آلاف السنين يقومون بعملية الختان لأبنائهم ومع ذلك فلم يولد إنسان مختون رغم هذه الأحقاب المتطاولة

بعد هذا نقول:

إن ادعاء المصادفة فى نشأة الحياة قول يبرأ منه العلم وتنفيه حقائق الكون فإن النظر فى سمائه وأرضه، حيوانه وطيره، بحره وبره، ثمره وزرعه كفيل بدحض هذا الافتراء..

وإذا كان الإنسان عناصر مادية فحسب وليس فيه روح من أمر الله فكيف فشلوا فى تحضير الخلية الحية رغم معرفتهم بتكوينها العنصرى الكيميائى؟

ونردد مع الشاعر الربيع الغزالى:[١]

سر الحياة.. من الذى أحيا به ... صور الحياة تخالفت ألوانا
هل يستطيع العلم خلق قلامه ... أو أن يسوى فى اليدين بنانا
والنفس يا للنفس ما أسرارها ... والعقل من أعلى به الإنسانا
والجسم صَوّره سلالة طينة ... تجرى الوراثة فيه أعجب شانا

(١) مجلة الوعى الإسلامى شوال سنة ١٣٩٠.

هاتوا من الجزار بعض عظامه ... أو بعض لحم واصنعوا إنسانا
ثم اصنعوا عقلاً له ودعوه يـ ... ـشى بينكم هل يستوى حيوانا
يا كافرا بالله فانظر هل ترى ... من أنت؟ ماذا فى إهابك كانا[١]
جئت الوجود أجئته بإرادة ... قد شئتها وحللت فيه مكانا
وحييت هل تحيا بأمرك آنة ... وشببت هل تنمو بأمرك آنا
وإذا قَضَيت فهل بأمرك تنتهى ... منك الحياة وتلبس الأكفانا
من ذا أراد لك الوجودَ أأنت أم ... أبواك قد شاءاك ساعة كانا
قد ألقياك مجاجة ممجوجة ... فإذا المجاجة سويت إنسانا
من ذا أراد؟ أأنت أم رحم بها ... قد كنت شيئًا يشبه الديدانا
يا دودة فى القاع من قد شاءها ... بشرا سويًّا يملأ الأكوانا
الله رب الخلق جل جلاله ... خلق الحياة وصور الأبدانا

* * *

وإذا تنزلنا عن هذا التحدى وهو خلقهم إنسانا من طين، وفرضنا جدلاً أنهم استطاعوا تخليق إنسان فى أنبوبة اختبار بالجمع بين الحيوان المنوى والبويضة[٢] - رغم محاولاتهم اليائسة - فإنهم لم يصنعوا شيئًا أكثر من تهيئة جو لهذا الكائن الحى شبيه بجو الرحم والله سبحانه هو الذى يتولى تخليقه وتطويره فى مراحل خلقه ويمسك الروح فيه إن شاء.. ويبقى التحدى القرآنى قائمًا:

﴿أفرأيتم ما تمنون، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون﴾[٣].

* * *

---

(١) الإهاب: الجلد ما لم يدبغ.

(٢) قد يتساءل البعض عن نسب هذا الإنسان الجديد ونقول إنه ينسب إلى من أخذ منه الحيوان المنوى ومن أخذت منها البويضة إن كان بينهما عقد شرعى وإلا فهو من اللقطاء له حكمهم وتتكفل به الدولة أو أحد رعاياها دون حق النسب.

(٣) سورة الواقعة آية ٥٨، ٥٩.

وقد اعترف دارون ذاته فى نهاية حياته أن الكلمة الأخيرة عنده هى أن المسألة خارجة عن نطاق العقل..

وأخيرا نقول مع يوسف كرم:[١]

إن النوع ثابت من حيث الجوهر، متغير من حيث العرض، ولكن دارون اتخذ التغير العرضى معيارا، وفسر الأنواع أنفسها كما تفسر الأصناف..

وقد نسلم بالتطور ثم نرانا مضطرين إلى اعتبار الإنسان نوعا قائما بذاته بسبب ما يختص به من علم ولغة وفن وصناعة وخلق ودين، وهى مظاهر للعقل لا نظير لها ولاأصل فى سائر الحيوان.

وقد نسلم بالتطور ثم نرانا مضطرين إلى الإقرار بوجد للمادة موجه لها لقصور المادة عن تنظيم نفسها.

ولكن من العلماء والفلاسفة من يفكرون كالعامة بالمخيلة دون العقل فيسيغون المحالات».

مرحلة الإثبات:

فى نقدنا السابق - فى مرحلة النفى - تدليل ضمنى على إثبات الوجود المتميز للروح المغاير للبدن، لأن الأمر منحصر فى قسمين متى بطل أحدهما ثبت الأخر، فالإنسان إما أن يكون هذا البدن فقط أو شيئا مغايرا له..

وسندلى هنا بمزيد بيان وتفصيل ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة﴾.

١ - البرهان الطبيعى:

يقوم هذا الدليل على فكرة الحركة الإرادية للإنسان مامصدرها؟ هل العلة فيها أنه جسم؟.

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٣٥٥.

لو كان الأمر كذلك لتحرك كل من النبات والحجر حركة إرادية لأن كل متحيز فهو جسم..

فالحركة الإرادية - إذن - لاتصدر عن الجسم.

هل العلة فيها هذا المزاج الناشئ عن اجتماع العناصر المادية المختلفة؟!
كلا فالمزاج يمانع الإنسان كثيرا فى حركته، كما إذا صعد الإنسان جبلا فهو يريد - باستمرار - أن يصل إلى فوق ولكن هيئته التركيبة المادية تشده دائما إلى الأرض بفعل جاذبيتها وبسبب انتمائه إلى عناصرها..

فالحركة الإرادية ليست ناشئة عن الجسمية ولا عن المزاج الخاص وإنما مبدؤها الذى تصدر عنه هو النفس..

وقد عبر ابن سينا عن هذا الدليل بقوله الموجز[1]: «الإنسان يتحرك بشىء غير جسميته التى لغيره، وبغير مزاج جسمه الذى يمانعه كثيرا حال حركته..».

٢ - برهان الاستمرار:

وخلاصة هذا الدليل أن هناك فرقا بين النفس والبدن ولا علاقة للنفس بمظاهر الجسد التى تتعاقب عليها الأضداد، وينتابها من التغير والضعف والفساد ما لاثبات معه.

والغذاء المستمر للإنسان إنما هو لحفظ الجسم وبناء ما يتحلل منه، وتذهب أعضاء الإنسان عضوا عضوا.. ومع كل هذا فالنفس واحدة لاتتبدل، وقواها العقلية على أشدها لم ينتقص منها ما يوازى العضو الجريح أو الجزء المريض..

وقد ثبت علميا أن خلايا الجسم تتجدد باستمرار حتى يأتى وقت لايكون فى الجسم خلية قديمة ومع هذا الفناء البدنى فإن الإنسان هو الإنسان بعقله وسلوكه.. فالروح شىء غير الجسم وهى باقية رغم فنائه..

---

(١) الإشارات - تحقيق د. سليمان دنيا ص ٣٢٥ جـ٢.

يقول ابن سينا[١]: تأمل أيها العاقل فى أنك اليوم فى نفسك هو الذى كان موجودا جميع عمرك حتى إنك تتذكر كثيرا مما جرى من أحوالك، فأنت إذن ثابت مستمر لا شك فى ذلك، وبدنك وأجزاؤه ليس ثابتا مستمرا بل هو أبدا فى التحلل والانتقاص، ولهذا يحتاج الإنسان إلى الغذاء بدل ما تحلل من بدنه.. ولهذا لو حبس عن الإنسان الغذاء مدة قليلة نزل وانتقص قريب من ربع بدنه فتعلم نفسك أن فى مدة عشرين سنة لم يبق شىء من أجزاء بدنك، وأنت تعلم بقاء ذاتك فى هذه المدة بل جميع عمرك فذاتك مغايرة لهذا البدن وأجزائه الظاهرة والباطنة.

فهذا برهان عظيم يفتح لنا باب الغيب فإن جوهر النفس غائب عن الحواس والأوهام فمن تحقق عنده هذا البرهان وتصوره فى نفسه تصورا حقيقيا فقد أدرك ما غاب عن غيره».

وإذا اعترض على هذا الدليل بأن النفس قد تنسى معقولاتها عند المرض أو تضعف عند الشيخوخة فإن ابن سينا يقول: ليس لهذا الاعتراض اعتبار لأن النفس لها فعلان: فعل بالقياس إلى البدن وهو السياسة، وفعل بالقياس إلى ذاتها وهو التعقل وهما متعاندان متمانعان فإذا اشتغلت النفس بأحدهما انصرفت عن الآخر.. ثم يوضح هذا بقوله[٢]:

وشواغلها من جهة البدن الإحساس والتخيل والشهوات والغضب والخوف والغم والوجع.. وأنت تعلم هذا بأنك إذا أخذت تفكر فى المعقول تعطل عليك كل شىء من هذه إلا أن تغلب أو تقسر النفس بالرجوع إلى جهتها، وأنت تعلم أن الحس يمنع النفس عن التعقل فإنها إذا أكبت على المحسوس شغلت عن المعقول من غير أن يكون أصاب آلة العقل أو ذاتها آفة بوجه، وتعلم أن السبب فى ذلك هو اشتغال النفس بفعل دون فعل».

---

(١) أحوال النفس - تحقيق د. الأهوانى ص ١٨٣.

(٢) أحوال النفس ص ٩٤.

ويستدل الشيخ الرئيس على ذلك وأن الأمر مجرد انصراف عن فعل إلى آخر بأن المرض لو كان يفسد الصور المعقولة ويؤثر فيها ويبطل وجودها لكان الشفاء من المرض يحوج الإنسان إلى اكتساب المعقولات كلها من جديد، وليس الأمر كذلك فإنه قد تعود النفس عاقلة لجميع صورها، فقد كانت - إذن - كلها معها إلا أنها شغلت عنه.

ويدلى ابن سينا بمزيد بيان فيؤكد أن التمانع فى أفعال النفس ليس فقط لاختلاف جهتى فعلها من حيث البدن ومن حيث ذاتها بل إن كثرة أفعال الجهة الواحدة قد توجب هذا التمانع بعينه، فالخوف يغفل عن الوجع، والشهوة تصد عن الغضب، والغضب يصرف عن الخوف.. والسبب فى كل ذلك واحد وهو انصراف النفس بالكلية إلى أمر واحد.

٣ - برهان الرجل المعلق :

يقوم هذا الدليل على أن الإنسان هو النفس بالحقيقة وأن الجسد ما هو إلاثوب اكتسته النفس لمدة معينة، ولابد لها من خلع الثوب أو تغييره.. إلا أننا - لطول رؤيتنا له - ظنناه لازما لها وجزءا منها.

وأدع ابن سينا يشرح لنا هذا الدليل فيقول[1]: يتوهم الواحد منا كأنه خلق دفعة، وخلق كاملا، لكنه حجب بصره عن مشاهدة الخارجات (ماحوله)، وخلق يهوى فى هواء أو خلاء هويا لايصدمه فيه قوام الهواء صدما يحوجه إلى أن يحس، وفرق بين أعضائه فلم تتلاق ولم تتماس، ثم يتأمل أنه يثبت مع ذلك طرفا من أعضائه ولا باطنا من أحشائه، ولا قلبا ولا دماغا، ولا شيئا من الأشياء من الخارج.. بل كان يثبت ذاته ولا يثبت لها طولا وعرضا ولا عمقا، ولوأنه أمكنه فى تلك الحال أن يتخيل يدا أو عضوا آخر لم يتخيله جزءا من ذاته ولا شرطا للذات التى أثبت وجودها خاصية لها على أنها هو بعينه غير جسمه وأعضائه التى لم تثبت.

---

(١) الشفاء جـ١ ص ٢٨٢.

وقد اختصر ابن سينا هذا الدليل فى كتابه «الإشارات والتنبهات» فقال[١]: ولو توهمت أن ذاتك قد خلقت أول خلقها صحيحة العقل والهيئة وفرض أنها على جملة من الوضع والهيئة لاتبصر أجزاءها ولاتتلامس أعضاؤها بل هى منفرجة ومعلقة لحظة ما فى هواء طلق - وجدتها قد غفلت عن كل شىء إلا عن ثبوت أنيتها.

وهذا الدليل قريب من دليل «ديكارت» السابق والذى يقول فيه: أنا أشك فأنا أفكر فأنا موجود.

فالوجود الذى أثبته ديكارت هو وجود النفس وليس الجسم الذى جعله من العالم الخارجى وأثبته فى مرحلة تالية.

٤ - تضاد أحوال النفس وأحوال الجسد:

وقد استدل بذلك الإمام الرازى فى تفسيره[٢] وذكر أحوالا منها:

١ - أن المواظبة على الأفكار الدقيقة لها أثر فى النفس وأثر فى البدن، أما أثرها فى النفس فهو تأثيرها فى إخراج النفس من القوة إلى الفعل فى التعقلات والإدراكات، وكلما كانت الأفكار أكثر كان حصول هذه الأحوال أكمل وذلك غاية كمالها ونهاية شرفها.

وأما أثرها فى البدن فهو أنها توجب استيلاء اليبس على البدن والذبول عليه وهذه الحال لو استمرت لأفضت إلى الجنون أو الموت.

ومن هنا فإن هذه الأفكار توجب حياة النفس وشرفها وتوجب نقصان البدن وموته، فلو كانت النفس هى البدن لصار الشىء الواحد سببا لكماله ونقصانه معًا ولحياته وموته معا وإنه محال.

٢ - إن أصحاب الرياضات والمجاهدات كلما أمعنوا فى قهر القوى

(١) الإشارات جـ٢ ص ٣٢٠.

(٢) التفسير الكبير جـ٢١ ص ٥١.

البدنية وتجويع الجسد قويت قواهم الروحية وأشرقت نفوسهم بالمعارف الإلهية، وكلما أمعن الإنسان فى الأكل والشرب وقضاء الشهوة الجسدية صار كالبهيمة وبقى محروما من آثار العقل والمعرفة.. ولولا أن النفس غير الجسد لما كان الأمر كذلك.

٥ - البرهان الشرعى:

وهو خاص بمن ينكر وجود الروح من المسلمين:

(أ) تظاهرت الآيات والأحاديث على أن النفس غير البدن فالنفس من روح الله والبدن من طين.. هكذا كان آدم عليه السلام كما قال تعالى ﴿إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين﴾[١].

وهكذا تنشأ ذريته من بعده فقد قص الحق تبارك وتعالى مراحل خلق الإنسان فى قوله ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما﴾ وهذه مراحل خلق البدن، ولما أراد سبحانه التذكير بحلول الروح قال: ﴿ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾[٢].

فهذا يدل على أن الروح جنس مغاير لما سبق ذكره من أحوال البدن.

(ب) إن القرآن والحديث يخبرنا أن جماعة من اليهود قد مسخهم الله تعالى قردة وخنازير. فهل اليهودى الذى مسخ بقى إنسانا أم لا؟.

إن قلنا إنه لم يبق إنسانا حال المسخ كان هذا إماتة لليهودى وخلقا للقرد وليس من باب المسخ فى شىء، وإن قلنا إن ذلك اليهودى بقى إنسانا حال المسخ يحس بألمه ويشعر بذنبه ويقاسى عقابه وعذابه كان الإنسان باقيا بنفسه غير باق ببدنه وهيكله المادى.

---

(١) سورة ص آية ٧١: ٧٢.

(٢) سورة المؤمنون آية ١٤.

(جـ) كان الرسول ﷺ يرى جبريل الأمين عليه السلام فى صورة دحية الكلبى، وتمثل جبريل لمريم عليها السلام بشرًا سويا، ودخل الملائكة على إبراهيم الخليل عليه السلام ضيفا مكرمين.. فهاهنا صورة الإنسان وبدن البشر مع أن حقيقة الإنسان غير حاصلة، فدل ذلك على أن الإنسان ليس خاصا بهذه البنية المادية المشاهدة بل وراءها روح هى الإنسان بالحقيقة.

تصورات الوجود الروحي:

إلى هنا نكون قد أثبتنا للروح وجودا مغايرا للجسد المادى المحسوس، لكن ما حقيقة هذا الوجود؟.

هل الروح جوهر مجرد عن المادة أم جسم نورانى لطيف؟.

ذهب جمهور الفلاسفة الإسلاميين كالفارابى وابن سينا وتبعهم الغزالى وجمع من الصوفية - إلى أن النفس مجردة عن المادة ليست جسما ولاعرضا لجسم.ولاطول لها ولاعرض ، وهى تتعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف كتعلق العاشق بالمعشوق وليست متعلقة به تعلق الحلول والتداخل كتعلق الصورة بالمادة والعرض بالجوهر، ولاتعلق مجاورة كتعلق الإنسان بثوبه.. والنفس بهذا المعني تفيض من واهب الصور وهو آخر مراتب العقول، وهى وسط بين العالم العقلى والعالم المادى، فهى تتجه نحو العالم العلوى فتتلقى منه الفيض ثم تولى وجهها شطر البدن فتفيض عليه وتدبره.

يقول ابن سينا:[1] والنفس الناطقة إذا أقبلت على العلوم سمى فعلها عقلًا وسميت بحسبه عقلًا نظريًّا.، وإذا أقبلت على قهر القوى الذميمة الداعية إلى الجريرة بإفراطها، والغباوة بتفريطها، والتهور بثوراتها، والجبن بفتورها، والفجور بهيجانها، والكسل بخمودها فتستخرجها إلى الحكمة والتجلد والعفة، وبالجملة إلى العدالة، سمى فعلها سياسة، وسميت بحسبه عقلًا عمليًّا.

---

(١) أحوال النفس ص ١٧٠.

وقد تستعد القوة الناطقة فى بعض الناس من اليقظة والاتصال بالعقل الكلى بما ينزهها عن الفزع عند التعرف إلى القياس والروية، بل يكفيها مؤونتها الإلهام والوحى، وتسمى خاصيتها هذه تقديسًا، وتسمى بحسبه روحًا مقدسًا، ولن يحظى بهذه الرتبة إلا الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام».

ويذهب ابن عربى إلى أن الروح سر إلهى لطيف ينسب إلى الله تعالى على الإجمال من غير تكيف، وكان ظهوره عن وجود لا عن عدم، فما حدث إلا إضافة التولية إليه بتدبير هذا البدن، وأعطى هذا المركب آلات روحانية حسية لإدراك علوم لا يعرفها إلا بواسطة هذه الآلات.

ويقول:[1] «اعلم أن الروح الإنسانى لما خلقه الله خلقه كاملًا عاقلًا بالغًا عارفًا مؤمنًا بتوحيد الله، مقرًّا بربوبيته، وهو الفطرة التى فطر الله الناس عليها فلا يقبل الزيادة ولا النقصان كما يقبله الجسم لعدم التركيب».

وفى الفلسفة الحديثة نجد ديكارت يهتم بتمييز الروح عن الجسد، وتحديد خصائص كل منهما، فاعتبر الروح جوهرًا غير مادى أخص صفاته الفكر، واعتبر الجسم جوهرًا ماديًّا أخص صفاته الامتداد والتحيز، فهما متضادان يؤلفان موجودًا واحدًا يتبادلان التأثير والتأثر، فالنفس تؤثر فى الجسم عن طريق الغدة الصنوبرية الموجودة فى المخ التى تتلقى وحى الإرادة لتنقله إلى المخ والأعصاب، ويؤثر الجسم فى النفس عن طريق الحواس التى تنقل إليها صور العالم الخارجى.

والنفس ليست قاطنة فى محل خاص بالجسم كربان السفينة بل هى متحدة معه اتحادًا جوهريًّا يؤلف كلًّا واحدًا، ويذهب بعض الباحثين إلى أن مذهب ديكارت ثنائى لا اتحاد فيه وأن النفس حالة فى الجسد مجرد حلول

---

(١) ابن عربى مفسرًا - د. حامد الزفرى جـ ٢ ص ٣٣٤ (مخطوط) بكلية أصول الدين.

«إذ يستحيل تصور اتحاد حقيقى بين جوهرين تامين، وتصور تفاعل حقيقى بين جوهرين متضادين»[١].

ويقدم يوسف كرم تفسيرًا آخر لعلاقة الروح والجسد فيقول:[٢] الإنسان مركب من جوهر روحى وآخر جسمى يؤلفان فيه موجودًا واحدًا، لا كلا مجموعيًّا يتجاور فيه الجوهران ويتفاعلان من خارج على ما اعتقد أفلاطون وديكارت، ليس هذا الاتحاد عرضيًّا كالذى بين جوهرين تامين، ولكنه جوهرى حاصل من جوهرين ناقصين، كل منهما مفتقر للآخر متمم له، من النفس يقبل الجسم تركيبه ووحدته وحياته وسائر ما يجعله جسمًا إنسانيًّا، وحالما تفارقه بالموت ينحل إلى عناصره، وتبقى النفس متقومة بذاتها، ولكنها فى هذه الحياة جوهر ناقص لا يستطيع دون الجسم أن تزاول أفعال قواها التى تقتضى مشاركة الأعضاء مباشرة مثل الإحساس والتخيل والتذكر، فالنفس الإنسانية ناطقة بالذات، نامية وحاسة بقوى فيها تحدث الأفعال النامية والحاسة فى الجسم ومعه.. لذا كانت القوى النامية والحاسة قوى المركب من النفس والجسم لا قوى النفس وحدها، بينما العقل والإرادة قوتان مفارقتان بذاتهما للمادة فهما للنفس وحدها..

ثم ينتهى إلى القول بأن الإنسان ليس جوهرًا روحيًّا محضًا يستخدم الجسم من الخارج ولكنه صنعة خاصة قوامها نفس معدة بالطبع للاتحاد بجسم اتحادًا جوهريًّا لمزاولة وظائفها بحيث يكون الجسم تكملة ضرورية لها لا قيدًا ولا عائقًا..

* * *

ويرى جمهور المتكلمين نفى المجردات على الإطلاق عقولاً كانت أو نفوسًا، وفى تصورهم للروح نرى أقوالاً منها:

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٨٤.

(٢) الطبيعة وما بعد الطبيعة ص ١٢٣.

(أ) قال بعض المالكية إن الروح جسم ذو صورة كصورة الجسد فى الشكل والهيئة، ويوضح ذلك عبد الرحيم بن خالد فيدعى أن الروح ذو جسم ويدين ورجلين وعينين ورأس، تسل من الجسد سلاً، ولما اعترض عليه بأنه إذا قطع عضو من الإنسان لزم قطع نظيره من الروح، أجيب بأن لطافتها تقتضى سرعة انجذابها من ذلك العضو المقطوع قبل انفصاله[1].

(ب) ومنهم من يقول إن الروح عبارة عن أجزاء نورانية سماوية لطيفة الجوهر، على طبيعة ضوء الشمس وهى لا تقبل التحلل والتبدل ولا التفرق والتمزق، فإذا تكون البدن وتم استعداده وهو المراد بقوله تعالى: ﴿فإذا سويته﴾ نفذت تلك الأجسام الشريفة السماوية الإلهية فى داخل الجسم نفاذ النار فى الفحم ونفاذ دهن السمسم فى السمسم، ونفاذ ماء الورد فى الورد، وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿ونفخت فيه من روحى﴾ ثم إن البدن مادام سليماً قابلاً لنفاذ تلك الأجسام الشريفة بقى حيًّا فإذا تولدت فى البدن أخلاط غليظة منعت تلك الأخلاط من سريان تلك الأجسام الشريفة فتنفصل عن البدن وحينئذ يعرض الموت..

ورجح ذلك الرأى الإمام الرازى فى تفسيره وقال عقب حكايته:[2] «فهذا مذهب قوى شريف يجب التأمل فيه فإنه شديد المطابقة لما ورد فى الكتب الإلهية من أحوال الحياة والموت.

* * *

هذا وقد احتدم الجدل بين القائلين بتجرد الروح والقائلين بجسميتها حتى إن الإمام ابن القيم استدل على مادية الروح بأكثر من مائة دليل وحكى للمخالفين أكثر من عشرين دليلاً ثم ردها»[3].

---

(١) تحفة المريد على جوهرة التوحيد للعلامة الباجورى.

(٢) مفاتيح الغيب جـ ٢١ ص ٤٥.

(٣) الروح ص ٢٦٧: ٣٢٣.

ونسوق هنا ثلاثة نماذج لأدلة القائلين بماديتها لنرى كيف يستدلون[١]:

النموذج الأول:

قال تعالى: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى﴾[٢].

قال ابن القيم: فى الآية ثلاثة أدلة:

١ - الإخبار بتوفيها.
٢ - إمساكها.
٣ - إرسالها.

النموذج الثانى:

حديث أبى موسى: «تخرج نفس المؤمن أطيب من ريح المسك فتنطلق بها الملائكة الذين يتوفونه فتلقاهم ملائكة من دون السماء فيقولون هذا فلان بن فلان كان يعمل كيت وكيت بمحاسن عمله فيقولون مرحبًا بكم وبه فيقبضونها منهم فيصعد به من الباب الذى كان يصعد منه عمله فيشرق فى السموات وهو كبرهان الشمس حتى ينتهى بها إلى العرش، وأما الكافر فإذا قبض انطلق بروحه فيقولون من هذا؟ فيقولون فلان بن فلان كان يعمل كيت وكيت لمساوئ أعماله، فيقولون لا مرحبًا ردوه، فيرد إلى أسفل الأرضين إلى الثرى..»

قال ابن القيم: فيه عشرة أدلة هى:

١ - خروج نفسه.
٢ - طيب ريحها.

---

(١) أما أدلة القائلين بتجردها فهى نفس الأدلة التى سقناها سابقًا فى مرحلة الإثبات للدلالة على وجود الروح فهى تثبت الوجود وزيادة.

(٢) سورة الزمر آية ٤٢.

٣ - انطلاق الملائكة بها.
٤ - تحية الملائكة لها.
٥ - قبضهم لها.
٦ - صعودهم بها
٧ - إشراق السموات لضوئها.
٨ - انتهاؤها إلى العرش.
٩ - قول الملائكة من هذا؟ وهذا سؤال عن عين وذات قائمة بنفسها.
١٠ - قوله ردوه إلى أسفل الأرضين.

النموذج الثالث:

إن روح النائم يحصل لها فى المنام آثار فيصبح يراها على البدن عيانًا وهى من تأثير الروح فى الروح كما ذكر القيروانى فى كتاب «البستان عن روض السلف» قال:

كان لى جار يشتم أبا بكر وعمر رضى الله عنهما فلما كان ذات يوم أكثر شتمهما فتناولته وتناولنى فانصرفت إلى منزلى وأنا مغموم حزين فنمت وتركت العشاء فرأيت رسول الله ﷺ فى المنام فقلت يا رسول الله فلان يسب أصحابك قال من أصحابى؟ قلت: أبو بكر وعمر فقال خذ هذه المدية فاذبحه بها فأخذتها فاضجعته وذبحته ورأيت كأن يدى أصابها من دمه فألقيت المدية وأهويت بيدى إلى الأرض لأمسحها فانتبهت وأنا أسمع الصراخ من نحو داره فقلت ما هذا الصراخ؟ قالوا فلان مات فجأة، فلما أصبحنا جئت فنظرت إليه فإذا خط موضع الذبح.!!

* * *

نتيجة ورأى:

والحق الذى لا مرية فيه أن للنفس وجودا مغايرا للبدن المادى المحسوس

وأن الدلائل الشرعية والبراهين العقلية قد تظاهرت على إثباته وأجمعت على وجوده..

وما وراء ذلك من اختلاف فى ماهية هذا الوجود هل هو مادى أم مجرد؟ فشىء غير الاعتقاد الواجب، ولم يقم دليل قطعى على تجرد الروح وإن كان القول بالنفوس المجردة - كما حكى السعد عن الرازى[١] - لا يرفع أصلاً من أصول الدين بل ربما يؤيده ويبين الطريق إلى إثبات المعاد بحيث لا تقدح فيه شبه المنكرين».

وإذا كان الغزالى قد شاق المتكلمين فى رأيهم بمادية الروح فإنه قد أتى على براهين الفلاسفة فى تجرد الروح من القواعد فى كتابه «تهافت الفلاسفة» الذى ساقه أساسًا لتحطيم المذهب العقلى فى ادعائه معرفة حقائق الغيب بمنطق العقل وحده ويقول:[٢] «ولسنا نعترض على دعواهم (معرفة كون النفس جوهرًا قائمًا بنفسه ببراهين العقل) اعتراض من يبعد ذلك من قدرة الله تعالى أو يرى أن الشرع جاء بنقيضه بل ربما تبين فى تفصيل الحشر والنشر أن الشرع مصدق له ولكننا ننكر دعواهم دلالة مجرد العقل عليه والاستغناء عن الشرع فيه».

ومن هنا فإن اعتراض الغزالى على الفلاسفة فى كتاب «تهافت الفلاسفة» ينبغى أن يؤخذ بشىء من الحذر حيث إنه لم يلتزم فيه إثبات المذهب الحق فهو يقول:[٣] «إن ذلك الكتاب «تهافت الفلاسفة» مصنف لإبطال مذهبهم لا لإثبات المذهب الحق».

بل إن الغزالى استعمل نفس أدلة ابن سينا ونص عبارته فى كتابه معارج القدس، ليستدل على تجرد الروح وقال عقب حكاية الأدلة «فثبت بهذا وجود

---

(١) شرح المقاصد تحقيق د. سليمان خميس ص ٨٨.

(٢) تهافت الفلاسفة - تحقيق د. سليمان دنيا ص ٢٥٦.

(٣) الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٠٩ ط صبيح.

النفس وثبت على الجملة أنه جوهر وثبت أنه منزه عن المادة والصور الجسمانية».

ومن جهة أخرى فلم يثبت دليل قطعى على مادية الروح وما استدل به ابن القيم ظواهر نصوص، ولا بعد فى أن يكون الإخبار بتوفى الروح وإمساكها وإرسالها مجازا عن قطع التعلق والتدبير للجسد، خصوصًا مع ملاحظة الاستعمال القرآنى لمثل هذه الألفاظ فى جانب الحق تبارك وتعالى كقوله: ﴿وجاء ربك﴾[1] وقوله ﴿يد الله فوق أيديهم﴾[2] وقوله: ﴿واصنع الفلك بأعيننا﴾[3].

وبعض أدلة ابن القيم أحاديث فيها مقال وعلى فرض صحتها فالتأويل سائغ، والبعض الآخر آراء لا يعول عليها ولا يؤخذ منها حكم شرعى كالرؤى والأحلام، وما استدل به من أدلة العقل فيمكن مناقشتها، وبعد:

فإن الذى يعنينا هو أن توجد الروح وتناط بها التكاليف فى الدنيا وتنال جزاء فى الآخرة هى والجسد معًا كما كانا فى الدنيا، كائنة ما كانت حقيقتها ﴿وفوق كل ذى علم عليم﴾.

---

(١) سورة الفجر آية ٢٢.
(٢) سورة الفتح آية ١٠.
(٣) سورة هود آية ٣٧.

الفصل الثانى

نشأة الروح

الإنسان روح وجسد..

وينشأ الجسد داخل قرار مكين هو رحم الأم، ويمر بأطوار مختلفة من نطفة إلى علقة إلى مضغة مخلقة وغير مخلقة، ويظل إلى أجل مسمى، ثم يخرج طفلاً فشابًا مكتمل القوة ثم شيخًا كبيرًا فهرمًا إلى أرذل العمر ﴿ومن نعمره ننكسه فى الخلق أفلا يعقلون﴾[1].

فكيف نشأت الروح؟

ومتى؟

للإجابة عن ذلك نستطلع رأى كل من الفلاسفة والمتكلمين ثم نعقب عليه بما يظهر كلمة الحق ويدحض شبه الغالين والمبطلين.

رأى الفلاسفة:

يرى الفلاسفة أن النفس جوهر مجرد هبط إلى البدن من العالم العلوى وهى أزلية بناء على رأيهم فى العالم وأنه نشأ عن الله بطريق الفيض بواسطة العقول العشرة، تلك النظرية التى تقوم على أن الواحد من جميع الجهات لا يصدر عنه إلا واحد، ومن هنا لم يصدر عن الله تعالى إلا موجود واحد هو العقل الأول وهو جوهر محض ليس جسمًا ولا هيولى ولا صورة ولا عرضًا ولا نفسًا..

---

(١) سورة يس آية ٦٨.

وهذا العقل الأول متكثر بالاعتبار فيصدر عنه باعتبار وجوده عقل ثان وهو عقل الفلك المحيط، وباعتبار إمكانه جسم وهو جسم الفلك المحيط، وباعتبار وجوبه بغيره وهو الله تعالى - نفس وهى نفس الفلك المحيط..

وهكذا يصدر عن العقل الثانى عقل ثالث ونفس وفلك إلى أن تنتهى العقول إلى عشرة..

والعقل العاشر هو عقل فلك القمر وهو العقل الفعال الذى تنشأ عنه النفس الإنسانية وهو الذى يدبر العالم المادى..

والعقول العشرة قديمة عندهم لأنها تنشأ عن علم الله تعالى بما يجب عنه فلا يمكن أن تتأخر عن وجوده سبحانه لأنها معلولة له، والمعلول لا يتأخر فى الوجود عن علته.. لكن قدم العقول قدم زمانى لا ذاتى لأن الله وحده هو الذى ينفرد بالقدم الذاتى كما ينفرد بالوجود الذاتى..

وهناك قصيدة لابن سينا يقول فيها:[1]

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقـاء ذات تـعـزز وتمنـع
محجوبة عن كل مقلة ناظـر وهى التى سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره إليـك وربما كرهت فراقك وهى ذات تفجع
وأظنها نسيت عهودًا بـالحمى ومنـازلًا بفـراقهـا لم تقنـع
تبكى إذا ذكرت ديارًا بالحمى ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع
فلأى شىء أهبطت من شامخ سام إلى قعر الحضيض الأوضع
إن كان أهبطت الإله لحكمة طويت عن الفذ اللبيب الأروع
فهبوطها لا شك ضربة لازب لتكون سامعـة لما لم تسمـع

(١) ذكر هذه الأبيات د. محمود قاسم فى كتابه «فى النفس والعقل» كما ذكرها د. محمد غلاب فى كتابه «المعرفة» مع اختلاف فى بعض الألفاظ وفى تركيب الأبيات.

توضيح :

١ - تذكرنا هذه القصيدة برأى أفلاطون الذى ذهب إلى أن النفس قديمة كانت فى عالم المثل - وهو العالم الحقيقى - وأنها هبطت منه كارهة وأن من طبيعتها أن تحاول الصعود والفرار من العالم المحسوس.

٢ - النفس جوهر بعيد عن الحس لا تدركه الأبصار مع أنها شديدة الظهور لدى العقل بآثارها عن طريق الوظائف والقوى التى تنشأ عنها لاتصالها بالبدن.

٣ - على الرغم من أنها حلت بالبدن كارهة إلا أن طول ملازمتها له قد يجعلها تألفه وتأنس به وترضى بشهواته وتنسى حقائق الغيب وكمالها العلوى..

٤ - يتساءل ابن سينا عن سبب هبوطها من عليائها، ويخالف أفلاطون الذى ذهب إلى أن النفس وهى فى عالم المثل عجزت عن اللحاق بنفوس الكواكب فى إحدى محاولاتها فهبطت من علوها وحلت أبدان البشر عقابًا لها وتكفيرًا.. ويذهب ابن سينا إلى أن الهبوط كان لحكمة إلهية فإن اتصالها بالبدن يكسبها معرفة بالعالم الحسى وتمارس فيه كمالاتها النظرية والعملية.

تحقيق :

هذه القصيدة العينية التى تثبت للنفس وجودًا قبل البدن تتنافى مع رأى آخر لابن سينا يؤكد فيه أن النفس حادثة مع حدوث البدن وليس لها وجود سابق.. الأمر الذى دعا بعض الباحثين مثل الدكتور أحمد الأهوانى[١] إلى الشك فى نسبة هذه القصيدة للشيخ الرئيس، كما شك فيها الأستاذ أحمد أمين لعلو نظمها بالقياس إلى قصائده الأخرى..

وخلاصة دليل ابن سينا على حدوث النفس أنها إذا كانت موجودة قبل

(١) أحوال النفس لابن سينا - ص ٣٤.

البدن فإما أن تكون واحدة أو كثيرة بعدد الأبدان التى تحل فيها..

وليست النفس واحدة لأنه إذا حصل بدنان، حصل فى البدنين نفسان فتنقسم بذلك النفس الواحدة وهذا ظاهر البطلان..

أو تكون النفس الواحدة فى بدنين فى آن واحد وهذا لا يحتاج إلى تكلف فى إبطاله..

وليست النفس متكثرة بحسب عدد الأبدان، وذلك لأن النفس «ماهية» فقط والماهية أو الصورة واحدة لا تنقسم..

فالنفس تحدث كلما يحدث البدن الصالح لاستعمالها إياه ويكون الحادث مملكتها وآلتها..

أما بعد مفارقة البدن فإن الأنفس تكون قد وجدت كل واحدة منها ذاتا منفردة باختلاف موادها التى كانت، وباختلاف أزمنة حدوثها، واختلاف هيئاتها التى لها بحسب أبدانها المختلفة.

* * *

وأيًا ما كان فإن النفس سواء كانت قديمة أو حادثة فإنها صادرة عندهم عن العقل العاشر أو واهب الصور أو روح القدس وهو عقل فلك القمر المشرف على عالم الكون والفساد..

وقد أنكر أبو البركات البغدادى أن تكون علة النفوس واحدة هى العقل الفعال لما ثبت من اختلاف الطبائع والأحوال، ويذهب إلى أن النفوس الإنسانية ترجع بالعلية إلى الأشخاص السماوية من الكواكب وروحانياتها بل إن كل حادثات الكون والفساد ترجع بالسببية إلى هذه النفوس المتعلقة بالأجرام السماوية «المستديمة[١] للحركة الدورية التى دوامها تغير، وتغيرها

---

(١) «المعتبر فى الحكمة» نقلًا عن كتاب «قراءات فى الفلسفة» د. على سامى النشار، د. محمد أبو ريان ص ٧٩١.

دوام يتصل بها الزمنى بالأزلى فى السببية والمحدث بالقديم فى المعلولية».

ويرجع أبو البركات كثرة النفوس الإنسانية واختلافها إلى كثرة النفوس السماوية واختلاف أوضاعها وأنوارها وحركاتها إلا أن الكثرة ليست متساوية فى الطرفين ومن هنا يذهب أبو البركات إلى أن لكل مجموعة من النفوس الإنسانية علة واحدة ولهذا تتشابه هذه المجموعة البشرية وتتحاب وتتقارب فى حين تتباين عن مجموعة أخرى وقد تتباغض معها بحسب أحوال عللها..

هذا وقد احتج القائلون بقدم النفس بأدلة عقلية ونقلية وذكر صاحب المواقف ثلاثة أدلة عقلية لهم وحكى ابن القيم استنادهم لبعض آيات القرآن الكريم.. ونحن نورد نموذجين لذلك أحدهما عقلى، والآخر نقلى:

النموذج العقلى:

لو كانت النفس حادثة لما كانت أبدية، والتالى باطل باتفاق فبطل ما أدى إليه وهو حدوث النفس وثبت نقيضه وهو قدمها ودليل الملازمة أن كل حادث داثر وفاسد.

قال صاحب المواقف:[1] والجواب المنع ومعنى القضية المذكورة أن كل حادث فهو فى حد ذاته قابل للعدم وليس يلزم منه طريانه عليه لجواز أن يمتنع عدمه لغيره أبدًا».

النموذج النقلى:

قال الله تعالى فى حق آدم عليه السلام، ﴿ونفخت فيه من روحى﴾ وروح الله قديم..

وقد رد ابن القيم على ذلك بأن المضاف إلى الله سبحانه نوعان:

١ - مالا يقوم بنفسه كالعلم والقدرة والكلام والسمع والبصر فهذه

(١) شرح المواقف جـ ٧ ص ٢٥٢.

إضافة صفة إلى الموصوف بها فعلمه وكلامه وقدرته صفات له غير مخلوقة..

٢ - إضافة أعيان منفصلة عنه كالبيت والناقة والعبد والروح فهذه إضافة مخلوق إلى خالقه ومصنوع إلى صانعه، لكنها إضافة تقتضى تخصيصًا وتشريفًا يتميز به المضاف عن غيره كبيت الله وإن كانت البيوت كلها ملكًا له، وكذلك ناقة الله والنوق كلها ملكه، وخلقه ولكن هذه إضافة إلى إلهيته تقتضى محبته لها وتكريمه وتشريفه بخلاف الإضافة العامة إلى ربوبيته حيث تقتضى خلقه وإيجاده، فالإضافة العامة، تقتضى الإيجاد، والخاصة تقتضى الاختيار: ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار﴾..

وإضافة الروح إليه من هذه الإضافة الخاصة لا من العامة ولا من إضافة الصفات فتأمل هذا الموضع فإنه يخلصك من ضلالات كثيرة..»[١]

تعليق ونقد:

أولا: إن نسبة التأثر فى أحداث العالم إلى عقول الأفلاك قال به بعض فلاسفة اليونان وكانت الوثنية اليونانية تعبر عنها بالآلهة فحورها فلاسفة الإسلام وأطلقوا عليها اسم العقول بدل الآلهة.. كعهدنا بهم فى التلفيق والتوفيق..

وإذا تساءلنا لم اقتصرت سلسلة العقول على عشرة فقط وكانت الأفلاك تسعة؟

فالجواب أن أرباب هذه النظرية أقاموها على مذهب بطليموس فى الفلك، والذى يدعى فيه أن الأرض مركز العالم وأن الكواكب السيارة تسعة..

وقد ثبت الآن علميًا خطأ هذه النظرية وتبين أن الشمس هى مركز العالم وأن الأرض والكواكب الأخرى هى التى تدور حولها، كما اكتشفت حديثًا كواكب جديدة..

---

(١) الروح ص ٢٣.

وإن فلك القمر الذى نسبوا إلى عقله تدبير هذا الكون - قد وطئه الإنسان بقدمه وهبطت أول مركبة فضائية تقل رجلين أمريكيين على سطحه فى رحلة أبو للو «١١» يوم الأحد ٢٠ من يوليو سنة ١٩٦٩ الموافق ٦ من جمادى الآخرة سنة ١٣٨٩ هـ.

ألا ليت الفلاسفة عقلوا عقولهم ولم يطلقوا العنان لخيالهم..

ثانيًا: ذكر الغزالى أن ما قيل فى العقول العشرة وتأثيرها فى العالم الأرضى وكيفية نشأتها - تحكمات باطلة وأنه على الحقيقة ظلمات بعضها فوق بعض ولو حكاه الإنسان عن رؤيا رآها لاستدل بها على سوء مزاجه.

وقد رفض ابن رشد أقوال الفارابى وابن سينا فى تلك النظرية، وهدم الأساس القائل: إن الواحد من جميع الجهات لا يصدر عنه إلا واحد، وبين أنهم قاسوا الغائب على الشاهد وليس بينهما إلا الاشتراك فى الاسم وذلك أن الفاعل الغائب فاعل مطلق والفاعل الشاهد فاعل مقيد، والفاعل المطلق ليس يصدر عنه إلا فعل مطلق، والفعل المطلق ليس يختص بمفعول دون مفعول.

وابن رشد - وهو الذى نصب نفسه محاميًا عن الفلسفة ضد هجمات الغزالى - قد اتهم الفارابى وابن سينا بالتقول على الحكماء والتخرص على الفلاسفة وتحريف مذهبهم وقال[1]:

فما أكذب هذه القضية «إن الواحد لا يصنع إلا واحدًا» على ما فهم ابن سينا وأبو نصر.

ثم قال: «والعجب كل العجب كيف خفى هذا على أبى نصر وابن سينا.. لأنهما أول من قال بهذه الخرافات فقلدهما الناس ونسبوا هذا القول إلى الفلاسفة».

---

(١) تهافت التهافت ص ٣٩٥ ، ٣٩٧.

وقد تهكم بهم أيضًا أبو البركات البغدادى ووصفهم بالتقليد الأعمى لأرسطو فهى آراء لا تخضع للبرهان والحجاج العقلى أخذوها مأخذ الوحى.

وقد أظهر تناقضهم مع المبدأ الذى اصطنعوه لأنفسهم وهو أن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد، إذ كيف يجوزون صدور الثلاثة عن العقل فما عللوا به هذا الصدور كان أحرى بهم أن يجعلوه عند المبدأ الأول «ويجعلوا[1] فى الترتيب أولا و ثانيًا ومقدما وتاليًا كما جعلوا فى الثانى وهو بالأول أولى وكانوا يقولون عوض قولهم إن الثانى بما يعقل الأول يصدر عنه عقل وبما يعقل ذاته يصدر عنه جرم فلك ونفس - أن المبدأ الأول بما يعقل ذاته عقلا أوليًا بوحدانيته وبذاته (كما قالوا) يصدر عنه موجود هو أول مخلوقاته فإذا أوجده عرفه وعقله موجودا حاصلاً فى الوجود معه كان بما يعقله يصدر عنه آخر غيره وكذلك يعقل فيوجد، ويوجد فيعقل، وتكون مخلوقاته عنده دواعى مخلوقاته فيوجد ثان لأجل أول وثالث لأجل ثان..».

ثالثًا: بعد أن عرفنا أن مبنى النظرية فاسد وأنها ليست محل إجماع الفلاسفة الإسلاميين - يمكننا أن ندرك سوء مسلك بعض المفكرين فى محاولة تبرير هذه النظرية إسلاميًا.. فقد حملوا العقول العشرة على الملائكة وزعموا أن العقل العاشر هو جبريل الأمين، وأن قوله تعالى: ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾[2] يشير إلى الأفلاك التسعة فالعرش هو الفلك المحيط وتحته ثمانية أفلاك...

وعلى هذا فنحن نخالف ما ذهب إليه الدكتور محمد البهى فى قوله[3]:

إن من يرتضى القول بالوساطة من المسلمين يمكن أن يتخذ من مثل قوله تعالى: ﴿وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء

(١) المعتبر فى الحكمة نقلا عن كتاب قراءات فى الفلسفة د. النشار د.أبو ريان ص ٧٤٣.
(٢) سورة الحاقة آية ١٧.
(٣) الجانب الإلهى من التفكير الإسلامى ج٢ص ٧٧ ، ١٤١.

ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين﴾[١] وجها لتأييد الإسلام لها وليس فحسب دليلا على عدم تنافرها مع مبدأ من مبادئه، إذ ربما يحمل الآية على نوع الوساطة المقول بها وهى وساطة العقل بين الله والعالم، فيفسر «الكتاب المبين» فيها بالعقل، ووجه الشبه أن كلا منهما مكان للعلم والمعرفة ورتبة «الكتاب المبين» فى الوجود قبل العالم من غير شك، وهو غير الله وغير العالم وإذن هو بينهما.

ويقول أيضًا: أن فكرة «العقول» كفكرة «الملائكة» لا تؤدى إلى اعتقاد شركة فى التأثير فى العالم ولا تقوم على أساس الشرك فى نسبة التأثير فيه إلى مصادر متعددة، إذ مرد الأمر كله - مع الإيمان بها - إلى الله وحده، وعقيدة الوثنية اعتقاد ما يؤدى إلى الشرك وعبادة غير الله من قوى كونية مع الله أو دونه.

وأقول: إن هذا ضرب من الرمزية فى التفسير، لا يستند إلى قواعد ولا يرجع إلى أصول..

وإن حقائق الغيب لا تخترع وإنما تعلم من الوحى المعصوم..

وإن الآراء التى يحاولون إضفاء الصفة الإسلامية عليها لا تخضع لبرهان وليس هناك ضرورة عقلية للقول بها اللهم إلا التقليد الأعمى..

ومتى كانت فكرة العقول بنظمها الخيالى وأساطيرها اليونانية الوثنية تتسامى إلى الوحى الإلهى فى مثل قوله تعالى عن جبريل الأمين ﴿إنه لقول رسول كريم، ذى قوة عند ذى العرش مكين، مطاع ثم أمين﴾[٢].

رابعًا: بقى أن نقف هنيهة مع أبى البركات فيما ذهب إليه من أن النفوس السماوية هى علة النفوس الإنسانية فنقول:

إن الادعاء بأن للسماء نفسًا تحركها - تحكم لا دليل عليه وما ساقوه من

---

(١) سورة يونس آية ٦١.

(٢) سورة التكوير آية ١٩: ٢١.

أدلة لا ينهض لنفى الاحتمالات الأخرى وإن أسرار الكون - كما يقول الغزالى[1] - لا يطلع عليها بأمثال هذه الخيالات وإنما يطلع الله عليها أنبياءه وأولياءه على سبيل الإلهام لا على سبيل الاستدلال.

ولنعلم أن قدرة الله تعالى تعم سائر الممكنات، والعجب من هؤلاء جميعًا كيف يحاولون عزل القدرة الإلهية عن مباشرة تأثيرها فى الكون والكائنات ﴿ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾[2].

رأى المتكلمين:

اتفق المليون - كما حكى صاحب المواقف[3] - على أن النفس الناطقة حادثة إذ لا قديم عندهم إلا الله.. سواء كانت مجردة أو جسمًا نورانيًا لطيفًا.

لكنهم اختلفوا هل تحدث مع حدوث البدن أم قبله؟ ولكل وجهة.

وجهة القائلين بالقبلية:

يرى هذا الفريق أن الأرواح موجودة قبل البدن وأنها كانت على اتصال بالملأ الأعلى حيث لم يحجبها حينئذ مادة ثقيلة أو شهوة دنيئة.. وهذه هى الفطرة الأولى التى فطر الله الناس عليها ويؤيدون رأيهم بما يأتى:

١ - قال الله تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إناكنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾[4].

فهذا هو الميثاق الأول والعهد العام الذى أخذه الله على الناس وهم فى

---

(١) تهافت الفلاسفة ص ٢٢٤.
(٢) سورة الأعراف آية ٥٤.
(٣) المواقف جـ ٧ ص ٢٥٠.
(٤) سورة الأعراف آية ١٧٢.

عالم الذر فأقروا له سبحانه بالوحدانية.. ومعلوم أن هذا الإقرار لم يكن للأبدان حيث لم تخلق بعد فدل ذلك على أنه من الأرواح فتكون مخلوقة قبل الأجساد.

ويصرح ابن عربى بأن الروح الإنسانى لما خلقه الله خلقه كاملًا عاقلًا بالغًا، عارفًا، مؤمنًا بتوحيد الله، مقرًا بربوبيته، بل يذهب إلى أن من خاصية الروح التجسد فهى لم تفارق بدنًا ما منذ عالم الذر إلى أن يدخل الناس الجنة أو النار، كل ما هنالك أنها تستبدله وهاهو ذا يقول[1]:

اعلم أن الروح الإنسانى أوجده الله حين أوجده مدبرًا لصورة طبيعية حسية سواء كان فى الدنيا أو البرزخ أو فى الدار الآخرة أو حيث كان، فأول صورة لبستها - الصورة التى أخذ عليها فيها الميثاق بالإقرار بربوبية الحق عليه، ثم إنه حشر من تلك الصورة إلى هذه الصورة الجسمية الدنيوية وحبس فيها فى رابع شهر من تكوين صورة جسده فى بطن أمه إلى ساعة موته فإذا مات حشر إلى صورة أخرى من حين موته إلى وقت سؤاله فإذا جاء وقت سؤاله حشر من تلك الصورة إلى جسده الموصوف بالموت يحيا به، ويؤخذ باسماع الناس وأبصارهم عن حياته بذلك الروح إلا من خصه الله تعالى بالكشف على ذلك من نبى أو ولى من الثقلين، وأما سائر الحيوان فإنهم يشاهدون حياته وما فيه عينًا وسماعًا ثم يحشر بعد السؤال إلى صورة أخرى فى البرزخ يمسك فيها بل تلك الصورة هى عين البرزخ، والنوم والموت فى ذلك على السواء، إلى نفخة البعث، فيبعث من تلك الصورة ويحشر إلى الصورة التى كان فارقها فى الدنيا إن كان بقى على سؤال، فإن لم يكن من أهل ذلك الصنف حشر فى الصورة التى يدخل بها الجنة أو النار، والمسئول يوم القيامة إذا فرغ من سؤاله حشر فى الصورة التى يدخل بها الجنة أو النار.

* * *

(١) الفتوحات جـ ١ ص ٨٢٩ نقلًا عن رسالة محيى الدين بن عربى مفسرًا د. الزفرى.

٢ - قال الله تعالى: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾[1].

وقد اعتبر هؤلاء أن «ثم» هنا للترتيب والمهلة وأن الخطاب لبنى آدم جميعًا، والمعنى أن الخلق للجميع كان أولاً ثم بعده كان التصوير للجميع أيضًا ثم تلى ذلك ظهور آدم وإدخاله الجنة ثم هبوطه إلى الأرض لابتداء الحياة البشرية فى ثوبها الجديد.

والذى خلق ثم صور قبل آدم لم يكن الجسد المادى المحسوس قطعًا فثبت الخلق والتصوير لأرواح بنى آدم جميعًا..

وهذا استدلال ظاهرى ساقه ابن حزم[2].

٣ - قال الرسول ﷺ.

«إن الله تعالى أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان يوم عرفة وأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه كالذر ثم كلمهم قبلا قبلا قال ألست بربكم قالوا بلى».

٤ - وفى حديث آخر:

«إن الله تعالى أخذ ذرية آدم من ظهره ثم أشهدهم على أنفسهم ثم نثرهم فى كفيه أو كفه فقال هؤلاء فى الجنة وهؤلاء فى النار فأما أهل الجنة فميسرون لعمل أهل الجنة وأهل النار ميسرون لعمل أهل النار».

٥ - وفى حديث ثالث:

«إن الله خلق أرواح العباد قبل العباد بألفى عام فما تعارف منها إئتلف وما تناكر منها اختلف».

فهذه الأحاديث - فى رأيهم - صريحة فى تقدم خلق الأرواح على الأجساد.

---

(١) سورة الأعراف آية ١١.

(٢) الفصل جـ ٤ ص ٥٦.

وجهة القائلين بتأخر حدوث الروح:

يذهب هذا الفريق إلى القول بتأخر حدوث الروح عن البدن ولهم أدلة منها:

١ - قال الله تعالى فى خلق آدم عليه السلام: ﴿إنى خالق بشرًا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين﴾[١].

دلت الآية على أن نفخ الروح أى خلقها متأخر عن تسوية البدن.

٢ - قال سبحانه فى نشأة بنى آدم:

﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظامًا فكسونا العظام لحمًا ثم أنشأناه خلقًا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾[٢].

والمراد بهذا الإنشاء حدوث النفس بعد مرور البدن فى أطواره المختلفة.

٣ - قال الرسول ﷺ.

إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يومًا نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بكتب أربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد» رواه البخارى ومسلم.

فدل ذلك على أن خلق البدن متقدم على إرسال الملك لنفخ الروح أى خلقها حينئذ.

٤ - قال الله تعالى: ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا

---

(١) سورة ص آية ٧١: ٧٢

(٢) سورة المؤمنون آية ١٢: ١٤.

وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾[١] فلو كان للروح وجود قبل البدن لتذكرته وشعرت به فى الطفولة المبكرة لقرب عهدها به ولكن الآية صريحة فى نفى مطلق المعرفة فى هذا الوقت، والنكرة فى سياق النفى تعم..

(١) سورة النحل آية ٧٨.

تعقيب ومناقشة

أولا: محاولة إثبات «عالم الذر» بمفهوم قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك﴾ محاولة لا تساعدها صياغة النص ولاتساندها دلالة التعبير لوجوه منها:

(أ) قوله تعالى: ﴿من ظهورهم﴾ بدل من قوله « بنى آدم» فيكون المعنى وإذ أخذ ربك من ظهور بنى آدم، وهذا بخلاف ادعائهم بأن الأخذ من ظهر آدم.

وما قاله البعض من أن الله أخرج ذرية آدم بعضهم من ظهور بعض على نحو ما يتوالدون فالأبناء من الآباء فى الترتيب، وكلهم بنو آدم فالمخرج من ظهورهم مخرج من ظهره - كلام مردود فالجميع فى هذا الوقت كالذر - فى زعمهم - لاظهر له وليس هناك مخلوق بشرى سوى آدم.

(ب) أخبر سبحانه أن حكمة الإشهاد ألا يقولوا: ﴿إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم﴾ وهذا غير متحقق فى آدم عليه السلام لأنه ما كان مشركا.. سواء قلنا إن الأخذ من ظهر آدم وحده أو من ظهره وظهر بنيه فجميع الشاهدين يقولون: ﴿إنما أشرك آباؤنا من قبل﴾ فلابد من الوصول إلى آدم قطعا للتسلسل وما كان من المشركين.

(جـ) تؤكد الآية أن هذا الإشهاد هو إقامة للحجة عليهم، وليس فى الميثاق الأول - كما يسمونه - حجة على البشر وقت أخذه لأنهم غير مكلفين ولا فى الدنيا لأنهم لايذكرون منه شيئا، ولم تقم على البشرية حجة إلا بالرسالات الإلهية بنص قوله تعالى: ﴿رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾.

وليس لقائل أن يدعى أن إخبار القرآن بهذا العهد يجعله حجة عليهم وإن

لم يذكروه لأن المشركين ينكرون جميع ما جاء به الرسول ﷺ فكيف يكون حجة مستقلة عليهم ؟!.

(د) للإمام الشعرانى رسالة سماها «القواعد الكشفية فى الصفات الإلهية» وقد حكى عنها الإمام الجمل فى تفسيره وقال[1]:

إن الإمام الشعرانى ذكر فيها عن هذه الآية اثنى عشر سؤالاً مع الإجابة عليها وهذه الأسئلة هى:

١ - أين موضع أخذ الله تعالى هذا العهد؟.
٢ - كيف استخرجهم من ظهره؟.
٣ - كيف أجابوه تعالى بـ «بلى»؟.
٤ - فإذا قال الجميع بلى فلم قبل تعالى قوما ورد آخرين؟.
٥ - إذا سبق لنا عهد وميثاق فلأى شىء لا نذكره اليوم؟.
٦ - هل كانت تلك الذرات مصورة بصورة الإنسان أم لا؟.
٧ - متى تعلقت الأرواح بالذرات التى هى الذرية هل قبل خروجها من ظهره أم بعد خروجها منه؟.

٨ - ما الحكمة فى أخذ هذا الميثاق منهم؟
٩ - هل أعادهم إلى ظهر آدم أحياء أم استرد أرواحهم ثم أعادهم إليه أمواتا؟.
١٠ - أين رجعت الأرواح بعد رد الذرات إلى ظهره؟.
١١ - قال تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم﴾ والناس يقولون إن الذرية أخذت من ظهر آدم؟.
١٢ - فى أى مكان أودع كتاب العهد والميثاق؟.

هذه هى الأسئلة أما الإجابات فكلها احتمالات عقلية وتجويزات ليس لها

---

(١) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين جـ٢ ص٢٠٨.

يقين العقل ولاصحيح النقل ما يوجب اعتقادها والإيمان بها بل إن بعضها مجرد وهم وخيال.

إليك بعض الأمثلة لتلك الإجابة.

عن السؤال الأول:

إن الله تعالى أخذ ذلك عليهم ببطن نعمان وهو واد بجنب عرفة قاله ابن عباس وغيره، وقال بعضهم أخذه بسرنديب من أرض الهند وهو الموضع الذى هبط آدم فيه من الجنة، وقال الكلبى كان أخذ العهد بين مكة والطائف وقال الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه كان أخذ العهد فى الجنة. قال القرافى وكل هذه الأمور محتملة ولايضرنا الجهل بالمكان بعد صحة الاعتقاد بأخذ العهد.

وعن السؤال الثانى:

والجواب ورد فى الصحيح أنه تعالى مسح ظهر آدم وأخرج ذريته منه كلهم كهيئة الذر ثم اختلف الناس هل شق ظهره واستخرجهم منه أو استخرجهم من بعض ثقوب رأسه، وكلا الوجهين بعيد والأقرب كما قيل أنه استخرجهم من مسام شعر ظهره إذ تحت كل شعرة ثقبة دقيقة يقال لها سم مثل سم الخياط فى النفوذ لا فى السعة، فتخرج الذرة الضعيفة منها كما يخرج الصئبان[١] من العرق السائل، وهذا غير بعيد فى العقل فيجب اعتقاد إخراجها من ظهر آدم كما شاء الله ولايجوز اعتقاد أنه تعالى مسح ظهر آدم على وجه المماسة إذ لا تصال بين الحادث والقديم..

وعن السؤال الرابع:

والجواب كما قاله الحكيم الترمذى أن الله تعالى تجلى للكفار بالهيبة فقالوا

---

(١) الصئبان جمع صُؤابة وهى بيضة القملة.

بلى مخافة منه فلم يك ينفعهم إيمانهم وقال الشيخ أبو طاهر القزوينى الصحيح عندى أن قول أصحاب بلى كان على وفق السؤال وذلك أن الله تعالى سألهم عن تربيتهم ولم يسألهم عن إلههم ولم يكونوا يومئذ فى زمان التكليف وإنما كانوا فى حال التخليق والتربية وهى الفطرة فقال: ألست بربكم؟ قالوا: بلى لأن تربيتهم إذ ذاك كانت مشهودة لهم فصدقوا كلهم فى ذلك ثم لما انتهوا إلى زمان التكليف وظهر ماقضى الله تعالى فى سابق علمه لكل أحد من السعادة والشقاوة كان منهم من وافق اعتقاده فى قبول الإلهية إقراره الأول ومنهم من خالف ولو أنه تعالى كان قال لهم: ألست بواحد لقالوا كلهم نعم ولم يشرك به أحد (قال الشعرانى) فتأمل ولايخفى ما فيه من فوات صورة الاحتجاج بالآية اهـ.

ثانيًا: جاء فى تفسير ابن كثير[١]: «قال قائلون من السلف والخلف إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد».

وقال فى حاشية الجمل[٢]: وللخلف طريقة أخرى محصلها أنه لا إخراج ولاقول ولاشهادة بالفعل وإنما هذا كله على سبيل المجاز التمثيلى»، ومن المفسرين من اقتصر على هذا الرأى كالزمخشرى... وعلى هذا يمكن أن نفهم الآية على الوجه التالى: التعبير العربى يجيز استعمال الماضى للمستقبل تأكيدا للوقوع كما فى قوله تعالى: ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾.

والبيان القرآنى استعمل كلمة «الميثاق» فى قسميه المدنى والمكى والملاحظ أن التذكير بالميثاق فى القسم المدنى كان خاصاً بأهل الكتاب مثل قوله: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا﴾[٣] ﴿وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولاتكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم﴾[٤].

(١) تفسير القرآن العظيم المجلد الثالث ص٥٠٦ ط الشعب.

(٢) جـ٢ ص٢٠٧.

(٣) سورة البقرة آية ٩٣.

(٤) سورة آل عمران آية ١٨٧.

﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به﴾[١].

فهذا الميثاق الخاص بأهل الكتاب معناه أن الله بعث إليهم رسلا كثيرين وآتاهم من الكتاب والحكمة والملك ما يوجب عليهم أن يصدقوا بجميع رسله ولايفرقوا بينهم وأن يكونوا أول المؤمنين بمحمد ﷺ لأنه يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوراة والانجيل.

وفى القسم المكى نجد هذا الميثاق العام فى سوررة الأعراف: ﴿وإذ أخذ ربك.. الآية﴾ وهو ميثاق الفطرة والعقل على البشرية عامة إذ استخرج من بنى آدم ذريتهم بطنا بعد بطن وأودع فيهم فطرة قبول الحق وأرشدهم إلى آيات الأنفس والآفاق وألزمهم الحجة بالشرع وبعثة الرسل وقال لهم قول إرادة وتكوين لاقول وحى وتلقين ﴿ألست بربكم﴾ فقالوا بلسان الحال ولغة الاستعداد «بلى» وصدق الله إذ يقول: ﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾[٢].

فالشهادة تارة تكون بالقول مثل ﴿قالوا شهدنا على أنفسنا﴾[٣].

وتارة تكون حالا أى بمنزلة الشاهدين على أنفسهم مثل: ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾[٤] أى هم بمنزلة الشاهدين على أنفسهم بالكفر وإن لم يقولوا نحن كفار.

ومنه قوله تعالى أيضا: ﴿وإنه على ذلك لشهيد﴾[٥] ومما يؤكد أن العهد فى آية الأعراف هو الفطرة النقية الطاهرة قبل أن تدنسها البيئة بمفاسدها وباطل عقائدها ماروى الشيخان من قول الرسول ﷺ «كل مولود يولد على

(١) سورة المائدة آية ١٣.
(٢) سورة فصلت آية ٥٣.
(٣) سورة الأنعام آية ١٣٠.
(٤) سورة التوبة آية ١٧.
(٥) سورة العاديات آية ٧.

الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه.. » وكذا مارواه مسلم فى الحديث القدسى «إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم».

ثالثًا: إن الأحاديث التى ذكروها فى إثبات «عالم الذر» لاتخلو من مقال وبعض رواتها ضعيف أو متروك أو مجهول.

فمثلا الحديث القائل «إن الله تعالى أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان يوم عرفة.. الخ رواه أحمد وهو موقوف على ابن عباس.

والحديث الثانى: «إن الله تعالى أخذ ذرية آدم من ظهره ثم أشهدهم إلخ» رواه البزار والطبرانى بسند فيه بقية بن الواليد وهو ضعيف.

والحديث الثالث: «إن الله خلق أرواح العباد قبل العباد بألفى عام.. إلخ» قال فيه ابن القيم[١]:

إسناده غير صحيح لأن فيه عقبة بن السكن، وقال الدار قطنى إنه متروك، وفيه أرطأة بن المنذر، وقال ابن عدى بعض أحاديثه غلط.

والملاحظ كثرة الأحاديث والشواهد فى هذا الباب لكنها - فى جملتها - واردة فى القدر[٢] ودالة على أن الله تعالى استخرج ذرية آدم من صلبه وميز بين أهل الجنة وأهل النار، فهى أقرب ما يكون إلى تصوير العلم الإلهى الأزلى ولاتدل - كما يقول ابن القيم[٣] - على أنها خلقت خلقًا مستقرا ثم استمرت موجودة حية عالمة ناطقة، كلها فى موضع واحد ثم ترسل منه إلى الأبدان جملة بعد جملة كما قاله أبو محمد بن حزم فهل تحمل الآثار مالا طاقة لها به؟.

والإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم فما هو - كما يقول ابن كثير[٤] - إلا فى

(١) الروح ص ٢٥٦.

(٢) راجع جمع الجوامع العدد ١٢جـ١ ص ١٤٦٢ ط مجمع البحوث.

(٣) الروح ص ٢٤٠.

(٤) تفسير القرآن العظيم المجلد الثالث ص ٥٠٦.

حديث كلثوم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وفى حديث ابن عمرو وهما موقوفان لا مرفرعان.

رابعًا: بعد هذا يحق لنا أن نطالب أحد العلماء أن يخفف من حكمه حيث يقول[1].

«وقد يتطاول البعض ويقحم أنف العقل فى هذه المسلمات الإلهية ؟! ويريد أن يخضعها للموازين التى لاتؤمن إلا بالمشاهد المحسوس، ويتساءل عن الكيفية التى تم بها جمع الآدميين كلهم من ظهور آبائهم فى وقت لم تخلق فيه الآباء، ويتساءل كذلك عن كيفية الإقرار وهل هو بلسان الحال أم بلسان المقال، وكيفية التفريق بعد الجمع.. كل هذه التساؤلات تترى وتتداعى فى بعض نفسيات المارقين والمنكرين والجاحدين ممن يحكمون العقل ولايقرون إلا له بالسلطان».

وأقول: ليس ههنا مسلمات إلهية معلومة من الدين بالضرورة، ولم يكن العلماء سلفًا وخلفاً ممن فهموا النصوص فهما آخر مارقين أو منكرين أو جاحدين وليس هناك تطاول وإنما مطالبة بالدليل !!..

خامساً: إن أدلة القائلين بتأخر حدوث النفس عن البدن هى دون اليقين الصريح لجواز أن يكون المراد مثلا بقوله تعالى: ﴿ثم أنشأناه خلقا آخر﴾ هو تعلق الروح بالبدن لا حدوثها.. الأمر الذى جعل بعض العلماء يتوقف فيقول العضد الإيجى[2] مقارنًا بين هذه الآية ﴿ثم أنشأناه خلقًا آخر﴾ والحديث القائل «إن الله خلق الأرواح قبل الأجساد بألفى عام» أما الحديث فهو خبر واحد. فتعارضه الآية وهى مقطوعة المتن مظنونة الدلالة والحديث بالعكس فلكل رجحان من وجه فيتقاومان.

ولكنى أقول: إن الحديث ليس له وجه رجحان فاسناده غير صحيح

(١) الحياة البرزخية فى القرآن للدكتور محمود بن الشريف ص ٨٥.
(٢) المواقف جـ ٣ ص ٢٥١.

كما سبق بيانه، وأدلة تأخر الحدوث وإن كانت دون اليقين الصريح فهى أقرب إلى روح الشرع الذى نهانا عن اتباع الظن والرجم بالغيب.. وأبعد عن مظان الشبهات التى يثيرها القول بالقبلية لأن وجود النفوس قبل البدن يفتح الطريق أمام الأدعياء الذين يقولون بالمغايرة بين النفوس الجزئية والعقل الإنسانى العام فهو وحده الأزلى الأبدى أما النفوس الجزئية فتفنى بفناء الجسد، وليس هناك بقاء شخصى بناء على أن النفوس كلها متحدة دون تمييز وليس فيها آباء وأبناء وأحفاء حيث قد وجدت كلها فى وقت واحد.

الفصل الثالث

الروح مع البدن

تمارس الروح نشاطها بواسطة الجسد الذى يحيا بها، وتتنوع قواها وتتعدد وظائفها تبعا لحاجة الإنسان من تفكير وإحساس وسلوك ويأتى فى قمة هذه الوظائف القوة العاقلة من الإنسان التى هى مناط تكليفه وكرامته، والتى يدرك بها الكليات والمعانى المجردة بعيدًا عن واقع الحس وملابسات المادة.

هذا وسنركز هنا على ظاهرتين أو جانبين من علاقة الروح بالجسد هما:

(أ) الإلهام أو المعرفة الإشراقية لنرى هل للجسد آثار مانعة من صفاء الروح وشفافيتها أم لا؟.

(ب) الرؤى والأحلام وحقيقة هذا الجانب الذى يقضى فيه الإنسان شطر عمره تقريبًا... فإلى تفصيل ذلك وبالله التوفيق....

المبحث الأول

المعرفة الإشراقية:

التفكير أرقى العمليات العقلية لدى الإنسان، وهو يسعى لحل مشكلة ما أو تفسير موقف غامض.. ويبدأ من الإدراك الحس ويعلو إلى مرتبة التجريد والتعميم..

والإدراك الحسى يرتبط بالحواس الظاهرة والباطنة، والمعرفة الناشئة عن ذلك قاصرة على ظواهر الأشياء دون بواطنها، وصورها دون حقائقها، التى لا تدرك إلا بالعقل الذى يصحح أغاليط الحس...

ويكاد يجمع الفلاسفة الإسلاميون على أن المعرفة الإنسانية لا يحصلها العقل الإنسانى باجتهاده وحده ولكن فى ضوء العقل الفعال يستطيع العقل الإنسانى إدراك الصور الكلية مجردة عن علائقها المادية. فهم يجمعون بين نظر العقل أو التأمل الفلسفى وإشراق نور العقل الفعال طريقا للمعرفة ووصولا إلى السعادة ويصورون ذلك بأن الإنسان إذا تطهر من الأدناس وسيطر على رغباته وشهواته وسلك طريق النظر والتأمل - زال عن نفسه الصدأ، وصفت واستنارت بنور العقل الفعال، وحينئذ يستطيع أن يتمثل العقول المجردة ويتصل بالمبادئ العالية وتفيض عليه الأعاجيب مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر..

وقد تحدث عن هذه المعرفة الفارابى وابن سينا وابن ماجة وابن طفيل وكلهم يبدأون الطريق اعتماد على العقل والرياضة الروحية حتى يصلوا إلى مرحلة الاستغراق والمشاهدة.

وعلى الطرف الآخر نجد المتصوفة يبدأون الطريق بقطع العلائق ومحو الصفات الذميمة وتقديم المجاهدة انتظارا للفيض.. بلا ضرورة تعليم أو تعلم..

ولدراسة هذه الاتجاهات نتخذ عدة نماذج:

فمن الفلاسفة ندرس:

(أ) ابن سينا ممثلا لفلاسفة المشرق.

(ب) ابن طفيل ممثلا لفلاسفة المغرب.

ومن المتصوفة ندرس:.

(أ) الغزالى الذى انتهت الفلسفة على يديه فى المشرق وعلا قدم التصوف..

(ب) الدكتور عبد الحليم محمود الذى يتصدر مدرسة التصوف فى العصر الحديث..

رأى ابن سينا:

للشيخ الرئيس رسائل وأبحاث عن المتصوفة[١] والمعرفة الإشراقية وأهمها الأنماط الثلاثة الأخيرة من كتابه «الإشارات والتنبهات» فهو آخر ما صنفه فى الحكمة الإلهية.

النمط الأول[٢]: فى السعادة:

بدأ بمناقشة أوهام القائلين بأن اللذة الحسية هى كل شيء وأوضح أن هذه اللذات هى المنكوحات والمطعومات وأمور تجرى مجراها وأثبت أن هناك لذات باطنية أقوى من تلك اللذات الحسية، فلاعب الشطرنج قد يعرض له منكوح ومطعوم فيرفضه إيثارا للذة الغلبة الوهمية، كذلك فإن كبير النفس يستصغر الجوع والعطش عند المحافظة على ماء الوجه، وليس ذلك من العاقل فقط بل فى العجم من الحيوانات فإن من كلاب الصيد ما يقتنص على الجوع ثم يمسكه على صاحبه، والمرضعة من الحيوانات تؤثر ما ولدته على نفسها.. فإذا كانت اللذات الباطنية أعظم من الظاهرة الحسية فما قولك فى العقلية؟!.

ثم يخلص إلى أن اللذة الحقيقية للإنسان هى فى الكمال الذى يخص الجوهر العقلى المميز للإنسان وهو «أن يتمثل فيه جلية الحق قدر ما يمكنه أن ينال منه ببهائه الذى يخصه ثم يتمثل الوجود كله على ما هو عليه مجردا عن الشوب مبتدأ فيه بعد الحق الأول بالجواهر العقلية العالية ثم الروحانية السماوية والأجرام السماوية ثم ما بعد ذلك تمثلا لا يمايز الذات.. فهذا هو الكمال الذى يصير به الجوهر العقلى بالفعل وما سلف فهذا الكمال الحيوانى.

---

(١) نجد ذلك فى رسالته «حى بن يقظان» ورسائله فى العشق وماهية الصلاة ومعنى الزيارة وغيرها، ومتفرقات فى كل من الشفاء والنجاة.

(٢) الإشارات – تحقيق د. سليمان دنيا، والأنماط الثلاثة ص ٧٤٩: ٩٠٣.

النمط الثانى: فى مقامات العارفين:

يحدد ابن سينا مفاهيم ألفاظ ثلاثة هى:

الزاهد هو المعرض عن متاع الدنيا وطيباتها وهو فى زهده تاجر يشترى بمتاع الدنيا متاع الآخرة..

العابد هو المواظب على فعل العبادات من القيام والصيام ونحوهما وهو فى عبادته أجير يعمل فى الدنيا لأجرة يأخذها فى الآخرة وإنما يعبد الله ويطيعه ليخوله فى الآخرة شبعه من مطعم شهى ومشرب هنى ومنكح بهى.. ولا مطمح لبصره إلا إلى لذة البطن والجنس..

العارف هو المنصرف بفكره إلى قدس الجبروت مستديما لشروق نور الحق فى سره وهو يريد الحق الأول لا لشىء غيره ولايؤثر شيئا على عرفانه، وتعبده له فقط لأنه المستحق للعبادة، وزهده سمو بنفسه عن كل ما يشغل عن الحق...

وقد ذكر ابن سينا مراحل هذا الطريق وهى:

(أ) أول الطريق إرادة وهى رغبة قوية فى الاعتصام بالعروة الوثقى والتحرك بسره إلى جناب القدس لينال من روح الاتصال.

(ب) الخطوة التالية هى الرياضة ولها ثلاثة أغراض هى:

١ - التنزة عما سوى الله بالزهد.

٢ - تطويع النفس الأمارة للنفس المطمئنة لتنجذب قوى التخيل والوهم إلى الاشتغال بالأمور القدسية، وذلك بالعبادة المشفوعة بالفكرة والألحان المهذبة والوعظ الرشيد.

٣ - تلطيف السر وهو محل المشاهدة ويعين على ذلك الفكر اللطيف والعشق العفيف الذى تثيره شمائل المعشوق لا سلطان الشهوة.

(جـ) ونتيجة الطريق «أنه إذا بلغت الإرادة والرياضة حدا ما عنت له خلسات من اطلاع نور الحق عليه، لذيذة كأنها بروق تومض إليه ثم تخمد

عنه وهو المسمى عندهم أوقاتا، وكل وقت يكتنفه وجدان، وجد إليه ووجد عليه».

(د) نهاية الطريق هى «إذا عبر الرياضة إلى النيل صار سره مرآة مجلوة محاذيا بها شطر الحق - وردت عليه اللذات العلا وفرح بنفسه لما فيها من أثر الحق، وكان له نظر إلى الحق ونظر إلى نفسه، فكان بعد مترددا ثم إنه ليغيب عن نفسه فيلحظ جناب القدس فقط وإن لحظ نفسه فمن حيث هى لاحظة لا من حيث هى بزينتها.. وهناك يحق الوصول».

والعارف - عند ابن سينا - هش بش، بسام، يبجل الصغير من تواضعه كما يبجل الكبير، ولا يعنيه التجسس، ولا يستهويه الغضب عند مشاهدة المنكر لأنه مستبصر بسر الله فى القدر، وإذا أمر بالمعروف أمر برفق ناصح لابعنف معير.

وهو شجاع وكيف لا وهو بمعزل عن تقية الموت؟!.
وهو جواد وكيف لا وهو بمعزل عن محبة الباطل؟!.
وهو صفاح وكيف لا ونفسه أكبر من أن تجرحها زلة بشر؟!
وهو نساء للأحقاد وكيف لا وذكره مشغول بالحق؟!.

وقد أحس ابن سينا أن الطريق صعب المرتقى وقد ينال منه بعض المنكرين فقال:

«جل جناب الحق عن أن يكون شريعة لكل وارد، أو أن يطلع عليه إلا واحد بعد واحد، ولذلك فإن ما يشتمل عليه هذا الفن ضحكة للمغفل، وعبرة للمحصل، فمن سمعه فاشمأز عنه فليتهم نفسه لعلها لاتناسبه وكل ميسر لما خلق له».

النمط الثالث: فى أسرار الآيات.

للعارفين آيات وخوارق تصدر عنهم فقد يتركون الأكل مدة مديدة ويخبرون بالغيب ويتصرفون فى عالم العناصر.. فما سر ذلك؟!.

وقد حاول ابن سينا أن يفسر ذلك كله تفسيرًا طبيعيًا واعتبره من مذاهب الطبيعة المشهورة على حد تعبيره، فالمريض لايأكل فترات طويلة، وللعارف ماللمريض من اشتغال الطبيعة عن المادة بل يزيد عنه فقدان المرض المضاد للقوة..

والغاضب والمنافس تتضاعف قوته، والعارف أولى بذلك فقد يعتريه من بهاء الحق وجلاله ما يضاعف قوته..

والنفس الإنسانية تنال من الغيب نيلا ما فى حالة المنام فلا ما نع من أن يقع مثل ذلك النيل فى حال اليقظة للعارف الذى قلت شواغله الحسية، وانجذب إلى عالم القدس..

ثم أخذ الشيخ الرئيس يفسر المعجزات والكرامات والسحر والحسد بقوة النفوس الخيرة أو الشريرة، وعلاقة النفس بالبدن التى هى علاقة تدبير وتصرف وليست علاقة انطباق وانطباع، والاتصال بالقوى السماوية والعقل الفعال..

وأخيرًا يقدم نصيحته بالاعتصام بحبل التوقف دون الإسراع فى الإنكار.. ويقول «والصواب لك أن تسرح أمثال ذلك إلى بقعة الإمكان ما لم يزدك عنه قائم البرهان وأعلم أن فى الطبيعة عجائب، وللقوى العالية الفعالة والقوى السافلة المنفعلة اجتماعات على غرائب».

رأى ابن طفيل:

فى رسالة «حى بن يقظان» يقدم لنا ابن طفيل فلسفته، ومنها رأيه فى السعادة[1] ووسيلتها وآفاقها..

والسعادة عنده تعنى مشاهدة ذلك الموجود الواجب الوجود على الدوام

(١) فلسفة ابن طفيل ورسالة «حى بن يقظان» د. عبد الحليم محمود ص ١١٩: ١٣٣.

مشاهدة بالفعل أبدا حتى لا يعرض عنه طرفة عين لكى تواتيه منيته وهو فى حال المشاهدة بالفعل فتتصل لذته دون أن يتخللها ألم..

وكيف يتأتى ذلك؟

يرسم ابن طفيل الطريق فيحدد فى الإنسان اعتبارات ثلاثة:

١ - بدن الإنسان المادى وبه يشبه الحيوان غير الناطق..

٢ - الروح الحيوانى وهو مبدأ سائر القوى البدنية وبه يشبه الأجسام السماوية..

٣ - الروح الربانى الإلهى الذى هو حقيقة الإنسان وبه يشبه واجب الوجود..

وبناء على هذه الاعتبارات يرسم الطريق..

فالبدن عائق عن المشاهدة، ومن الحزم أن يلتزم الإنسان حدودا لأكله لا يتعداها فى كمها وكيفها.. فيأكل من النبات أكثره وجودًا وأقواه توليدًا بشرط ألا يأكل البذر ولا يفسده ولا يلقيه فى موضع لا يصلح للنبات.. فإن عدم هذا فله أن يأخذ من الحيوان أو من بيضه والشرط أن يأخذ من أكثره وجودًا ولا يستأصل نوعا..

والمقدار من كل ذلك هو مايسد خلة الجوع ولا يزيد عليها فإذا أخذ حاجته من الغذاء فلا يتعرض لسواه حتى يلحقه ضعف يمنعه عن بعض الأعمال التى تجب عليه، ثم يلزم الإنسان نفسه ألا يرى ذا حاجة أو عاهة أو مضرة أو ذا عائق من الحيوان والنبات وهو يقدر على إزالتها عنه إلا ويزيلها ويلزم نفسه بدوام الطهارة وإزالة الدنس والرجس عن جسمه، والاغتسال بالماء فى أكثر الأوقات، وتنظيف ما كان من أظفاره وأسنانه، وتطييبها بما أمكنه من طيب النبات وصنوف الدواهن العطرة حتى يتلألأ حسنًا وجمالًا.

ثم يلازم الفكرة فى واجب الوجود ويقطع علائق المحسوسات ويغمض عينيه، ويسد أذنيه، ويروم بمبلغ طاقته ألا يفكر فى شىء سواه، ويجاهد قواه الجسمانية.

وأخيرًا يطرح صفات الأجسام وأعمالها جميعًا من الاعتناء بأمر الحيوان والنبات ويقتصر على السكون فى مغارته مطرقًا معرضًا عن جميع المحسوسات، مجتمع الهم والفكرة فى واجب الوجود وحده.

ولا يزال يطلب الفناء عن نفسه والإخلاص فى مشاهدة الحق حتى يتلاشى الكل ويضمحل ولا يبقى إلا الواحد الحق فيشاهد ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ويؤكد ابن طفيل أن طريق الوصول هو النظر العقلى بمعونة العقل الفعال إلا أن للطريق مراحل تبدأ من الحس إلى العقل،إلى الرياضة الروحية حتى يصل إلى المشاهدة ومقام أولى الصدق.. وهو يمتاز عن مرحلة البحث الفكرى بزيادة الوضوح وإن كان لم ينكشف له فيها أمر على خلاف ما انكشف له فى الحال الأولى، ويضرب لذلك مثلا فيقول[1]: تخيل حال من خلق مكفوف البصر إلا أنه جيد الفطرة قوى الحدس ثابت الحفظ مسدد الخاطر، فنشأ منذ كان فى بلدة من البلدان وما زال يتعرف أشخاص الناس بها، وكثيرًا من أنواع الحيوان والجمادات وسكك المدينة ومسالكها وديارها وأسواقها، بماله من ضروب الإدراكات الأخر حتى صار بحيث يمشى فى تلك المدينة بغير دليل ويعرف كل من يلقاه ويسلم عليه بأول وهلة، وكان يعرف الألوان وَحَدّها بشروح أسمائها وبعض حدود تدل عليها ثم إنه بعد أن حصل فى هذه الرتبة فتح بصره وحدثت له الرؤية البصرية فمشى فى تلك المدينة كلها وطاف بها فلم يجد أمرًا على خلاف ما كان يعتقده ولا أنكر من أمرها شيئًا وصادف الألوان على نحو صدّق المرسوم عنده التى كانت رسمت له بها، غير أنه فى ذلك كله حدث له أمران عظيمان أحدهما تابع للآخر وهما زيادة الوضوح والأنبلاج، واللذة العظيمة. فحال الناظرين الذين لم يصلوا إلى طور الولاية هى حالة الأعمى الأولى.

ويحدد ابن طفيل مجال المقارنة فيقصرها على ما يدركه أهل النظر وأهل

(١) المصدر السابق ص ٦٥.

الولاية مما بعد الطبيعة، وينهى أن نسأل عما يراه أصحاب المشاهدة والأذواق فهو لا يمكن إثباته على الحقيقة «ومن رام التعبير عن تلك الحال فقد رام مستحيلا وهو بمنزلة من يريد أن يذوق الألوان من حيث هى ألوان ويطلب أن يكون السواد مثلا حلوا أو حامضًا».

تعليق وتعقيب:

١ - يلتقى ابن طفيل مع الشيخ الرئيس فى القول بأن النظر العقلى مقدمة لابد منها للوصول إلى الإشراق.

وقد أثارت المعرفة الإشراقية لدى ابن سينا تساؤلا هو: هل كان ابن سينا حقًا متصوفًا؟ أم أنه مجرد باحث فى ظاهرة التصوف؟

يرى الدكتور عبد الحليم محمود[1] أن ابن سينا أقر الطريق ولكنه لم يأخذ فيه وأنه مع طريقته العقلية قد تنسم مقام أولى للصدق وأخذ فى وصفه وإن لم يكن قد تذوقه.

وقد يستشهد على ذلك بحياة اللهو والإقبال على اللذات الحسية التى عاشها ابن سينا.

ويذهب الدكتور محمود قاسم[2] إلى أن الاتجاه الإشراقى عامة وفى فلسفة ابن سينا خاصة حركة باطنية تستهدف تقويض الإسلام السنى، ومحاولة لبعث فلسفات وثنية قديمة.. وما أسلوب ابن سينا إلا أسلوب الكهان، وما وصاياه بعدم إذاعة أسرار الحكمة المشرقية لغير من يوثق به إلا إرهاب فكرى وإلحاد مستتر مغلف بحجاب رقيق من الآراء الإسلامية كما فى رسائل إخوان الصفا وكتب الإسماعيلية من الشيعة.

ويقول الدكتور محمد على أبو ريان[3]: والواقع أن الاستشهاد بحياة ابن

---

(١) التفكير الفلسفى فى الإسلام ص ٣٠٩ وفلسفة ابن طفيل ص ١٨.

(٢) دراسات فى الفلسفة الإسلامية ص ٢١٧: ٢٣٥.

(٣) قراءات فى الفلسفة ص ٥٢٣.

سينا الظاهرة من حيث إنها كانت حياة لهو وإقبال على اللذات الحسية، والاستدلال بها على أنه لم يكن صاحب تجربة ذوقية - أمر غير مقنع تمامًا، لا سيما بعد أن عرفنا أن ابن سينا قد نشأ فى بيئة شيعية إسماعيلية، وأن بعض طوائف الشيعة تقول برفع التكاليف الشرعية عن الإمام وعن الأولياء الواصلين، مما يجعل الحكم متعذرًا على مدى إخلاص ابن سينا فى تجربته الصوفية.

وأقول:

إن التاريخ كما حدثنا عن شهواته فقد أنبأنا أنه فى آخر حياته اغتسل وتاب إلى الله عز وجل وابتهل إلى مبدع الكل وأقبل على قراءة القرآن حتى كان يختم المصحف كل ثلاثة أيام ثم وافته منيته وهو على تلك الحال، فأولى لنا أن ندع سلوكه لمن لا تخفى عليه خافية ونقتصر على ما سجله بيده من فكر وفلسفة للحكم عليه فهو وحده الذى بين أيدينا على وجه اليقين.

وعلى هذا يكون الفخر الرازى قد أصاب الحقيقة حين وصف الأنماط الثلاثة الأخيرة من الإشارات فقال:

«هذا الباب أجل ما فى هذا الكتاب فإنه رتب علوم الصوفية ترتيبًا ماسبقه من قبله ولا لحقه من بعده».

٢ - نظرية المعرفة الإشراقية لدى الفلاسفة ترتبط بفكرتهم عن الكون القائلة بالفيض والعقول العشرة فالنفس الإنسانية تنسكب فيها المعرفة من العقل الفعال (عقل فلك القمر)، وقد سبق أن رفضنا هذه النظرية بمنطق العقل والعلم والدين.

كذلك فإن تفسير ابن سينا للمعجزات والكرامات يتنافى ومنطق الوحى الإلهى لأنه يعدها من مذاهب الطبيعة المشهورة ويعزوها جميعًا لتأثير الطاقة النفسية للعارفين.. فآية النبوة وبرهانها خارجة عن نطاق الإنس والجن

ولا تنال بالإكتساب ﴿والله يختص برحمته من يشاء﴾[١].

ومن جهة أخرى فإن ما أثبته ابن طفيل من الإشارات لمشاهداته العجيبة فى مقام أولى الصدق لا يعدو أن يكون خليطًا من أوهام وأساطير وإسرائيليات.. استمع إليه وهو يصف ما شاهده.

«..إلى أن انتهى إلى عالم الكون والفساد وهو جميعه حشو فلك القمر فرأى له ذاتًا بريئة عن المادة ليست شيئًا من الذوات التى شاهدها قبلها ولا هى سواها، ولهذه الذات سبعون ألف وجه، فى كل وجه سبعون ألف فم، فى كل فم سبعون ألف لسان، يسبح بها ذات الواحد الحق ويقدسها ويمجدها لا يفتر».

٣ - نهاية الطريق تتحقق بأن يغيب العارف عن نفسه فيلحظ جناب القدس فقط - على حد تعبير ابن سينا - أو يطلب الفناء عن نفسه والإخلاص فى مشاهدة الحق - كتعبير ابن طفيل.

والعارف فى هذه الحال قد ينطق بعبارات للتعبير عنها لفرط اللذة والحبور فلا تسعفه اللغة، ومن هنا اختلفت العبارات اختلافًا كثيرًا، وزلت به - كما يقول ابن طفيل[٢] - أقدام قوم عن الصراط المستقيم وظن بآخرين أن أقدامهم زلت وهى لم تزل وإنما كان ذلك لأنه أمر لا نهاية له فى حضرة متسعة الأكتاف محيطة غير محاط بها.

والقول بالفناء أو الغيبة من جنس الطامات - كما يصفه ابن تيمية[٣] فإن حال البقاء أكمل من حياة الفناء، فهو حال الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين ومعلوم أن الرسل أفضل الخلق.

ويرى الشيخ عبد المتعال الصعيدى[٤] «أن التعمق فى المجاهدة إلى الحد

---

(١) سورة البقرة آية ١٠٥.
(٢) فلسفة ابن طفيل ص ٦٧.
(٣) دراسات فى الفلسفة الإسلامية - د. محمود قاسم ص ٢٢٣.
(٤) الوسيط فى تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٩٢.

الذى يؤدى إلى ذلك الحال (حال الغيبة والفناء) والنطق بمثل تلك الأقوال ليس من الدين فى شىء لأن العقل أفضل نعمة أنعم الله بها على الإنسان فلا يصح أن يقتله بتلك المجاهدة المبتدعة، ولا أن يصير به إلى تلك الحالة التى يفقد فيها فلا يكون هناك تكليف عليه، ولا يصح أن يعذر أحد فى تلك الأقوال سواء قالها فى حال الصحو أم فى حال الغيبة، وسواء كان قائلها معروفا بالفضل أم كان غير معروف به لأنه يصل إلى حال الغيبة بالأخذ بأسبابها فيصل إليها قاصدًا متعمدا فيجب أن يؤاخذ بما يحصل منه فيها كما يؤاخذ السكران المتعدى بالسكر، ولأن أهل الفضل لا يصح أن ينطقوا بمثل تلك الأقوال ولا يصح أن يأخذوا بالأسباب التى تؤدى بهم إلى النطق بها».

رأى أبى حامد الغزالى:

إذا اتجهنا نحو الصوفية نستطلع رأيهم فى المعرفة الإشراقية واتخذنا الإمام الغزالى وجهة لنا حيث انتهت على يديه الفلسفة فى المشرق وعلا قدم التصوف، فإننا نجده يقسم الإيمان إلى ثلاثة مراتب [١]:

١ - إيمان العوام وهو إيمان التقليد المحض.

٢ - إيمان المتكلمين وهو إيمان ممزوج بنوع استدلال ودرجته قريبة من درجة إيمان العوام.

٣ - إيمان العارفين وهو المشاهد بنور اليقين ويمتاز عن إيمان السابقين بمزية بينة يستحيل معها الخطأ.

وحقيقة هذا الإيمان هو زوال الحجب بين العبد وربه فتتجلى له صورة الملك والملكوت وتنعكس حقائق العلوم المنقوشة فى اللوح المحفوظ من مرآة اللوح إلى مرآة القلب، وتتلألأ فيه حقائق الأمور الإلهية.

---

(١) إحياء علوم الدين جـ ٣ مع تصرف فى العرض والأداء.

وكل قلب فهو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق لأنه أمر ربانى شريف يمتاز عن سائر الجواهر بهذه الخاصية، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان..﴾[1] وإليه الإشارة أيضًا بما روى عن ابن عمر قال: قيل يا رسول الله أين الله فى الأرض أم فى السماء؟

قال: فى قلوب عباده المؤمنين.. وفى الخبر «قال الله عز وجل - فى الحديث القدسى - لم تسعنى أرضى ولا سمائى ووسعنى قلب عبدى المؤمن..».

والطريق إلى ذلك هو:

١ - قطع الهمة عن الأهل والمال والولد والوطن وعن العلم والولاية والجاه حتى يصير قلبه إلى حالة يستوى فيها وجود كل شىء وعدمه.

٢ - الخلوة فى زاوية مع الاقتصار على الفرائض والرواتب، ويجلس فارغ القلب مجموع الهم ولا يفرق فكره بقراءة قرآن ولا بالتأمل فى تفسير ولا بكتب حديث وغيره..

٣ - الترديد باللسان «الله.. الله» على الدوام مع حضور القلب حتى ينتهى إلى حالة يترك تحريك اللسان ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه ثم يستمر إلى أن يمحى أثره عن اللسان ويصادف قلبه مواظبًا على الذكر، ثم يواظب عليه إلى أن يمحى عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة ويبقى معناها مجردًا فى قلبه حاضرًا فيه، لا يفارقه..

وهو بفعله هذا صار متعرضًا لنفحات رحمة الله فلا يبقى إلا الانتظار، وعند ذلك إذا صدقت إرادته وصفت همته وحسنت مواظبته فلم تجاذبه شهواته ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا - تلمع لوامع الحق فى قلبه..

---

(١) سورة الأحزاب آية ٧٢.

فقد رجع هذا الطريق إلى تطهير من جانبك وتصفية وجلاء ثم استعداد وانتظار..

ويستدل الإمام الغزالى على الكشف والإلهام بأمرين:

أحدهما: عجائب الرؤيا الصادقة فإنه ينكشف فيها الغيب وإذا جاز ذلك فى النوم فلا يستحيل أيضًا فى اليقظة، فلم يفارق النوم اليقظة إلا فى ركود الحواس وعدم اشتغالها بالمحسات فكم من مستيقظ لا يسمع ولا يبصر لاشتغاله بنفسه..

الثانى: إخبار رسول الله ﷺ عن الغيب وأمور المستقبل، كما اشتمل عليه القرآن، وإذا جاز ذلك للنبى ﷺ جاز لغيره إذ النبى عبارة عن شخص مكاشف بالحقائق وشغل بإصلاح الخلق فلا يستحيل أن يكون فى الوجود شخص مكاشف بالحقائق ولا يشتغل بإصلاح الخلق وهذا لا يسمى نبيا بل يسمى وليا..

فمن آمن بالأنبياء وصدق بالرؤيا الصحيحة لزمه لا محالة أن يقر بأن القلب له بابان باب إلى الخارج وهو الحواس وباب إلى الملكوت من داخل القلب وهو باب الإلهام والنفث فى الروع والوحى.. فإذا أقربهما جميعًا لم يمكنه أن يحصر العلوم فى التعلم ومباشرة الأسباب المألوفة بل يجوز أن تكون المجاهدة سبيلًا إليه..

رأى الدكتور عبد الحليم محمود:

للدكتور عبد الحليم محمود مدرسة فى التصوف وله رأى بثه فى كثير من كتبه[1] حول قضية التصوف ومسائله وسنحاول أن نلخص اتجاهه فى البحث العقلى فيما وراء الطبيعة معتمدين على تقديمه لكتاب «المنقذ من الضلال» والدراسات الصوفية التى ضمنها فيه..

---

(١) راجع المنقذ من الضلال، والتفكير الفلسفى، والإسلام والعقل..

يذهب الدكتور عبد الحليم محمود إلى أن البحث العقلى فى الإلهيات نشأ مع الإنسان واختلف منذ البداية فى المنهج والنتيجة..

فمن انكار مطلق للألوهية والروح إلى إيمان مطلق عام يغرق فى الوهم ويبعد فى الضلال حتى يضل إلى التخريف بأوسع معانيه.. وكل مذهب يلتمس دلائله من العقل..

فالحلول عقيدة راسخة استساغتها البيئات المسيحية وتسابقت عقول مفكريها فى البرهنة عليها وأقامتها على دعائم فلسفية خلبت عقول الملايين من البشر..

والتشبيه قد برهن عليه ذووه ببراهين عقلية ونقلية، ووحدة الوجود لها أنصارها المتحمسون لها.

والصراع دائم تتهافت فيه الأدلة مثخنة بالجراح ولكنها تأبى فى غطرسة أن تعترف بالهزيمة..

واستعمال العقل فى عالم الغيب مخاطرة لقطع البحر على لوح من الخشب، وهيهات النجاة، وإذا ساغ البحث العقلى لدى الناشئين فى أقاليم لم يوجد بها نص مقدس فمن غير الطبيعى فى البيئات التى تحظى بالكتاب المقدس الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه – أن ينشأ بجوار النص المعصوم اختراعات ذهنية تتصل بعالم الغيب وذلك للأسباب التالية:

أولاً: إن مقاييس العقل هى القياس والاستقراء.. والاستقراء مبنى كله على الحس لأنه تتبع جزئيات لا تخرج عن المادة أما مساتير عالم الغيب فلا تدخل فى دائرة اختصاصه، ثم إن الاستقراء تام وناقص، والتام – كما يعترف المناطقة – لا ثمرة له والناقص – وهو المهم عندهم – فإنه ظنى، والعلم لا يعرف الكلمة الأخيرة.

وأما القياس فإن كليته استقرائية ميدانها الحس ونتائجها ظنية، ثم إن

المناطقة لا يشترطون فى مقدماته صدقها فى الواقع بل يكتفون بتسليمها من الخصم فما قيمته إذا كان لا يحفل بصدق النتيجة أو كذبها؟!

وأخيرًا فالقياس دورى فاسد، كل من النتيجة والكبرى متوقف على الأخرى فهو أيضًا عقيم لا يأتى بجديد.

ثانيًا: إن التفكير المجرد عن المحسات معدوم، والتصور العقلى لا يقوم إلا على الحس ولا فرق بين ذهن العبقرى الفذ وذهن الجاهل الغبى فى الاعتماد على الواقع المحس فى التصور إلا فى تنسيق المحس على نمط جديد.. فصورة أبى الهول هى وحدها الجديدة أما عناصرها (جسم الأسد ورأس الإنسان) فليس ذلك بجديد.

وكل ما لم يخضع لحواس الإنسان فإنه لا يمكن أن يتخيله إلا إذا شبهه بما وقع تحت حسه، وحينما تصور المسيحيون جبريل صوروه على صورة رجل له جناحان ولذا قال جمهور المسلمين «كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك» كذلك يرتبط التخيل والتصور بالبيئة التى يعيشها الإنسان والنزعة الثقافية التى تسيطر عليه..

والخلاصة:

إقامة ما وراء الطبيعة على العقل شهوة وهوى ذلك أنه منذ العهد اليونانى وهذا البحث فى إخفاق مستمر وتناقض ملازم، وعلى توالى الزمن تنهار آراء وتنشأ آراء لا تلبث أن تنهار.. وهكذا دواليك وعلم الكلام الإسلامى آراء من صنع البشر ضلالة وعبث وانحراف..

السبيل:

هو معارج القدس أو منازل السالكين أو مدارج السالكين، بتعبير آخر هو الإلهام والبصيرة والمشاهدة وهى ليست معرفة حسية ولا عقلية ولا نصية وإنما

تأتى عن تزكية النفسُ وتطهيرها والالتجاء إلى الله والتقرب إليه والاستشراف إلى الملأ الأعلى فتفيض عليها منه نفحات وإلهامات ومعرفة هى اليقين بعينه.

مناقشة ورأى:

أولاً: إن الانقطاع عن الأهل والمال والولد والعلم ليس انقطاعًا عن علائق الدنيا وإنما هو انقطاع عن خير الآخرة..!!

فالزواج سنة المرسلين قال تعالى: ﴿ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية﴾[1] وقال الرسول ﷺ «وفى بضع أحدكم صدقة» قالوا يا رسول الله أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟!قال: «أرأيتم لو وضعها فى حرام كان عليه وزر فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر».

والمال أمر هام وحيوى لأنه قوام بعض الفرائض كالحج والجهاد ولأنه يتيح فرصًا أوسع أمام المؤمن كى يتصدق وينفق ويصبح أهلا لثواب الله، والخير المتعدى أفضل من القاصر وقال ﷺ «اليد العليا خير من اليد السفلى».

والولد الصالح نعمة من الله طلبها الأنبياء وشكروا عليها» قال تعالى: ﴿هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء﴾[2] وقال سبحانه حكاية عن أبى الأنبياء إبراهيم الخليل ﴿الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحق إن ربى لسميع الدعاء﴾[3] والدعاء الضارع لعباد الرحمن هو:

﴿ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما﴾[4].

والعلم به ترفع الدرجات وتنال البركات قال تعالى: ﴿هل يستوى الذين

---

(١) سورة الرعد آية ٣٨.

(٢) سورة آل عمران آية ٣٨.

(٣) سورة إبراهيم آية ٣٩.

(٤) سورةالفرقان آية ٧٤.

يعلمون والذين لا يعلمون﴾[١] وروى البخارى بسنده عن الرسول ﷺ «من يرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين».

وكيف لا يفرق الإنسان فكره بقراءة القرآن ولا بالتأمل فى تفسير..؟!

إن هذا لشىء عجاب..! فقراءة القرآن عبادة وعلم وذكر ولا يعد لها شىء من أنواع الذكر على الإطلاق، وحياة المسلم مرتبطة بالقرآن آناء الليل وأطراف النهار قال تعالى: ﴿إن قرآن الفجر كان مشهودا ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقامًا محمودًا﴾[٢] ثم من يقول إن ترديد لفظ الجلالة فقط على الدوام وارد شرعا. إن الحديث الذى ختم به البخارى صحيحه يقول:

كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم».

والذكر المأثور عقب الصلوات هو: سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر ثلاثا وثلاثين..

ثانيًا: إن النصوص التى حاول أصحاب المشاهدة جذبها لرأيهم نستطيع أن نفهمها على نحو مخالف لما فهموه منها بل إنى أكاد أقطع أنه لم يوجد أحد على عهد النبوة والخلفاء الراشدين فهم فهمهم فى النصوص التى ساقوها مثل قوله تعالى: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال.. الآية﴾[٣] وقوله سبحانه: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾[٤] وقوله جل شأنه: ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾[٥].

فهذه النصوص أبعد ما تكون عن معانى الخلوة والانقطاع وانتظار المشاهدة.. فالأمانة فى الآية الأولى هى التكاليف وتبعات الخلافة فى الأرض..

---

(١) سورة الزمر آية٩.
(٢) سورةالإسراء آية ٧٨:٧٩.
(٣) سورة الأحزاب آية ٧٢.
(٤) سورة العنكبوت آية ٦٩.
(٥) سورة البقرة آية ٢٨٢.

والجهاد فى الآية الثانية هو احتمال أذى المعاندين، والثبات على العقيدة مهما تكن العقبات، ويزيد المعنى جلاء إذا عرفنا أن الآية هى آخر سورة العنكبوت وهى مكية وأن فى مفتتح السورة ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾.

فالابتلاء ناموس الحياة وهو سنة الأنبياء ومن اقتفى أثرهم، فإن حقيقة الإيمان لا تتجلى إلا بممارسة التكاليف وإعلاء كلمة الحق والجهاد فى سبيلها وتحطيم عقبات المعاندين لها وذلك يحتاج إلى صبر ومصابرة وجهد ومجاهدة فسلعة الله غالية ألا إن سلعة الله هى الجنة..

والنص الثالث ورد فى سورة البقرة واقعًا بين آية المداينة وآية الرهان، والمقصود بالتقوى فيه الحث على امتثال ما شرع الله من كيفية كتابة الدين والإشهاد عليه وعدم الإضرار بكاتب أو شهيد، والمراد بالتعليم هنا هو تلك الكيفية التى بينها المولى سبحانه فى الحفاظ على الأموال.. والتعليم بإطلاقه العام فى القرآن يشمل نعمة الأحكام التفصيلية التى شرعها الله لكفالة نظام الحياة..

والحال هنا يشبه ما قاله تعالى عقب ما بين من الإحسان إلى الوالدين والنهى عن التبذير، والتحذير من قتل الأولاد وارتكاب الفاحشة وقتل النفس بغير حق، والأمر برعاية اليتيم وإيفاء الكيل والإرشاد إلى بعض الآداب الاجتماعية – قال عقب ذلك كله: ﴿ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة﴾[1].

وتعليم الكتاب والحكمة هو دعوة إبراهيم عليه السلام لهذه الأمة، قال تعالى: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾[2].

---

(١) سورة الإسراء آية ٣٩. (٢) سورة البقرة آية ١٢٩.

أما الأحاديث التي نسبوها إلى الرسول ﷺ مثل قوله حين سئل: أين الله؟ فقال: في قلوب عباده المؤمنين والحديث القدسي «لم تسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن» فقد ذكر العراقي في تعليقه على الإحياء عن الأول أنه لم يجده بهذا اللفظ وعن الثاني أنه لم يُر له أصلا.

وعلى فرض صحتها فغير مراد منها الخلوة والانتظار.. ونحن لا ننكر أن لله تعالى تأييدا لعبده الصالح وتسديدًا لخاطره، وتوفيقًا لخطاه ورعاية له وكفالة.. فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وإنما ننكر المعنى الذي قصدوه والطريقة التي ابتدعوها..

ثالثًا: إن العقل هو خصيصة النوع الإنساني وهو الذي يصحبه أيا كان موقعه، وهو حلقة الاتصال بين البشر جميعًا، ومناط التكليف الإلهي، وأي محاولة لاقصائه عن مجال قبول العقائد الدينية هي محاولة ردة إلى السوفسطائية الأولى، والاعتراف بمذاهب العندية..

وإذا كانت جميع الآراء تحاول الاستناد إلى دلائل فالعقل الإنساني العام الراشد يلحظ مداخل الباطل فيها..

وليس كل خلاف جاء معتبرًا إلا خلاف له حظ من النظر

ثم إن كل الفرق الإسلامية على تناقض آرائها تستند إلى نص ديني فهل معنى ذلك إلغاء الاستدلال بالنص الديني؟ أم أن وجهة الاستدلال به هي الخاطئة؟!

إن أصحاب البصيرة يريدون أن يأتوا من عالم الغيب بتفسيرات للحقائق الإلهية بواسطة الرؤى والإلهام ويستدلون بقصة سيدنا يوسف ورؤياه وقصة موسى والعبد الصالح.. وهذا الاتجاه خطر على الدين وانصراف عن النص الإلهي وإقامة مصدر لمعرفة الغيب غير إخبار المعصوم وقد قال صاحب العقائد النسفية «والإلهام ليس من أسباب المعرفة بصحة الشيء عند أهل الحق» وقال

أبوالحسن الشاذلى رضى الله عنه كما حكاه الدكتور عبدالحليم محمود نفسه[١] «إن الله تعالى ضمن لنا العصمة فى الكتاب والسنة ولم يضمنها فى جانب الكشف ولا الإلهام ولا المشاهدة إلا بعد عرضها على الكتاب والسنة».

وعلى من يأتى بتفسيرات من عالم الرؤى أن يثبت أولاً أنه يوسف الصديق أو موسى الكليم أو العبد الصالح بشهادة الله له حتى نثق فى رؤياه..

وأنى له ذلك؟ !

ولا أكون مغاليًا إذا قلت إن الرؤيا الصالحة ليست وقفًا على نبى أوولىّ أو عبد لله صالح فهل كان ملك مصر يوم رأى رؤياه نبيا أو وليا أو عبدا صالحا؟ ! !

وماذا يريد أصحاب البصيرة أن يصلوا إليه؟.

إنه على الإجمال يريدون معرفة الغيب[٢].

وعلى التفصيل يريدون المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه وبصفاته الباقيات التامات، وبأفعاله، وبحكمته فى خلق الدنيا والآخرة؛ والمعرفة بمعنى النبوة، والنبى ومعنى الوحى، ومعنى الشيطان، ومعنى لفظ الملائكة، وكيفية معاداة الشياطين للإنسان، وكيفية ظهور الملك للأنبياء، وكيفية وصول الوحى إليهم، والمعرفة بملكوت السموات والأرض..

وأقول: إن عالم الغيب بهذا المعنى لا يبحث فيه العقل ولا يحاول الوصول إليه ولو حاول لانقلب إلى جنون، ومحاولة استراق السمع بما يسمى بصيرة إدعاء متطاول ولزوم لما لا يلزم ولا تكليف لنا به.

وإذا كان الدكتور عبد الحليم محمود يقول[٣].

---

(١) المنقذ من الضلال ص ٢٢١.

(٢) التفكير الفلسفى فى الإسلام د.عبد الحليم محمود ص ٤٧٢.

(٣) المنقذ من الضلال ص ٣٤٣.

«إن الدين لم يتعرض لهذه المشاكل، والحس لا يصل إلى حلها، والعقل بموازينه ومقاييسه وقواعده عاجز كل العجز عن الوصول إلى حلها» فإني أتساءل:

هل بقى بعد ذلك طريق لحل هذه المشاكل يسمى بصيرة أو إلهامًا؟ ! اللهم لا..

المبحث الثاني
الرؤى والأحلام

النفس الإنسانية لها السلطان على القوى البدنية، والإنسان في حال يقظته يستعمل حواسه الظاهرة والباطنة، ويدرك بقواه العقلية، وينتابه من الحركات البدنية ما يجعله يكل.. فإذا فاجأه النوم استسلم له لعله يحظى بقسط من الراحة يعاود بعده السير الطبيعي في الحياة..

وفي خلال النوم الذي يستغرق ثلث عمر الإنسان تقريبًا قد يتراءى لنا عالم مجهول فيه الكثير من خفايا النفس وأسرار الآخرين..

فما هذا العالم؟ وما حقيقته؟ وما يرمي إليه؟.

وإذا استعرضنا أقوال الباحثين نجد ما يأتي:

أولاً: ذهب صالح تلميذ النظام - كما قال ابن حزم[1] - إلى أن الذي يراه الشخص في الرؤيا حق كما هو، وأن من رأى نفسه في الصين وهو بالأندلس فإن الله عز وجل أوجده في ذلك الوقت بالصين..

وهذا القول في غاية الفساد لأن العقل والمشاهدة يكذبه ولأن معرفتنا تؤكد

---

(١) الفصل جـ ٥ ص ١٤ ط صبيح.

أن الحالم قد يرى أخلاطا لا حقيقة معها وقد صح أن أعرابيًا قص على رسول الله ﷺ أنه حلم أن رأسه قطع فهو يجرى وراءه فقال عليه الصلاة والسلام «لا تخبر بتلعب الشيطان بك» رواه مسلم.

ثانيًا: يرى الباحثون المحدثون أن الأحلام علامة نوم غير طبيعي وأن كل ما يراه الإنسان تابع لنوعين من الأسباب:

(أ) الإرهاق البدنى.

(ب) الإجهاد الفكرى.

ويعتمد أطباء الهند والصين منذ قرون على الرؤى فى تشخيص الأمراض وفى رأيهم - كما نقل العلامة محمد فريد وجدى[1] - أن الرؤى تنقسم إلى خمسة أقسام على عدد الأعضاء الرئيسية الخمسة وهى القلب والرئتان والكليتان والطحال والكبد، ويعتقدون أن هذه الأعضاء متى كانت سليمة من الأمراض فلا يرى الإنسان رؤيا من أى نوع كانت ولكنها إذا مرضت أو أصابها عارض رأى الإنسان ما يناسب إصابتها.. وهاك بعض الأمثلة:

إذا رأى الشخص أشباحًا مخيفة فذلك دليل على اضطراب فى وظائف القلب أو على امتلاء المعدة.

إذا رأى معارك وأسلحة وجيوشًا فذلك دليل على اضطراب الرئتين وعلى إمتلاء المعدة.

إذا رأى أنه يسبح بصعوبة وعلى وشك الغرق كان ذلك دليلًا على سوء حال الكليتين.

إذا رأى أفراحًا وأغانى وموسيقى كان دليلًا على سوء حال الطحال.

إذا رأى غابات تضلل المار، وجبالاً صعبة المرتقى فذلك دليل على فساد الكبد..

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين جـ ٤ ص ١٦٤.

ثالثًا: فى أوائل القرن العشرين صدر كتاب «تفسير الأحلام»[١] لسيجموند فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٦) وهو يدعى أن الأحلام جميعًا لا تعدو أن تكون تحقيق رغبات جنسية فهى لغة اللاشعور الذى يرتبط برغبات مكبوتة تسعى دائما إلى الإنطلاق إلا أنه لكى تنطلق تلك الرغبات المجرمة تلجأ إلى الرمزية لتخفى أغراضها التى يحظرها المجتمع والقانون.. فوظيفة الحلم عند فرويد هى اشباع الرغبة الجنسية وتخفيف التوتر.

وقد تمرد على فرويد فى رأيه هذا - تلميذاه آدلر، ويونج..

أما «أدلر» فترتبط نظريته فى الأحلام بمبدأ الشعور بالنقص والتطلع إلى القوة، وليس مضمون الأحلام إلا رموزًا تشير إلى علامة السيطرة والخضوع بالنسبة لفرد تجاه آخر وقد تكون هذه الرمزية فى صور جنسية.

وينظر «يونج» إلى الأحلام على أنها طريق لتحقيق التوازن بين الشعور واللاشعور، على معنى أن كل ما يحاول الإنسان هجره والبعد عنه نتيجة القيم والعادات والتقاليد ينزوى إلى اللاشعور وينال حقه فى الوجود عن طريق الأحلام.. فليست الأحلام خاصة بالرغبات الجنسية المكبوته بل هى عامة التعبير عن كل ما تحتاجه الشخصية من رغبات مكبوتة..

رابعًا: ذهب كثير[٢] من الفلاسفة إلى أن النوم مرحلة تسكن فيها الحواس عن متابعة صور العالم الخارجى مما يزيد فى تفرغ النفس وصفائها واتصالها بعالمها المجرد اتصالاً روحيًا كالمرايا إذا حوذى بعضها ببعض.. فتدرك فى حال الرؤيا الصالحة من أحوالها وأحوال ما يقاربها من الأهل والأقارب ما هو مرتسم فى العالم العلوى ثم تعمل القوة المتخيلة على أن

---

(١) راجع كتاب «محاضرات تمهيديه فى التحليل النفسى» ترجمة د. أحمد عزت راجح ومجلة «الجديد» ع أكتوبر سنة ١٩٧٢ (عدد خاص بالأحلام).

(٢) راجع مقدمة إبن خلدون تحقيق د. وافى جـ ١ ص ٥٢١، جـ ٣ ص ١٠٨١ وآراء أهل المدينة الفاضلة للفارابى ص ٦٨.

تصوره بصورة جزئية مناسبة فتحاكى ما هو خير فى صورة جميلة وما هو شر فى صورة قبيحة..

ويرى الأفلاطونيون والإشراقيون أن الرؤيا الصالحة مشاهدة النفس صورًا حقيقية موجودة فى عالم المثل الذى هو الوجود الحق إذ أن كل نوع فى هذا العالم المادى يعتبر ظلا لمثاله فى العالم العلوى.

تعقيب:

إن تعليل الأحلام كما يدعيه أنصار المدرسة التحليلية قائم على اتجاه مادى يعمل على إقصاء القيم الروحية من واقع الناس، وليس من قبيل المنهج العلمى فى شىء فهو مجرد مجموعة من الافتراضات والتقديرات كانت ثمرة لعدة مصادر هى[1].

١ - تجارب فرويد مع المرضى والمصابين بالاضطراب النفسى وقد قصر أبحاثه عليهم أربعين سنة فلم يلتق فى دراسته بأى شخصية سوية.

٢ - اتخذ فرويد من دراسة نفسه وطفولته قاعدة عامة للبحث وعمد من خلالها إلى استخلاص قوانين عامة بينما لم يكن فرويد إلا فردًا يعيش فى مجتمع يضطهد اليهود وينتمى إلى أقلية مكروهة وأقل ما ينسب إليها حب المال والتعصب والطموح الاقتصادى.

٣ - كان فرويد نفسه مريضًا فقد ذكر الدكتور (ارنست جونر) أنه كان خلال طفولته ينسى نفسه فى الفراش وكان فى شبابه ينسى الأسماء وكان يدخن عشرين سيجارًا فى النهار ليهدئ من سوراته العصبية وكان دائم العزلة ولا يسمح لأحد أن يصاحبه طويلاً.

هذا وقد رأينا معارضة أدلر ويونج لهذه النظرية التى ترجع كل نشاط الإنسان وقيمه إلى عقدة الجنس، كما عارضها كثير من الباحثين.

---

(١) قضايا العصر فى ضوء الإسلام: الأستاذ أنور الجندى ص ١٣٧.

ويجب أن نتنبه إلى أن الصهيونية العالمية تعمل بجهد وإصرار على تحقيق ما جاء فى بروتوكولات حكماء صهيون من إفساد العالم وتمييع أخلاقه وهدم قيمه وهى تستغل فى ذلك كافة الطرق والوسائل، وهى وراء كل دعوة ماجنة أو نظرية فاسدة وليس من المصادفة أن يكون اليهودى دارون (١٨٠٩- ١٨٨٢) وراء دعوى التطور، واليهودى كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣) وراء الشيوعية واليهودى فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٦) وراء غريزة الجنس، واليهودى سارتر (١٩٠٥ - ١٩٨٠) وراء الوجودية.

يقول الدكتور صبرى جرجس[1]:

«فإلى جانب التحالف بين عنصرية الاستعمار الإمبريالى واليهودية الصهيونية يوجد تحالف بين عنصرية التحليل النفسى واليهودية الصهيونية أيضًا تحالف أقل افتضاحًا وإن لم يكن أهون ضررًا لأنه تحت قناع الفكر العلمى الذى يبعد عنه المظان والشبهات يعمل على المشاركة فى المخطط الذى يستهدف القضاء على معنويات الشعوب بهدم المثل والقيم المكونة لتراثها».

النظرية الإسلامية

نحن كمسلمين - نرى أن الرؤيا أنواع:

١ - ما يكون من فعل الشيطان وإلقائه فى النفس من الأضغاث والتخليط الذى لا ينضبط ولا يعدو أن يكون لونا من ألوان العداوة التى أخذ بها نفسه ﴿ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئًا إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾[2].

٢ - ما يكون من حديث النفس وأعمال اليقظة مما يتراءى للمرء فى نومه على أشكال مختلفة.

(١) التراث اليهودى الصهيونى والفكر الفرويدى ص ٣٧٢.

(٢) سورة المجادلة آية ١٠.

وينطوى تحت هذا كل ما يدعيه أنصار المدرسة التحليلية: فإن إنكارنا لهم من جهتين:

(أ) قصر جميع الرؤى على عقدة الجنس أو غيرها.

(ب) تعميم تلك الحال على كافة البشر دون مراعاة لمستواهم الأخلاقى..

٣ - ما يكون إلهامًا من الله تعالى للعبد إذا صفت نفسه وتخلصت سريرته من أفكار السوء، وتعلق قلبه بذكر الله واشتغلت جوارحه بعبادة الله..

ويجمع ذلك كله قول الرسول الصادق المصدوق: أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثًا ورؤيا المسلم جزء من خمس وأربعين جزءا من النبوة، والرؤيا ثلاثة: رؤيا الصالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان ورؤيا مما يحدث المرء نفسه فإن رأى أحدكم ما يكره فليقم فليصل ولا يحدث بها الناس» رواه مسلم عن أبى هريرة.

وجاء أعرابى يقول للرسول ﷺ إنى حلمت أن رأسى قطع فأنا أتبعه. فزجره النبى ﷺ وقال:

«لا تخبر بتلعب الشيطان بك فى المنام» رواه مسلم عن جابر.

هذا وليس العدد فى التعبير عن الرؤيا بأنها خمس وأربعون جزءًا من النبوة مقصودًا بل المراد الكثرة فى تفاوت المرتبة بين النبوة والرؤيا بدليل تعدد الروايات فبعضها يذكر ثلاثة وأربعين أو ستة وأربعين أو سبعين وغيرها..

وما ذهب إليه البعض فى رواية ستة وأربعين من أن الوحى كان فى مبتدئه بالرؤيا ستة أشهر وهو نصف سنة ومدة النبوة كلها بمكة والمدينة ثلاث وعشرون سنة فنصف السنة منها جزء من ستة وأربعين - كلام بعيد عن التحقيق - كما يقول ابن خلدون -[١] لأنه إنما وقع ذلك للنبى ﷺ ومن أين لنا أن هذه المدة وقعت لغيره من الأنبياء؟ ! مع أن ذلك إنما يعطى نسبة زمن

---

(١) المقدمة جـ ١ ص ٥٢٢ - تحقيق د. على عبد الواحد وافى.

الرؤيا من زمن النبوة ولا يعطى نسبة حقيقتها من حقيقة النبوة.

وإذا أردنا أن نعطى نماذج للرؤيا الصالحة فإن أول ما بدىء به الوحى للرسول ﷺ هو الرؤيا الصالحة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

كما جاء ذلك فى صحيح البخارى عن السيدة عائشة، ولا نعرف نماذج من الرؤى قبل النبوة، ولكن جاء القرآن وجاءت السنة الصحيحة بنماذج من الرؤى التى وقعت بعد النبوة، منها على سبيل المثال:

قال الله تعالى ﴿إذ يريكهم الله فى منامك قليلا ولو أراكهم كثيرًا لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور﴾[1].

ففى غزوة بدر الكبرى واجه المسلمون المشركين فى أول واقعة حربية حاسمة، وكان المشركون ضعف عدد المسلمين وقد وقعت رؤيا لرسول الله ﷺ خلال المعركة شاهد فيها المشركين قلة قليلة فأخبر أصحابه يومئذ قائلا: كأنى أنظر إلى مصارع القوم، وتلك بشرى إلهية حتى يشتد العزم وتقوى الإرادة ويزداد الإقدام....

٢ - قال الله سبحانه: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لاتخافون.﴾[2] فقد أخبر الرسول ﷺ صحابته فى العام السادس للهجرة برؤيا حق شاهد فيها المسلمين داخلين المسجد الحرام فى أمن تام مؤدين المناسك.

ولما سار المسلمون ووصلوا إلى الحديبية لم يشك جماعة منهم أن الرؤيا النبوية تتحقق عامهم هذا وحين وقع ماوقع من صلح الحديبية تساءل عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقال: ألم تخبرنا أن سنأتى البيت ونطوف به؟! قال عليه الصلاة والسلام: بلى، أفأخبرتك أنك آتيه عامك هذا؟! قال عمر: لا

---

(١) سورة الأنفال آية ٤٣.

(٢) سورة الفتح آية ٢٧.

قال عليه الصلاة والسلام: فإنك آتيه ومطوف به..!! وفعلا ففى العام السابع وفى ذى القعدة أدى الرسول والمسلمون عمرة القضاء ودخلوا مكة معتمرين ملبين بعد سبع سنين طوال حرموا خلالها من رؤية الكعبة المشرفة.. وتجمع المشركون رجالا ونساء وصبية، وتزاحموا ليروا هذا النبى القائد يحيط به المهاجرون والأنصار فى ولاء كامل وحب كبير وطاعة مطلقة[١].

٣ - جاء فى صحيح البخارى أن ابن عمر رضى الله عنهما قال: سمعت رسول لله ﷺ يقول: بينا أنا نائم أتيت بقدح لبن فشربت منه حتى إنى لأرى الرى يخرج من أظفارى ثم أعطيت فضلى عمر.
قالوا: فما أولته يارسول الله؟.
قال: العلم.

فهنا عبّر الرسول ﷺ رؤياه، وفسر اللبن بالعلم فى كثرة الانتفاع بها، ويظهر من ذلك فضل عمر، فهو الفاروق الذى كان إسلامه فتحا، وهجرته نصرا وخلافته رحمة.

٤ - وفى صحيح البخارى أيضًا عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: بينا أنا نائم رأيت الناس يعرضون علّى، وعليهم قمص، منها ما يبلغ الثدى، ومنها مايبلغ دون ذلك، ومّر علّى عمر بن الخطاب-وعليه قميص يجره.

قالوا: ماأولته يا رسول الله؟.
قال: الدين.

وتعبير الرؤيا هنا بتفسير القميص بالدين لأن الأول يستر العورة فى الدنيا، والثانى يستر العورة فى الآخرة، والقميص به كمال الإنسان فى مظهره، والدين به كمال الإنسان فى حقيقته وباطنه، وعمر رضى الله عنه له من سابقته فى الإسلام وجهاده مع رسول الله ونصرته للمسلمين وخدمته إياهم ما يجعله من أعلام الصحابة المبشرين بالجنة والفائزين بالرضوان.

---

(١) لمزيد من التفاصيل راجع كتابنا «الرسول حول الكعبة» ص ٤٥.

٥ – وجاء فى الصحيح أيضًا: «بينما أنا نائم أتيت خزائن الأرض فوضع فى يدى أسوران من ذهب فكبرا على وأهمانى فأوحى إلى أن انفخهما فنفختهما فذهبا.

فأولتهما الكذابين اللذين أنا بينهما صاحب صنعاء وصاحب اليمامة» والمعنى أن الرسول ﷺ أول سوارى الذهب اللذين طارا من يديه بالعنس متنبئ صنعاء ومسيلمة متنبئ اليمامة، وأن هذين الشخصين الكذابين سيذهب كيدهما وينمحق شأنهما وقد وقع ذلك كما أخبر الصادق المصدوق..

وعلى مدار الرسالات الإلهية نجد للرؤى ملامح بارزة...

فقصة الفداء لإسماعيل عليه السلام قامت على أساس رؤيا لإبراهيم عليه السلام رأى فيها أنه يذبح ولده، فما كان منهما إلا الاستسلام لذلك الاختبار الإلهى إلى أن جاء الفداء من السماء فاستنقذ إسماعيل من الذبح.. قال تعالى: ﴿فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين، فلما أسلما وتله للجبين، وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين، إن هذا لهو البلاء المبين، وفديناه بذبح عظيم﴾[1].

ويوسف الصديق عليه السلام بدأ حياته برؤيا أسرها إلى أبيه ﴿إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين﴾[2].

وتسير أحداث الحياة وتلقى به المقادير فى بيت العزيز وتراوده ﴿التى هو فى بيتها﴾ ولكن الإيمان يتجلى ويثبت فاعليته وحركته الإيجابية وينطق بملء فيه ﴿معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون﴾.

ثم تجتمع النسوة ويتآمرن عليه ولكنه يبتهل إلى ربه فى ضراعة ضارعة

---

(١) سورة الصافات آية ١٠٢: ١٠٧.   (٢) سورة يوسف آية ٤.

﴿رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه﴾ فيلقى فى السجن ويلتقى هناك بفتيين ويسلك معهم سبيل الدعوة إلى الله ﴿يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾..

ويرى الفتيان رؤيا يعبرها يوسف لهما فيقول: ﴿يا صاحبى السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمرًا وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه﴾.

وتمضى الأحداث فيرى الملك رؤيا يحار فيها الجميع فأرسلوا إلى يوسف الصديق ﴿أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات﴾ فيعبرها يوسف كما علمه ربه ﴿قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون، ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون، ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون﴾.

وحاصل تأويله أنه فسر البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين يكثر خيرها وزرعها وأرشدهم إلى طريقة للتخزين فريدة وهى أن تترك الغلال فى سنابلها حتى لا ينال منها السوس وهى نصيحة منه خارجة عن تعبير الرؤيا، ثم فسر البقرات العجاف والسنبلات اليابسات بسنين جدباء يشتد فيها القحط وتأتى على المخزون من الغلال، ثم بشرهم زيادة على تعبير الرؤيا أنه سيأتى من بعد ذلك عام فرج ورجاء فيه يغاث الناس (من الغيث وهو المطر أو الغوث وهو الفرج) وفيه يعصرون أى يتخذون الزيوت والدهون لكثرة الأعناب والزيتون وغيرهما...

وحينئذ استخلصه الملك لنفسه وجعله على خزائن الأرض، ويأتى إخوة يوسف ﴿فعرفهم وهم له منكرون﴾ ويعاودون إليه الرجوع طلبا للزاد إلى أن يقفوا مواقف الضراعة قائلين: ﴿يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين﴾ وهنا يفصح يوسف عن نفسه ويذكرهم بفعلتهم الشنعاء ويتبعها بالصفح الجميل

﴿لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾ ثم يستجلب أهله أجمعين إلى مصر ﴿فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين، ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا﴾.

واختلف العلماء فيما بين رؤياه وتأويلها فقال أكثر العلماء: أربعون سنة وقال بعضهم ثمانون سنة وقيل غير ذلك.

وعن طول المدة بين الرؤيا وتحقيقها يقول الخطيب الشربينى[1] فى تفسيره: قال الحكماء إن الرؤيا الرديئة يظهر تعبيرها عن قرب والرؤيا الجيدة إنما يظهر تعبيرها بعد حين قالوا والسبب فيه أن رحمة الله تعالى تقتضى ألا يحصل الإعلام بوصول الشر إلا عند قرب وصوله حتى يكون الحزن والغم أقل وأما الإعلام بالخير فإنه يحصل متقدما على ظهوره بزمن طويل حتى تكون البهجة الحاصلة بسبب توقع حضور ذلك الخير أكثر وأتم ولهذا لم تظهر رؤيا يوسف عليه السلام إلا بعد أربعين سنة وهو قول أكثر المفسرين.

هذه هى النظرية الإسلامية فى الرؤى والأحلام وهى نظرية شاملة متكاملة وهذه هى الرؤيا الصالحة كما وردت فى القرآن الذى لايأتيه الباطل من بين يدية ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، ويشهد بها واقع الناس جميعا فما من إنسان إلا وله حظ منها رغم أنف أدعياء التحليل النفسى..

وما يقوله علماء النفس من أن هذا النوع من الأحلام يسمى بالتوقع اللاشعورى ويفسرونه بأن هناك دلالات مرت بالعقل يمكن أن تؤخذ لما يصح أن يقع فى المستقبل فيرد عليه الدكتور عبد الكريم دهينة[2] بأن هذا التعليل متعب جدا لا يسلم به الإنسان سريعا فما معنى دلالات مرت بالعقل؟! وما معنى أنه يمكن أن تؤخذ لما يصح أن يقع فى المستقبل؟! لا لقد رأى يوسف أحد

---

(١) السراج المنير جـ ٢ ص ٨٦.

(٢) شخصيتك فى الميزان ص ٩٨.

عشر كوكبا والشمس والقمر يسجدون له وقد كان صغير السن فأى تجربة مرت بعقلة قبل ذلك.. لقد كان طفلا صغيراً؟.

لقد رأى فرعون مصرسبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات فما الذى مر به قبل ذلك ليرى هذه الرؤيا العجيبة، لقد كان فى نعيم ورخاء وراحة بال تجرى بين يديه الخيرات؟.

ويذهب الدكتور القوصى فى كتابه الصحة النفسية إلى أن هذا النوع من الأحلام ليس بحثا من مباحث علم النفس».

الفصل الرابع

الروح عقب الموت

يقضى الإنسان حياته الموهوبة له إلى أن يحين الأجل المسمى فينتقل من هذه الحياة لاتمنعه قوة ولاترده حيلة ولايؤجله طب، وتعجز الإنسانية جمعاء وتقف حيرى أمام هذا الابتلاء الإلهى ﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم ولكن لاتبصرون فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين﴾[1].

وإذا كان العلم قد وقف على كثير من حياة الإنسان ودخائله فإنه عاجز عن إدراك ما بعد الحياة، وكل ما يقوله فيه حدس وتخمين يستوى فيه من عاش قديما ومن عاش حديثا، وغاية ما يصل إليه العقل والعلم بكل آلاته لن يزيد على ما قاله قس بن ساعدة فى سوق عكاظ:

أيها الناس اجتمعوا واستمعوا وعوا.. فإن من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت.. ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون؟ أرضوا فأقاموا؟ أم تركوا فناموا؟ (ثم أنشد):

فى الذاهبين الأولـ	ين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا	للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها	يمضى الأصاغر والأكابر
لايرجع الماضى إلى	ولا من الباقين غابر
أيقنت أنى لا محا	لة حيث صار القوم صائر

---

(١) سورة الواقعة آية ٨٧.

وإذا لم يعرفوا ما بعد الموت فقد حاولوا أن يفسروا الموت وكان[١] المعتقد أن الموت يقع لأن القلب قد توقف وبذلك وضع تعريف للموت بأنه توقف القلب عن النبض... ولكن هذا التعريف انهار فى السنوات الأخيرة عندما استطاع العلم زراعة القلب.. فالقلب يموت ويتوقف عن النبض ويخرجه الطبيب ويضع بدلا منه قلبا آخر من إنسان مات بلا سبب من القلب، أويستبدله بجهاز اصطناعى يشبهه فى عمله فتستمر الحياة بقلب غير القلب أو بآلة صماء لاتحس ولاتفهم ولاتشعر ولاتحيا ولاتنبض... وبذلك لم يعد الموت هو توقف القلب.. وظل العلم بعد ذلك يتمسك بتعريف قديم وهو أن الموت إنما يتم بموت خلايا المخ التى ما أن تفقد الدماء الحارة والهواء النقى لبعض دقائق حتى تجف وتموت وبموتها لابد من موت صاحبها فلا سبيل إلى محاولة أخرى ولكن هذا التعريف قد انهار أيضا منذ سنوات حينما أعلن مستشفى جامعة طوكيو نجاحة فى إعادة مخ رجل للحياة بعد توقف نشاطه عدة شهور..

وكان لابد من إيجاد تعريف جديد وصحيح للموت بعد أن ثبت أن الموت ليس تعطل وظائف الأعضاء إذ من اليسير أن تعاد للأعضاء وظائفها بإصلاحها أو باستبدالها بأخرى وأصبح وما من تعريف أصدق للموت من أنه مغادرة الروح للجسم، إذ فى حالات كثيرة، والجسم فى أتم صحة والأعضاء فى أكمل حالاتها تغادر الروح الجسم بلا سبب غير ما سبق تقديره من الله سبحانه وتعالى من توقيت قاطع لموت صاحبها فيموت الإنسان بلا سبب معروف ولا علة واضحة أو دقيقة وبما لاعلاقة له إطلاقا بالجسم.. وهكذا لايوجد للموت سوى تعريف علمى واحد هو ما جاءت به آيات القرآن المجيد ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾[٢].

(١) مجلة الفكر الإسلامى العدد ١٠ ص ٦١.
(٢) سورة الزمر آية ٤٢.

وحيث لا مجال للعلم والعقل أن يستقل بمعرفة مابعد الموت وحقيقة الأمر هناك فى عالم الغيب فما علينا إلا أن نلقى السلم إلى كتاب الله وسنة رسوله نستوضح الخبر ونستجلى الحقيقة. وهذا ما يدعونا إلى الحديث عن عالم البرزخ وهى المرحلة التالية مباشرة لمفارقة الحياة.

ولكن البعض حاول أن يسترق السمع بما سماه «تحضير الأرواح» فما مدى الصدق فيه؟.

فإلى تفصيل الحديث.. وبالله التوفيق.

المبحث الأول
عالم البرزخ

إذا أردنا أن نتفهم عالم البرزخ فعلينا أن ندرك أولا أن الإسلام من بين أديان ومذاهب الأرض - هو وحده الذى يقول: ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ ومن هنا فإن عقائد الإسلام كلها لاتناقض أصل الفطرة ولا مسلمات العقول، غير أن العقل محدود وقواه متناهية، وله مجاله الذى لايخطئ فيه وهناك وراء ذلك مجالات يقف عندها العقل لا لكونها مصادمة له بل لكونه أقل من أن يدركها - وحده - على حقيقتها.. من ذلك عالم البرزخ وما يجرى فيه من مسألة وجزاء، فمادمنا قد آمنا بالله وكمالاته الإلهية عن طريق البرهان العقلى القطعى وأنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق مؤيدًا بالمعجزة التى تواترت جيلا بعد جيل شاهدة على صدقه ونبوته وأنه لا ينطق عن الهوى - فعلينا بعد ذلك - متى صح النقل - الإيمان بما ورد من أمور سمعية أخبر الشارع بوقوعها وهى فى نفسها أمور ممكنة عقلا لا تجمع بين متناقضات

ولاتصادم أصلا من أصول الاستدلال، والقدرة التى أبدعت الملك والملكوت لا تزال صالحة لكل شىء ﴿إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون﴾[١].

ما البرزخ؟

البرزخ فى اللغة الحاجز بين الشيئين قال تعالى: ﴿بينهما برزخ لا يبغيان﴾ أى حاجز يمنع أن يختلط أحدهما بالآخر.. ونعنى به هنا المرحلة التى تعقب هذه الحياة وتفصل بينها وبين الحياة الآخرة حين يخرج الناس من الأجداث مسرعين يلبون النداء الإلهى ليوم ﴿يجعل الولدان شيبا﴾.

الدلائل:

وردت النصوص بأن هناك سؤالا وجزاء موقوتا نعيما كان أو عذابا عقب الموت مباشرة كمرحلة تمهيدية للحساب الأكبر الذى لايغادر صغيرة ولاكبيرة إلا أحصاها.

وعلى هذا اتفق سلف الأمة وأهل السنة وجمهور المعتزلة.

واستدلوا بمايأتى:

١ - قال تعالى فى حق آل فرعون: ﴿النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾[٢].

دلت الآية على أن العرض قبل يوم القيامة لأن العطف يقتضى المغايرة وليس ذلك العرض فى الدنيا قطعا فيكون فى البرزخ.

---

(١) سورة يس آية ٨٢.

(٢) سورة غافر آية ٤٦.

٢ - قال سبحانه وتعالى فى حق قوم نوح: ﴿أغرقوا فادخلوا نارا﴾[١] والفاء للتعقيب فدخول النار عقب الغرق مباشرة يكون فى البرزخ وليس فى القيامة.

٣ - قال جل ذكره فى حق الشهداء: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألاخوف عليهم ولاهم يحزنون﴾[٢] فهذا النعيم قبل يوم القيامة قطعًا لأن الآية ترشدنا إلى ألا نعتبرهم أمواتا كما تخبرنا بأنهم يتطلعون إلى إخوانهم الذين ما زالوا فى الدنيا ينتظرون الشهادة.

والأحاديث الصحيحة الواردة فيه أكثر من أن تحصى بحيث تواتر القدر المشترك وإن كان كل واحد منها آحادا فهى متواترة المعنى.. ومنها:

١ - روى الشيخان أن الرسول ﷺ مر بقبرين فقال: إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير أما أحدهما فكان لا يستتر من بوله وأما الآخر فكان يمشى بين الناس بالنميمة.

٢ - ومن الدعاء المتفق عليه أن الرسول ﷺ كان يقول: اللهم إنى أعوذ بك من فتنة النار وعذاب النار وفتنة القبر وعذاب القبر ومن شر فتنة الغنى ومن شر فتنة الفقر.

٣ - ومن المشهور المتفق عليه أن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثا ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم فقال: ياأبا جهل بن هشام يا أمية بن خلف ياعتبة ابن ربيعة، وياشيبة بن ربيعة.. أليس قد وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟ فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقا، فسمع عمر قول النبى فقال: يارسول الله كيف يسمعون وأنى يجيبون وقد جيفوا؟ قال والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لايقدرون أن يجيبوا.

---

(١) سورة نوح آية ٢٥.

(٢) سورة آل عمران آية ١٦٩ : ١٧٠.

٤ – روى مسلم بسنده عن ابن عمر «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة.

وقفة مع آية:

قال تعالى: ﴿قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل﴾[1].

حاول بعض العلماء الاستدلال بهذه الآية على حياة البرزخ ونفاه آخرون ولكل وجهة.

(أ) قال بعض العلماء: إن الإماتتين هما:

١ – عند حلول الأجل فى الدنيا.

٢ – بعد حياة القبر للسؤال.

والإحياءان هما:

١ – فى القبر.

٢ – عند البعث.

وليس المراد بالإحياء الأول حياة الدنيا لأن مقصود الآية الإخبار على لسان الكفار بأنهم أيقنوا بقدرة الله على البعث وذلك لا يكون إلا فى القبر والحشر أما فى الدنيا فلم يكونوا قد اعترفوا بذنوبهم.

(ب) قال آخرون: إن الإماتتين فى الدنيا وفى القبر وكذا الإحياءان وترك ذكر إحياء الآخرة لأنه معاين لهم ومقصودهم ذكر الأمور الماضية.

وعلى هذين الرأيين يمكن الاستدلال بالآية على حياة القبر ومسألته لكن هذا الاستدلال ليس مسلما عند الجميع فهناك من يفسر الآية على أن الموت الأول مقصود به خلقهم أمواتا فى أطوار الخلقة من النطفة إلى العلقة إلى المضغة، والموت الثانى هو عند انتهاء الأجل، قال فى حاشية الجمل «فإن

---

(١) سورة غافر آية ١١.

الإماتة جعل الشيء عادم الحياة ابتداء أو بتصيير والمعنى خلقتنا أمواتا ثم صيرتنا أمواتا عند انقضاء آجالنا».

والمراد بالإحياء الأول حياة الدنيا والإحياء الثانى عند الحشر والجزاء ويروى عن ابن مسعود فى هذه الآية أنه قال.... هى التى فى البقرة ﴿وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾.

وعلى كل فإن نعيم القبر وعذابه ليس متوقفًا على هذه الآية فالدلائل كثيرة والشواهد عليه متواترة المعنى كما سبق.

آراء العلماء فى حقيقة البرزخ

١ - جمهور المسلمين:

ذهب جمهور المسلمين إلى أن إحياء الموتى فى قبورهم وسؤالهم فيه حق ثابت وأن القبر هو ما استقر فيه جسد الإنسان ولو كان جوف الوحوش والطيور أو حيتان البحر، ويعيد الله تعالى إليه نوع حياة لا نحسه نحن ولاندركه، به يسمع السؤال ويجيب عنه.

وقد روى مسلم بسنده عن أنس بن مالك أن الرسول ﷺ قال: إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم قال: يأتيه ملكان يقعدانه فيقولان له ما كنت تقول فى هذا الرجل؟ قال فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله فيقال له انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة فيراهما جميعا.

وروى الشيخان عن البراء بن عازب فى قوله تعالى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة﴾ قال الرسول ﷺ نزلت فى عذاب القبر فيقال له من ربك؟ فيقول: ربى الله ونبى محمد ﷺ فذلك قوله: ﴿يثبت الله الذين آمنوا﴾.

وقال الجمهور إن محاولة استبعاد ذلك حيث نرى الشخص يصلب ويذهب أدراج الرياح وكذا الغريق والمحروق وأكيل السبع.. كل هؤلاء لا يتشاهد لهم حياة ولا نرى عليهم أثر تعذيب أوتنعيم - هذه المحاولة لامسوغ لها إذا علمنا أن قدرة الله صالحة وأن عدم المشاهدة ليس دليلا على نفى الحياة والجزاء وقد كان النبى ﷺ يرى جبريل وهو بين أظهر أصحابه لا يرونه..

وقال بعضهم[1] لابد فى رد الحياة إلى بعض أجزاء البدن فيختص بالإحياء والمسألة وإن لم يكن ذلك مشاهدًا لنا وأما صورة المحروق ومن أكلته السباع فلا بُعد فى أن تعاد الحياة إلى الأجزاء المتفرقة أو بعضها وإن كان خلاف العادة فإن خوارق العادات غير ممتنعة فى مقدور الله..

وقال إمام الحرمين[2] «إن المرضى عندنا أن السؤال يقع على أجزاء يعلمها الله تعالى من القلب أو غيره فيحييها الرب تعالى فيتوجه السؤال عليها وذلك غير مستحيل عقلاً وقد شهدت قواطع السمع به وما ذكروه من الإنكار بمثابة إنكار الجاحدين رؤية رسول الله ﷺ الملائكة مع جلوسه بين أظهرهم.

٢ - رأى ابن حزم[3]:

ذهب ابن حزم إلى أن عذاب القبر ومسألته إنما هو للروح فقط بعد فراقه للجسد، قبر أو لم يقبر وإنما قيل «عذاب القبر» فأضيف إلى القبر لأن المعهود فى أكثر الموتى أنهم يقبرون ومن ظن أن الميت يحيا فى قبره فقد أخطأ.. ويستدل بما يأتى:

١ - قال تعالى: ﴿النار يعرضون عليها غدوا وعشيا.. الآية﴾.

والعرض لا يكون إلا للأرواح.

---

(١) المواقف جـ ٨ ص ٣١٧.

(٢) الإرشاد ص ٣٧٦.

(٣) الفصل جـ ٤ ص ٦٦ بتصرف.

٢ – قال سبحانه: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى﴾.

فقد نص القرآن على أن روح من مات يمسكها الله ولا ترجع إلى جسده.

٣ – لو كان هناك حياة للبدن فى قبره لكان الله تعالى قد أماتنا ثلاثًا وأحيانا ثلاثًا وهذا باطل وخلاف القرآن فى قوله: ﴿قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾ فليس هناك حياة ثالثة اللهم إلا من أحياهم الله آية لنبى من الأنبياء كما فى قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم﴾[1].

وقوله: ﴿أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾[2].

٤ – خطاب الرسول ﷺ لقتلى بدر وإخباره أنهم وجدوا ما وعدهم ربهم حقا قبل أن يكون لهم قبور، وأنهم سامعون لندائه وعدم إنكار الرسول على المسلمين فى قولهم إنهم قد جيفوا، كل ذلك يؤكد أن المدار على الأرواح فقط أما الجسد فلا حس له.

٥ – قال ابن حزم بالنص: لم يأت قط عن رسول الله فى خبر صحيح أن أرواح الموتى ترد إلى أجسادهم عند المسألة ولو صح ذلك عنه عليه السلام لقلنا به، وإنما انفرد بهذه الزيادة من رد الأرواح المنهال بن عمرو وحده وليس بالقوى، تركه شعبة وغيره، وسائر الأخبار الثابتة على خلاف ذلك.

٦ – ساق ابن حزم رواية تقول: دخل ابن عمر المسجد فأبصر ابنَ الزبير مطروحًا قبل أن يصلب فقيل له: هذه أسماء بنت أبى بكر الصديق، فمال إليها فعزاها وقال: إن هذه الجثث ليست بشىء وإن الأرواح عند الله، فقالت أسماء: وما يمنعنى وقد أهدى رأس يحيى بن زكريا إلى بغى

---

(١) سورة البقرة آية ٢٤٣.

(٢) سورة البقرة آية ٢٥٩.

من بغايا بنى إسرائيل، ثم ساق ابن حزم رواية أخرى عن ابن مسعود فى قوله تعالى: ﴿ربنا أمتنا اثنتين﴾ قال ابن مسعود هى التى فى البقرة: ﴿وكنتم أمواتا فأحياكم... الآية﴾.
ثم علق قائلاً: فهذا ابن مسعود وأسماء بنت أبى بكر وابن عمر ولا مخالف لهم من الصحابة.. تقطع أسماء وابن عمر على أن الأرواح باقية عند الله وأن الجثث ليست بشىء ويقطع ابن مسعود بأن الحياة مرتان والوفاة كذلك.. وهذا قولنا.

وخلاصة رأى ابن حزم أن البرزخ هو عالم الأرواح الذى كانت موجودة فيه قبل أن تحل بالبدن وأن موضع كل روح يسمى قبرًا تعذب فيه الأرواح وتسأل وقد صح أن النبى ﷺ رأى موسى عليه السلام قائمًا فى قبره يصلى ليلة الإسراء وأخبر أنه رآه فى السماء السادسة أو السابعة وبلا شك إنما رأى روحه أما جسده فموارى فى التراب، وقد أخبر القرآن أن الشهداء يرزقون عند ربهم وهذا الرزق للأرواح بلا ريب.

٣ - آراء باطلة:

هناك آراء شاذة ومنكرة منها - كما حكى صاحب المواقف[١] - ما ذهب إليه الصالحى من المعتزلة وابن جرير الطبرى وطائفة من الكرامية من تجويز التعذيب على الموتى من غير إحياء، فهذا خروج عن المعقول لأن الجماد لا حس له فكيف يتصور فيه تعذيب.
ومنها ما ذهب إليه بعض المتكلمين من أن الآلام تجتمع فى أجساد الموتى وتتضاعف من غير إحساس بها فإذا حشروا أحسوا بها دفعة واحدة، فهذا إنكار للعذاب قبل الحشر ومصادمة للنص..

وهذه الآراء لا تبعد عن آراء من أنكره مطلقًا مثل ضرار بن عمرو من شيوخ المعتزلة..

---

(١) المواقف جـ ٨ ص ٣١٨.

وذهب ابن الراوندى - كما حكى السعد[١] - إلى أن الحياة موجودة فى كل ميت لأن الموت ليس ضد الحياة بل هو آفة كلية معجزة عن الأفعال الاختيارية غير منافية للعلم..

وهذا مناف لأصول أهل الحق..

ترجيح ورأى:

والذى نراه أن مذهب ابن حزم أسلم وأبعد عن مظان الشبهات التى يثيرها الملاحدة ولا يناله نقد من الوجهة العقلية مع ملاحظة الاقتصار منه على أن عالم البرزخ بكل ما فيه من سؤال وجزاء إنما هو واقع على الروح أما ما يقوله ابن حزم من أن الروح تعود إلى مكانها الذى كانت فيه قبل حلولها البدن فقد وضحنا رأينا فيه خلال الحديث عن نشأة الروح[٢].

ومع ذلك فنحن لا نجزم بنفى المعنى المتبادر إلى الذهن كما صوره جمهور المتكلمين، فالكل محصور فى دائرة الجواز العقلى وليست فيه استحالة بينة، والمدار على النص الوارد وفهمه ولكل وجهة..

ومن عجب أن يتساءل بعض العلماء هل السؤال خاص بهذه الأمة أم عام؟مع أن الأدلة التى أقاموها من القرآن هى فى حق من سبق مثل قوم نوح وآل فرعون..!!

وهناك أمور لا ترقى إلى مستوى الاعتقاد الواجب فمثلاً هل منكر ونكير اسمان لملكين أو وصفان لحالين فالمنكر هو تلجلج الكافر والنكير هو تقريع الملكين أم هما نوعان من الملائكة؟!

وبأى لغة يكون السؤال؟ومن المسئول هل هو المكلف فقط أم الجميع؟

---

(١)المقاصد تحقيق د. سليمان خميس ص ١١٤.

(٢) راجع ص ٨٢ من الكتاب.

كل ذلك لا قطع فيه ومحاولة إثبات أحد الطرفين ترجيح بلا مرجح ورجم بالغيب فلم يرد النص القاطع لتحديد هذه الاتجاهات وبيان الواقع منها.. فالتفويض واجب والإيمان بما ورد حتمى..

المبحث الثانى
تحضير الأرواح

يدعى أرباب هذه النزعة أن أرواح الموتى تعايشنا فى هذا العالم وتحيط بنا من كل جانب، ويمكن الاستفادة منها فى كشف أسرار العلم ونواميس الطبيعة، والاستعانة بها فى قضاء المصالح وشفاء المرضى..

ويزعمون أن فى تقدم هذه الأبحاث انتصارًا كبيرًا على المذهب المادى السائد فى عالم اليوم، إذ علم الأرواح الحديث - كما يقول أحمد حسين المحامى [١] - محاولة لتحدى العلم المادى فى ميدانه ميدان اللمس والحس والتجربة، فإذا كان العلم يقول إنه لا يؤمن بشىء لا يراه أويسمعه أو يلمسه أو يكون قادرًا على قياسه فلنجعله يسمع الروح إذ تتكلم، ولنجعله يراها إذ تتحرك، ولنجعل الأرواح تحرك الموائد وتدق بها على الأرض، لنجعلها تشع إشعاعًا ولنرسمها بالآلات إذا لزم الأمر..

وقد حاول هؤلاء أن يضفوا على هذه النزعة نوعًا من الشرعية عن طريق كثرة أتباعها أو صفة أشياعها من كونهم أطباء أو مهندسين أو أساتذة جامعيين..

وتبدأ قصة نشأة تحضير الأرواح برواية عن حادثة وقعت - كما يزعمون - سنة ١٨٤٦ فى أمريكا وذلك عندما سمع أمريكى يسكن قرية «هيد سفيل» من مقاطعة نيويورك - طرقات ذات ليلة على أرض بيته فذهب

---

(١) الطاقة الإنسانية ص ٣٨٩.

ليكتشف الفاعل فأعيته الحيل فصبر على مضض ولكنه ذات ليلة قام مذعورًا من صراخ ابنته الصغيرة فسألها عما أصابها فزعمت أنها أحست بيد تمر على جسدها وهى فى السرير، فلم ير الرجل بدأ من ترك المنزل..

وقد خلفه فى سكناه رجل آخر يسمى «جون فوكس» فحصل لأهله ما حصل لسلفه من الأصوات التى لا تجعل للنوم سبيلًا إلى الجفون، فكانت مدام فوكس تنادى جيرانها وتستعين بهم فى البحث عن الفاعل فلم يهتدوا إليه، فتجاسرت المرأة ذات ليلة وقالت لذلك الطارق: أحدث عشر طرقات ففعل، فقالت له كم عمر ابنتى كاترين؟فطرق طرقات على عدد سنى عمرها، قالت له إن كنت روحا فأحدث طرقتين أيضًا ففعل قالت، إن كنت أو ذيت من شيء فأحدث طرقتين ففعل، ولم تزل هذه المرأة به حتى علمت بواسطة الطرق أنها روح رجل كان ساكنًا فى هذا البيت فقتله جاره ليسرق ماله ودفنه فيه.. فلم يسع مدام فوكس إلا أن استحضرت الجيران واستجوبت الروح أمامهم فأجابت بما جعلهم فى دهشة واقتناع فى آن واحد إذ كان الأمر كما أخبرت الروح، وضبطت الحكومة الواقعة وأجرتها مجراها القانونى..

وقد شاع أمر هذا الحادث فى جميع الأصقاع فى أمريكا وغيرها وكثر ظهور مثلها لأن أمثالها كان يظهر كل حين فلا يلتفت إليه، واتجه العلماء نحوها بالبحث والدراسة..

هكذا بكل بساطة يروى أحمد حسين المحامى هذه القصة نقلًا عن كتاب «على حافة العالم الأثيرى».

أما عن حلقة تحضير الأرواح فيضفون عليها كثيرًا من الروحانية ويستعملون كثيرًا من الترانيم الكنسية إن كانوا مسيحيين أو يتمتمون بآى الذكر الحكيم إن كانوا مسلمين على هيئات خاصة فى الجلوس مع مصاحبة أنوار كهربائية معينة ليشيعوا جوا من الرهبة يتبعها نوع من الاستهواء الأخاذ..

وقد تطورت حجرات تحضير الأرواح فأنشأ المعهد الدولى للأبحاث الروحية فى لندن حجرة خاصة لتحضير الأرواح على آخر طراز علمى.. فالحجرة مربعة الشكل طول ضلعها ٢٤ قدمًا وارتفاعها ١٢ قدمًا وجدرانها مغطاة بطبقة من الجبس الملون بزرقة خفيفة، وبها مجموعة من كراسى الملاهى تحت كل كرسى منها ميزان يسجل تلقائيًا وزن الجالس دقيقة بدقيقة.. وبها جهاز لتسجيل الحرارة، وآخر لتسجيل الأصوات، وآلة للتسجيل الفوتغرافى والسينمائى مع استخدام الأشعة فوق البنفسجية والضوء تحت الأحمر لتصوير دقائق الأشياء التى لا ترى بالعين المجردة.. هذا إلى عشرات الأجهزة الأخرى.. وكيفية ظهور الروح - كما يروى محمد فريد وجدى[١] - أن يبتدئ أولاً بشكل سحابة منيرة ثم تأخذ فى التشكل شيئًا فشيئًا حتى تصير شكل إنسان منير ثم تتكاثف حتى تصير لحمًا ودمًا وعظمًا أمام أعينهم فتقف أمامهم وتطوف حولهم عالية بقدمها عن الأرض قليلاً، لابسة هيئة عربية بدوية.. لكن شوهد أن جسمها يكون لينا لدرجة أن الإنسان لو ضغط يدها بين أصبعيه تنبعج يدها بينهما حتى يتلاقيا كأنها عجين ذو قوام متماسك، وشوهد أن لها نبضًا وقلبًا وتنفسًا.. ولما تسأل من أين هذا الجسد؟تقول استعرته من جسم الواسطة، وفى الواقع إذا وزنت الواسطة وجد أن جسمها قد نقص نصف وزنه وقد شوهد أن الجزء الأسفل من الواسطة تلاشى بالمرة وصار لا وجود له وكلما ذهبت الروح عاد إليها.. أهـ

ومما يؤكد فى زعمهم أن التحضير يكون لأرواح الموتى أن الروح تتجسد بشكل الميت وهيئته وصوته وكيفية حركته ولديها العلم التام بحال أسرته بل تذكر أهله بأشياء كانت غائبة عنهم..

ولمزيد من الخيال الجامح يقص أحدهم[٢] أن مأتمًا قد انقلب إلى فرح نتيجة طوفان الروح بجسد الميت بطرقات البلدة وزيارته لبيوت أصدقائه قبل أن

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين جـ٤ ص٣٧٥.

(٢) مجلة عالم الروح - يناير سنة ١٩٦٠.

يوارى فى التراب مما جعل المشيعين يكبرون والنساء يزغردن وأقيم العزاء وجلس هذا القصاص على مقعد أمام قارئ القرآن فإذا به يرى المرحوم – صاحب المأتم – ببدنه ولحمه ولحيته يقول للقارئ: «الله.. أعد يا أستاذ» فأعاد الأستاذ، ثم يتوجه المرحوم إلى هذا القصاص ويقول له: عيب الناس تقف، مفيش كراسى، قل للسيد (ابنه) يجيبوا أبسطة وحصر علشان الناس تقعد!!

وإذا انسقنا مع أوهامهم نجدهم يعتقدون بتناسخ الأرواح وتنقلها من كوكب لآخر بل إن كثيرًا من أرواح سكان كوكب الزهرة – قد عاد إلى أجساد أرضية للمعاونة فى تحسين مستقبل العالم..؟؟

ويغرقون فى الخيال فيزعمون أن الزهريين (سكان كوكب الزهرة) ذهبيو الخلقة، زرق العيون جميلو الطلعة، لطيفو الشعر، جنس لطيف جميل للغاية وأكثر جمالا من سكان الأرض وأقصر منهم لقلة الجاذبية، وجميعهم ذو خبرة واسعة بالأمور الغيبية والعلوم الغامضة إذ ينشأون على معرفتها فى سن مبكرة..

وللأسف فهذه الأوهام أنقلها عن مجلة شهرية تعبث بعقول الناس تسمى «عالم الروح..»!! وأولى بها أن تسمى عالم الخرافة.

ويقسم أحدهم المعارضين للروحية إلى أقسام:

١ – الماديون والملحدون.

وهم لايصدقون بما وراء الطبيعة ولا يعيشون إلا ليومهم.

٢ – رجال الدين وهم لا يفهمون روح الدين – حسب زعمه – .

٣ – الأطباء. لا يسلمون بالروحية لأنها تنافس مشارطهم وتحول بينهم وبين أرزاقهم.

٤ – جهلاء العلماء. وهم قليلو البحث والاستقصاء فيما وراء المادة الجامدة ومحصورون فى دائرة تخصصهم الضيقة.

تعقيب:

أولا: إن القول بأن أرواح الموتى تسبح حولنا مطلقة السراح ويمكن تحضيرها - قول باطل من أساسه ومرفوض بإجماع أهل الأديان السماوية وقد بينا فى المبحث الأول من هذا الفصل أن النصوص الدينية قد أكدت أن هناك سؤالا وجزاء موقوتا يعقب الموت مباشرة كمرحلة تمهيدية للحساب الأكبر.

وإن محاولة التأثير على الناس بأن القائمين على أمر هذه النزعة من ذوى الهيئات أو المكانة هى محاولة فاشلة فمتى كان الحق يعرف بالرجال؟! لقد علمنا المنهج الإسلامى أن الرجال يعرفون بالحق ويوزنون به، وأن الحق أحق أن يتبع.. وإلا فماذا هم قائلون فى الشيوعية التى يتبعها الآن ملايين من البشر؟! أو الوثنية التى اعتنقها أجيال من بنى الإنسان؟!.

وإن القصة التى أوردوها فى نشأة تحضير الأرواح هى تكرار للرواية الجاهلية التى اعتنقها المجتمع الجاهلى قبل ثلاثة عشر قرنا من حادثة «هيدسفيل».

وكانوا يسمونها «الهامة» ويزعمون أن روح القتيل الذى لم يدرك بثأره تصير هامة وتقول اسقونى... أسقونى... وتظل تنتحب هكذا حتى يؤخذ بثأره.

وقد ورد فى الحديث المتفق عليه النهى عن ذلك، قال الرسول ﷺ «لاعدوى ولا طيرة ولاهامة ولاصفر» أى لاعدوى مؤثرة بذاتها ولاتشاؤم بالطير إذا اتخذ وجهة معينة ولاروح للقتيل تنادى بثأره ولانسىء أى تأخير حرمة شهر المحرم إلى صفر إذا هل وهم فى قتال.

يقول عباس العقاد[١]

هل السيطرة على الأرواح مسألة قدسية إلهية أو هى مسألة آلية

---

(١) الفلسفة القرآنية ص ١٣٠ جـ ١ ط الهلال.

صناعية؟إن كانت قدسية إلهية فما هي هذه الآلات والأشعة والمصورات والمحركات؟.

وما هذا الارتباط بين تحضير الأرواح الحديث والمخترعات الحديثة؟ وما هذه السيطرة على الأرواح بسلطان تلك الآلات والمخترعات فى أيدى قوم لم تعرف عنهم قداسة ضمير أو رياضة نسك وصلاح؟!.

وإن كانت آليه صناعية فأى تغليب للمادة على الروح أقوى من هذا التغليب الذى ينوط كشف الأرواح بتقدم الصناعات والمخترعات.. ويجعل عالم الأرواح كعالم المادة تابعًا لآلة تدار أو مخترع جديد لم يكن معروفا قبل القرن العشرين؟!.

وكيف نفسر أن عالم الروح كله لم يستطع بجهوده وبواعثه أن ينفذ إلى عالم المادة؟! وأن عالم المادة استطاع ببعض الأجهزة أن ينفذ إلى عالم الروح؟!

وهل سعت الأرواح إلينا فعجزت فى مسعاها؟ أو هى لم تسع قط ونحن الذين أرغمناها على الظهور لنا والتحدث إلينا؟!.

وما معنى قدرتنا وعجزها فى هذه الجهود التى لاقوة لنا فيها لغير أدوات التحضير؟!.

ثانيا: ماذا علينا لو نسبنا هذه الأشياء المزعومة إلى عالم الجن وحده؟ إذ هو الذى يعيش حولنا ومكلف مثلنا ومنه الصالح والفاسد ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا﴾ وفى تفسير هذه الآية يقول الخطيب الشربينى[1]:

وذلك أن العرب كانوا إذا نزلوا واديا قفرا تعبث بهم الجن فى بعض الأحيان لأنهم لم يكونوا يتحصنون بذكر الله وليس عندهم دين صحيح

---

(١) السراج المنير جـ ٤ ص ٣٢٨.

ولاكتاب من الله صريح فحملهم ذلك على أن يستجيروا بعظمائهم فكان الرجل يقول عند نزوله، أعوذ بسيد هذا الوادى من سفهاء قومه، فيبيت فى أمن وجوار منهم حتى يصبح.. قال مقاتل كان أول من تعوذ بالجن قوم من أهل اليمن من بنى حنيفة ثم نشأ فى العرب، فلما جاء الإسلام صار التعوذ بالله لا بالجن.

ومعنى قوله تعالى: ﴿فزادوهم رهقا﴾ أن ذلك كان فتنة وضلالا للفريقين فالإنس ازدادوا إثما وانحرافا باعتقادهم فى الجن، وازداد الجن طغيانا وظلما باعتزازهم بأنفسهم.

وفى مفتتح سورة الجن يقول الله تعالى: ﴿قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا..﴾

قال الإمام الرازى[١] اعلم أن قوله تعالى: ﴿قل﴾ أمر منه تعالى لرسوله أن يظهر لأصحابه ما أوحى الله إليه فى واقعة الجن وفيه فوائد:

١ - أن يعرفوا بذلك أنه عليه السلام كما بعث إلى الإنس فقد بعث إلى الجن.

٢ - أن تعلم قريش أن الجن مع تمردهم لما سمعوا القرآن عرفوا إعجازه فآمنوا بالرسول ﷺ.

٣ - أن يعلم القوم أن الجن مكلفون كالإنس.

٤ - أن نعلم أن الجن يستمعون كلامنا ويفهمون لغاتنا.

وأقول:

إن السحر المعروف قديما لا يختلف كثيرا عن جلسات تحضير الأرواح فلعلها تكون إحدى حلقات السحر التطورية.. فما أشبه الليلة بالبارحة! وما

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ٣٠ ص ١٥٣.

يدريك أن الاتصال بطريقة (القرع) «طق، طق.. طق» يدل على أن الطارق هو روح قريبك أو صديقك؟!.

فبوسع أى روح شيطانى أن يحدث هذه القرعات؟!.

ومن يضمن لنا أن المتحدث هو روح الميت فهل لنا سابقة معرفة بالروح حتى نتأكد أنها هى التى كانت موجودة فى الدنيا قبل الموت؟!

إنهم يقولون إنها تقدم عين الخط الذى ألفناه فى كتابة المرحوم.. فهل نسى هؤلاء أن الحياة تعج بمن يتفننون فى تزوير الخط؟ أفتعجز الجن عن مثل تلك المحاولة؟.

إن الروح تخبر عن أشياء مفقودة وتكشف عن أسرار مكتومة وتصرح بتفاصيل قصة حياة المرحوم وترويها بصوته.. نعم يمكن أن نسلم بوقوع كل ذلك ومع هذا لاينهض دليلا على مناجاة الموتى وتحضير أرواحهم فلعل روحًا خبيثا يعبث بعقول الناس ﴿ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولوشاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون﴾[١].

ولنعلم أن هذه الأخبار كلها ليست من الغيب فى شيء فهى إخبار عن واقع محسوس لهم فإنهم يروننا من حيث لا نراهم.

والغيب كله لله ﴿فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول﴾ والجن لا تعرف الغيب بنص قوله تعالى: ﴿فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين﴾[٢].

وإلى الذين يتساءلون هل للسحر حقيقة أم لا ؟ ليتخذوا من فرض حقيقته ذريعة لتبرير ماهم فيه من شر وفساد.. أقول لهم أولى لكم أن تسألوا: ما حكم الله فيه؟

---

(١) سورة الأنعام آية ١٣٧.

(٢) سورة سبأ آية ١٤.

عن مالك[١]: الساحر كافر يقتل بالسحر ولا يستتاب بل يتحتم قتله كالزنديق، قال عياض وبقول مالك قال أحمد وجماعة من الصحابة والتابعين».

وقد قرنه الرسول ﷺ بالشرك وجعله من الموبقات فقال: اجتنبوا السبع الموبقات قالوا يا رسول الله ﷺ وما هن؟.

قال: «الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات» رواه البخارى.

وقد حذرنا الرسول ﷺ من اللجوء إلى هذا الطريق ولو لمجرد السؤال فقال: من أتى عرافا فسأله عن شىء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة» رواه مسلم.

فإن تجاوزنا السؤال إلى الاعتقاد صدق فينا قول الصادق المصدوق ﷺ: من أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد برئ مما أنزل على محمد ﷺ» رواه أبو داود.

وإليك هذه القصة الطريفة[٢]:

قيل لعلى كرم الله وجهه لما أراد لقاء الخوارج: لا تلقهم والقمر فى العقرب.؟! فقال: وأين قمرهم؟!.

وقال لمن نهاه عن السير فى الساعة التى سار فيها:

ما كان لمحمد ﷺ منجم ولالنا من بعده فمن صدقك فى هذا القول لم آمن عليه أن يكون اتخذ من دون الله ندا أو ضدا، اللهم لا طير إلا طيرك ولاخير إلا خيرك.. ثم قال: نكذبك ونخالفك ونسير فى الساعة التى تنهانا عنها.

ثم أقبل على الناس وقال: إياكم وتعلم النجوم إلا ما تهتدون به فى

(١) فتح البارى لابن حجر العسقلانى جـ ١٢ ص ٣٣٥.

(٢) السراج المنير للخطيب الشربينى جـ ٤ ص ٣٣٠.

ظلمات البر والبحر، وإنما المنجم كالكافر والكافر فى النار، والمنجم كالساحر والساحر فى النار، والله لئن بلغنى أنك تنظر فى النجوم أو تعمل بها لأخلدنك فى الحبس ما بقيت ولأحرمنك الطعام ما كان لى سلطان..

ثم سافر على كرم الله وجهه فى الساعة التى نهاه عنها فقتلهم وانتصر عليهم.

ثالثًا: إن القائمين على أمر تحضير الأرواح أصابع لحركة ماسونية تسعى لتدمير الأخلاق، واقتلاع العقيدة ونزع الولاء للدين الحق..

وما الادعاء بأن تحضير الأرواح يقضى على المادية والإلحاد إلا تغرير وخداع، فهى تؤكد الفلسفات المادية بطريقة غير مباشرة حين تقدم هذه الدلائل الساذجة والخرافة الحمقاء..

إن أرباب حلقات تحضير الأرواح من أئمة الكفر، فكثير منهم من الكتاب والصحفيين الذين تستهويهم الخيالات الجامحة والرمزية الأدبية، وأحدهم وهو «هانن سوافر». كان نقيبًا للصحفيين فى بريطانيا، وانضم إلى حلقات تحضير الأرواح عام ١٩٢٤م، وأخذ يعقد جلسات دورية فى منزله، إلى أن قضى نحبه، فزعم له أصحابه أنه مازال يتحدث من عالم الروح، ومن أهم كتبه كتاب «حكمة سيلفر بيرش»[١]..

وما حكمة «سيلفر بيرش» إلا قانون الماسونية..

فالروحية الحديثة لا تتبع دينا خاصًا:

«فنحن لا نقارن الروحية بأى دين من الأديان، لأنها المصدر الذى يقف من وراء الأديان والفكر جميعًا، لأنها نفس قانون الوجود والحياة..»

«إن إخلاصنا ليس لعقيدة، ليس لكتاب، ليس لمذهب.. ولكن لروح الحياة الأعظم ولقوانينه الطبيعية الخالدة..».

والروحية الحديثة تستخدم أساليب الكهان فيقول «سيلفر برش» عن

---

(١) الروح والخلود بين العلم والفلسفة - عبد العزيز جادو - إقرأ ع ٣٢٦ ص ١٥٣، ص ١٦٠.

نفسه: «إنى صوت منبعث من السماء، ينادى أهل الأرض، أن آمنوا بالله، ولا يشغلكم البحث عن اسمي الحقيقى، وعن كيف كان حالى عندما كنت بالأرض، بل اهتموا بما أحمله إليكم من تعاليم، تضىء لكم سواء السبيل وتهديكم الصراط المستقيم».

هكذا بكل سذاجة بلهاء يدعونا إلى أن نستسلم للخرافة دون وعى بحقيقته وإدراك لطبيعته..!!.

والروحية الحديثة تزعم لنفسها هيمنة على الملأ الأعلى وسلطانًا فى الأرض فيقول سيلفر بيرش:

«إنى أحمل رسالة هداية من السماء، أعد خطواتها بدقة عباد مخلصون لله عز وجل، تجمعوا فى ملكوته الأعلى، متخذين للرسالة الروحية وسيلة لهداية أهل الأرض.

إنى أحمل إليكم رسالتهم هذه ، مستخدمًا الجسم الأثيرى لذلك الرجل الهندى الأحمر، الذى كثيرًا ما رأيتموه فى جلساتكم، والذى أتخذ لفظ «سيلفر بيرش» اسما رمزيًا له..

وتأتى داهية الدواهى فيزعم هذا الدعى أنه قبس من نور الله فيقول: «كثير من الناس يحب أو يريد أن يعرف من هو سيلفر بيرش؟ قولوا لهم إنى عبد من عباد الله، أى روح من روح أى قبس من نور الله».

«إن دورى هو دور سفير يبلغ الرسالة، ولقد جاهدت لأكون أمينًا فى إيصال ما حملته وما أعطى لى؛ على أساس الجهاز الذى عندى بالقدرة التى أكتسبتها، وإنى لا أريد إلا أن أكون دائمًا فى الخدمة».

هكذا أفصح الكفر عن دخائله..

إن الوحى قد انقطع بعد محمد ﷺ..

لكن أدعياء الروحية المزعومة يسترقون السمع، ويخدعون البشر، ويهزأون بالعقل الإنسانى..

ونلمح جانبًا آخر يؤكد ماسونية هذا الاتجاه، هو أن أفكار هؤلاء شتات مذاهب وأديان، لا تجمعها وحدة، ولا تلتقى على وضوح عقدى، فالوسيط المختار فى حكمة سيلفر بيرش طالع فى الأديان والفلسفات القديمة والحديثة فلم يجد فيها غناءه وسكينته فطلقها واعتبر نفسه ملحدا لا يدين بفكر ولا يطمئن لدين حتى إذا ما جاءته الحكمة المزعومة فى الروحية الحديثة اقتنع بصدقها..!!

وتتحدث الروحية المزعومة عن عيس الناصرى بأنه ما زال يعمل وما زال مشغولاً فى تلك الرسالة الإلهية التى جاءت به يومًا إلى الأرض، وتقول هذه الروحية إن كلمات المسيح «ها أنا معكم دائمًا حتى انقضاء الدهر» يكون لها معنى بالنسبة لهم لا يمكن للكنيسة أن تفسره..!!

أى أنهم خلفاء المسيح فى عالم اليوم والغد..!!

ويتحدث. «آرثر كونان دويل» البريطانى بعد موته على لسان الوسيطة «جريس كوك» مؤكدًا وحدة الوجود فيقول[1]:

«أنا لا أحب أن أتكلم الآن بلفظ «أنا»، لقد أصبحت «نحن» بدلا منها، وهذا هو شعور كل من يدخل إلى مملكة الحياة الروحية، حيث لا انفصال بينه وبين إخوانه، ولا بينه وبين الله...»

ويقول «سيلفر بيرش» الدعى:

«تذكروا دائمًا أنكم فى الله، وأن الله فيكم...»

وتتبنى الروحية الحديثة قاعدة أساسية من فلسفة المذهب المادى، وهى أن المادة لا تفنى ولا تستحدث، وترتب عليها قضية أخرى، هى أن الطاقة والحياة والعقل لا يفنى ولا يستحدث كذلك.. فالحياة من قبل ومن بعد، والوجود سابق ولاحق..

فأى فرق بين الإيمان والكفر إذا التقيا على قدم العالم والحياة والأحياء؟ اوتؤمن الروحية الحديثة بالتناسخ فالروح يستعمل جسمًا حيًا

(١) الروح والخلود ص ٤٨.

لغرض نوعى خاص هو تنمية نفسها لكى تتطور روحيًا، وذلك عن طريق سلسلة من الوجودات الأرضية.. وتقول هذه الروحية إنه من الخطأ أن نظن أن روحًا جديدة تولد عند كل ولادة فيزيقية جديدة، فالجسم الفيزيقى يتطور بالتغير فى أشكال وأجسام مادية نباتية أو حيوانية، والروح اللافيزيقية تتطور بالعودة للتجسد..[١]

رابعًا: من التضليل الفكرى والخطيئة فى حق التاريخ أن يكتب أحد أنصار تحضير الأرواح عن دور المرأة فى الوساطة الروحية[٢]، ويستشهد على زعمه من نساء الجاهلية بفاطمة بنت مر الخثعمية التى أرادت عبد الله ابن عبد المطلب لنفسها فقال لها: أما الحرام فالمات دونه..

ومن نساء الإسلام رابعة العدوية وفاطمة النيسابورية أستاذة ذى النون المصرى، وفاطمة بنت المثنى الأشبيلية التى لازم خدمتها محيى الدين بن عربى، ويضع الكاتب هؤلاء فى بوتقة واحدة مع المشتغلات بالروحية فى أسبانيا وإنجلترا وفرنسا وغيرها.

والعجيب حقًا أنه لا رابطة تجمع بين هؤلاء وأولئك إلا وهم الخرافة وخرافة الوهم فى عقلية هذا الكاتب..

وإذا كان هو نفسه قدم تعريفًا للوساطة الروحية فقال:

هى موهبة تسمح لوسيط أن يسمح لكائن من العالم الآخر بأن يحتل جسده ليستعمله فى التحدث والعمل من خلاله، ودور وسيط الأرواح لا يعدو دور وسيط التنويم المغناطيسى، وكل الفارق هو أن الأخير يخضع لإرادة منوم لم يتخل عن جسده المادى بعد، أما الأول فيخضع لإرادة منوم قد تخلى عن جسده المادى بالوفاة![٣].

فما علاقة نسوة الجاهلية أو الإسلام بهذا التعريف الوهمى؟!

---

(١) راجع الروح والخلود ص ٩١.

(٢) عبد العزيز جادو فى الروح والخلود ص ١٣٧.

(٣) المرجع السابق ص ١١٦.

الباب الثانى

الروح فى اليوم الآخر

تمهيد..

الفصل الأول : المذهب المادى.
الفصل الثانى : مذهب الفلاسفة الإلهيين.
الفصل الثالث : التناسخية.
الفصل الرابع : مذهب المتكلمين.
الفصل الخامس : منهج القرآن فى إثبات البعث.

تمهيد

بدأت الإنسانية عهدها على ظهر هذه الأرض منذ هبوط آدم عليه السلام تحقيقا للوعد الإلهى «إنى جاعل فى الأرض خليفة».

وكان البيان الأول لخطة بناء الحياة قوله تعالى ﴿فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى، قال رب لم حشرتنى أعمى وقدكنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى، وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى[1]﴾.

ومن هذا البيان نستخلص الحقائق التالية:

١ – الإنسانية بدأت مؤمنة موحدة تلتزم الحق وتدعو إليه فقد نزل آدم عليه السلام مهديا مجتبى.

٢ – وعد الله لبنى الإنسان بأن يرسل لهم رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

٣ – العقيدة الواجبة تبدأ بالإيمان بالله واهب الوجود ومفيض الأرزاق، صاحب الملك والملكوت، وتنتهى بالإيمان باليوم الآخر حيث توفى فيه كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون... وبين المبدأ والمعاد هناك منهج حياة، يحقق للأحياء كرامة الدنيا وسعادة الآخرة.

من هذا المنطلق تواكب المسير فى الحياة، وارتفعت حرارة الإيمان وانخفضت، وآمن الناس وكفروا، وبين الحين والحين تظهر الهداية الإلهية على يدى رسول كريم توضح الحقيقة وتجليها.. وعلى مدار الرسالات الإلهية كانت

---

(١) سورة طه آية ١٢٣:١٢٧.

تلك الحقيقة هى هى من عهد آدم إلى خاتم النبيين محمد صلوات الله عليهم أجمعين:

إيمان بالله..

ومنهج حياة..

واستعداد ليوم الجزاء..

قالها نوح عليه السلام:

﴿إنى لكم نذير مبين، ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم[١]﴾.

وأعلنها إبراهيم الخليل أمام قومه:

﴿قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون، أنتم وآباؤكم الأقدمون، فإنهم عدو لى إلا رب العالمين، الذى خلقنى فهو يهدين، والذى هو يطعمنى ويسقين، وإذا مرضت فهو يشفين، والذى يميتنى ثم يحيين، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين﴾.[٢]

وصدع بها موسى وهارون لفرعون وقومه:

﴿قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى، إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى﴾.[٣]

ومن فوق جبل بمكة وقف محمد ﷺ ينادى على بطون قريش فلما حضروا قال لهم: لو أخبرتكم أن خيلا وراء هذا الوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقىّ ؟.

قالوا: نعم ما جربنا عليك كذبا قط.

قال فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ثم أعلنها القرآن:

---

(١) سورة هود آية ٢٥، ٢٦.

(٢) سورة الشعراء آية ٧٥:٨٣.

(٣) سورة طه آية ٤٧:٤٨.

﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد﴾[١].

هكذا كان الوحى الإلهى يقود خطى الناس على درب الهدى وسبيل الرشاد، ويقيمهم على جادة الطريق، ويثبت أقدامهم على الصراط السوى.

ولكن الناس - فى أزمان كثيرة - انحرف بهم الهوى، وتشعبت بهم الطرق، وسرت فيهم مذاهب بدعة وضلال.. غير أن الحقيقة التى بقيت ماثلة أمام الأذهان واعتنقتها معظم شعوب الأرض هى تلك الفطرة المركوزة فى النفس بأن الحياة لابد لها من واهب.. وأن الكون لابد له من مدبر.. وأن للإنسان حياة أخرى للحساب والجزاء.

هذا..

وعقيدة البعث - التى نبحثها هنا - تمثل فكرة الأمل فى قلب الإنسان.

فطلوع الفجر بعد ليل كالح - بعث جديد..

وقدوم الربيع بعد شتاء قارص - بعث جديد..

والإنسان فى يومه وليله بين حياة وبعث ﴿وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى﴾[٢].

والحياة تجمع بين الحق والباطل والعدل والظلم، فإذا لم يكن للمغلوب أمل يحيا به ويعيش عليه فى أنه سينتصر يوما وسيأخذ حقه حتما كان ذلك قضاء على وجود وقتلا لحياته... فما أقل الإنصاف فى دنيا الناس وما أكثر المظلومين فى سجون الطغاة.!!

وإذا لم يكن لذوى الحق والخير والفضيلة - أمل فى أن يحسب لهم هذا ويجازوا عليه انعدم الحافز على الخير وبطل الداعى إلى المعروف وكانت حياة تعسة مرذولة...

---

(١) سورة سبأ آية ٤٦.

(٢) سورة الأنعام آية ٦٠.

فلابد من حساب:

﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدًا بعيدا﴾[1].. فإما.. أن تكون هناك حياة أخرى وخلود.. أو لا تكون عدالة.

المذاهب الفلسفية والكلامية في البعث وحقيقته

باستعراض الآراء والمذاهب الواردة فى البعث وحقيقته كما حكاها كثير من العلماء أمثال الشريف الجرجانى فى شرح المواقف وسعد الدين التفتازانى فى المقاصد، والرازى فى الأربعين، وكما تظهر من القراءات العامة فى كتب الفلسفة، يمكن تلخيصها فيما يلى:

(أ) مذهب الفلاسفة الطبيعيين:

والقول عندهم أنه لا معاد أصلا:

(ب) مذاهب الفلاسفة الإلهيين:

والرأى عندهم إثبات المعاد الروحانى فقط.

(جـ) مذهب التناسخية:

وزعمهم أن الروح تنتقل من شخص لآخر ثوابا وعقابا أزلا وأبدا.

(د) مذهب المتكلمين:

وهم فريقان:

١ - الجمهور يرى أن البعث جسمانى فقط.

٢ - المحققون يرون أنه جسمانى وروحانى معا.

هذا وهناك زعم منسوب إلى «جالينوس» وهو التوقف فى أمر المعاد

---

(١) سورة آل عمران آية ٣٠.

الروحانى لتردده فى حقيقة النفس، وفنائها أو بقائها مع إنكار البعث الجسمانى قولا واحدا كرأى عامة الفلاسفة.

وهذا الرأى لا يعنينا لأنه فى حال إثباته سيلتقى مع الإلهيين وفى حال نفيه سيلتقى مع الطبعيين، ولنا مع كل وقفات إن شاء الله.

فإلى تفصيل هذه الآراء..وبيان الحق فيها.. وما توفيقى إلا بالله.

الفصل الأول

المذهب المادى

يقوم المذهب المادى على إنكار كل ما وراء الحس والتجربة المادية وقصر أربابه فكرهم واعتقادهم على التفسير المادى للحياة.

وقد مر الفكر المادى بمراحل عدة، وأطوار شتى من عهد طاليس وانكسيمانس وديمقريطس فى العصر اليونانى القديم، إلى معطلة العرب فى الجاهلية، وإلى كارل ماركس ونيتشه وسارتر وغيرهم فى العصر الحديث ولكل وجهة فى نشأة العالم وكيفية الحياة ومآلها.. إلا أنهم مجمعون على رفض الألوهية واليوم الآخر والنبوات ﴿فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين﴾ ويتلخص رأيهم فيما نحن بصدده – وهو البعث – فيما يلى:

أولا: الإنسان هو هذا الجسم المادى وعناصره التى يتركب منها وما ينشأ عنها من خواص ليست لأحد العناصر منفردا، وهو ما يسمى بالمزاج، وهو يفنى بالموت ولا يبقى إلا العناصر المتفرقة.

والفكر – هو أخص وظائف النفس – ليس إلا وظيفة عضوية للمخ لإنتاج الأفكار كما أن وظيفة المعدة هضم الطعام.

وكما قال مولسكوت الهولندى: (١٨٢٢ – ١٨٩٣ م) «لافكر بغير فسفور».

ثانيا: لا إله والكون مادة، فالحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان كذلك كان وكذلك يكون أزلا وأبدا وما اندثر لا يعود لاستحالة إعادة المعدوم.

ثالثا: الدين أفيون الشعوب يحرمها من طيبات الحياة ويبعدها عن

ملذاتها، والإيمان بالبعث مجرد وهم وحلم للمستضعفين فى الأرض يزكى منهم روح التواكل وتقبل الواقع والاستسلام للجبارين أصحاب السلطة.

* * *

هذه خلاصة المذهب المادى وهو - كما ترى - يعاند منطق العقل الراشد ويناقض صوت الفطرة السليمة.

وسنحاول أن نأتى على هذه الشبهات من القواعد ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيى عن بينة﴾ ومن أجل ذلك نركز على النقاط التالية

١ - إثبات الروح.
٢ - حقيقة الحقائق «وجود الله تعالى».
٣ - إمكان البعث.
٤ - حكمة البعث.
٥ - الدين والحضارة.

وهذا وقد تكلمنا بالتفصيل عن الروح فى الباب الأول.

أولا: حقيقة الحقائق

إن الكون بأجزائه وجزيئاته ينطق بلسان لاترد حجته بأن له واهبا أعطى كل شىء خلقه ثم هدى، والفطرة الإنسانية فى حال نقائها وبعدها عن غوائل السوء تلجأ إلى الذى فطرها فسواها، والإنسان إذا أظلم عليه السبيل أو هاله ليل أو جاءته ريح عاصف أو هاجه موج ثائر - رجع إلى صوت الفطرة وتضرع إلى الله وحده رجاء كشف الضر، فتتداركه يد العناية وتسبغ عليه من النعم ظاهرها وباطنها.. لكنه هو الإنسان الظلوم الجهول ما إن يستشعر بسطة جسم أو فضل نعمة حتى يقول: ﴿إنما أوتيته على علم عندى﴾ وصدق الله العظيم حيث يقول:

﴿قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين، قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون﴾[١].

إن الإلحاد لا يقوم على حجة وإنما ينشأ عن هوى طائش، وشهوة جامحة، وخبث دفين.. وقد يكون عن ارتجال وانسياق أو نتيجة ظروف تحيط بالشخص من فقر اجتماعى أو مرض نفسى أو أزمة عائلية.. وقديما تبرم الشعراء بالقضاء والقدر فقال أحدهم:

كم عالم عالم ضاقت مذاهبه وجاهل وجاهل تلقاه مرزوقا

هذا الذى ترك الأوهام حائرة وصير العالم النحرير زنديقا

ولو تعقل هذا القائل نظام الحياة وحكمة الوجود لانقلب صديقًا لا زنديقًا..

وهؤلاء الماديون لا يعللون الحياة ونشأتها والكون ووجوده إلا بالمصادفة أو الطبيعة ويقول أحدهم وهو «هكسلى»[٢]:

لو جلست ستة من القرود على آلات كاتبة وظلت تضرب على حروفها لملايين السنين فلا نستبعد أن نجد فى بعض الأوراق الأخيرة التى كتبوها قصيدة من قصائد شكسبير، فكذلك كان الكون الموجود الآن نتيجة لعمليات عمياء ظلت تدور فى المادة لبلايين السنين.

وهذا المثال يحمل دليل فساده كما يقول العقاد تعليقًا على مثال قريب منه[٣]:

«لقد فاتهم أنهم قدموا الفرض بوجود الحروف المتناسبة التى ترتبط بعلاقة اللفظ وينشأ عنها الكلام المفهوم، فإن وجود الفاء، والياء، واللام، والسين،

---

(١) سورة الأنعام آية ٦٣، ٦٤.

(٢) نقلا عن كتاب «الإسلام يتحدى» لوحيد الدين خان.

(٣) الله – ص ٢١٦.

والواو مثلا لا يكون قبل وجود كلمة أو كلمات تشتمل على هذه الحروف...

فمن أين لهم أن أجزاء المادة المتماثلة ترتبط بينها بعلاقة التشاكل أو التشكيل على منوال العلاقة التى بين الحروف الأبجدية؟!

ومن أين للمادة هذا التنويع فى الأجزاء؟!

ومن أين لهذا التنويع أن تكون فيه قابلية الاتحاد على وجه مفهوم؟!

وفاتهم أن الوصول إلى تنضيدة مفهومة منظومة لا يستلزم الوقوف عندها وتماسك الأجزاء عليها..

فلم تماسك النظام فى الكون بعد أن وجد مصادفة واتفاقًا ولم يسرع إليه الخلل وتنجم فيه الفوضى قبل أن ينتظم على نحو من الأنحاء؟!

وما الذى قرره وأمضاه وجعله مفضلا على الخلل والفوضى وهما مثله ونظيره فى كل احتمال؟!».

إن المجال العقلى فى النظر إلى الكون سمائه وأرضه، حيوانه وطيره، بره وبحره، ثمره وزرعه - كفيل بقيادة البشر ﴿حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ وجدير بإظهار حقيقة الحقائق:

﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير﴾[1].

وحينما سئل رائد الفضاء السوفيتى (جاجارين) عما شاهده فى رحلته الأولى حول الأرض قال: لقد شاهدت الأجرام السماوية والكواكب تدور فى نظام دقيق كأن قوة عليا تمسك بها وتهيمن عليها.

ذلك هو الشعور الفطرى الذى عبر عنه القرآن بقوله ﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليمًا غفورًا﴾.

---

(١) سورة الحج آية ٦٢.	(٢) سورة فاطر آية ٤١.

وما كاد (جاجارين) يصرح بذلك حتى استدعاه (خروشوف) رئيس الوزراء السوفيتى وذكره بشيوعيته فكيف ينطق بما يفهم منه الإيمان بالله.. فلم يلبث أن أعلن بعد ذلك أنه بحث عن الله فى كل مكان فى السماء فلم يجده..!!

وقد زار القاهرة خلال شهر يناير سنة ١٩٧٥ رائد الفضاء الأمريكى (جيمس أروين) قائد رحلة أبوللو ١٥ التى استغرقت ثلاثة عشر يوما من ٢٦ يوليو إلى ٧ أغسطس عام ١٩٧١ وقضى منها حوالى عشرين ساعة على سطح القمر فى سيارة خاصة..

وفى حوار صحفى معه نشر فى صحيفة أخبار اليوم (١٩٧٥/١/١١) قال:

لقد أدى نزولى على سطح القمر إلى زيادة إيمانى بالله وزادت العقيدة الدينية عمقًا فى نفسى..

فقيل له: ولكن جاجارين قال إنه بحث عن الله فى السماء فلم يجده؟!

فقال أروين: أنا لا أعرف إذا كان جاجارين قد صرح بذلك أم لا ولكنى أحب أن أوضح أن الإنسان لايمكن أن يرى الله بعينيه كما يرى سائر الكائنات.. وأنا أيضًا لم أر الله فى رحلتى من الأرض إلى القمر.. ولكنى شعرت به وازداد إيمانى بوجوده.. وبقدرته.. وبقوته.. فهذه الكواكب والنجوم التى تسبح فى الفضاء اللانهائى بنظام رائع، وبديع، ومحكم لا يمكن أن تكون قد وجدت تلقائيا أو بمحض الصدفة ولكن لابد من وجود قوة خارقة لا يبلغ مداها عقل الإنسان هى التى تتولى تنظيم حركة الكون وحركة الكواكب والنجوم فى الفضاء.. وهذه هى القوة الإلهية..

ثانيًا: إمكان البعث

إذا كان العلم الحديث قد وقف على كثير من حياة الإنسان ودخائله فإنه عاجز تمامًا عن إدراك ما بعد الحياة، وكل ما يقوله فيه فهو حدس وتخمين، يستوى فى ذلك من عاش قديمًا أو حديثًا.. وغاية ما يصل إليه العقل أو العلم لن يزيد على ما قاله قس بن ساعدة فى سوق عكاظ:

أيها الناس اجتمعوا واستمعوا وعوا.. فإن من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون؟! أرضوا فأقاموا؟! أم تركوا فناموا؟!

وقديمًا حاول بعض المفكرين - نفى عذاب القبر وسؤاله بوضع الزئبق على جسد الميت ليثبت أنه لا يتحرك؟

وحديثًا وضعوا آلات التسجيل داخل القبر لمحاولة استراق السمع، وكلها محاولات يائسة لا تدل إلا على ضمور العقل وضيق الأفق.. وحيث لا مجال للعلم ولا للعقل أن يستقل بمعرفة ما بعد الموت وحقيقة الأمر هناك فى عالم الغيب فما علينا - كما قلنا من قبل -[1] إلا أن نلقى السلم إلى كتاب الله وسنة رسوله نستوضح الخبر ونستجلى الحقيقة ما دمنا قد آمنا بالله وكمالاته الإلهية عن طريق البرهان القطعى وأنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق مؤيدا بالمعجزة التى تواترت جيلاً بعد جيل شاهدة على صدقه ونبوته وأنه لا ينطق عن الهوى..

وعلينا متى صح النقل - الإيمان بأمور سمعية أخبر بها الشارع وهى فى نفسها أمور ممكنة عقلاً لا تجمع بين متناقضات ولا تصادم أصلاً من أصول الاستدلال..

***

جاء رجل مشرك إلى الرسول ﷺ ومعه عظم قد بلى ورم فتته وذراه فى الهواء وقال يتحدى: يا محمد أترى أن الله يحيى هذه؟!

فقال الرسول بصوت الواثق: نعم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك النار..!!

ونزل قوله تعالى: ﴿وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قالَ من يحيى العظام وهى رميم، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم، الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون، أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم، إنما أمره إذا أراد

---

(١) راجع ص ١٢٣، ص ١٢٥ من الكتاب.

شيئًا أن يقول له كن فيكون، فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون﴾[1].

ولنا مع هذه الآيات الكريمة وقفات نجملها فيما يلى:

١ - إن الإعجاز الخلقى فى الإنسان يفوق كل تصور..

وما كان أجهل ذلك السائل حين قال من يحيى العظام وهى رميم وبين يديه جواب سؤاله، فبداية الإنسان سلالة من الأغذية تتحول إلى نطفة نتيجة عمل أجهزة دقيقة غاية الدقة ثم تصير إلى قطعة دم جامدة تعلق فى الرحم ذلك القرار المكين ثم تنقلب إلى قطعة لحم صغيرة قدر ما يمضغه الإنسان ثم تتحول إلى عظام ثم تكسى العظام باللحم ثم ينفخ فيه الروح فيكون خلقًا آخر مباينًا للنشأة الأولى..

فتبارك الله أحسن الخالقين..!!

إن جسم الإنسان عجيب التكوين فكم لديه من الأعضاء الداخلية والخارجية،؟!وكم فيه من الغدد والأغشية؟! وكم له من الأجهزة؟!

ومع التقدم الحثيث فى الكشف عن نواميس الكون فإن خفايا الإنسان وبواطن الحقيقة فيه ما زالت مغلقة أمام البحث العلمى الدؤوب..

٢ - إن الذى أبدع الإنسان وأحسن خلقه وعدل صورته ووهبه عجائب الخلق والتقدير - لا شك قادر أن يعيد ما بدأ وأن يبعث الموتى ويحيى العظام وهى رميم..

والممكن يستوى طرفا وجوده وعدمه ومتى توجهت الإرادة الإلهية إلى أحدهما فلابد كائن.. وما يقال من أن إعادة المعدوم مستحيلة فضرب من الأوهام والخيالات الكاذبة فالممكن لا ينقلب مستحيلاً، ولا أثر للأوقات فيما هو بالذات، ثم ما هو المعدوم الذى قالوا باستحالة إعادته؟!..

---

(١) سورة يس آية ٧٨: ٨٣.

إن كل ما يعترى الإنسان هو التفتت والتفرق، والمادة يمكن أن تتشكل ولا تفنى فالماء بالتسخين يصير بخارًا والبخار بالتبريد يصير ماء وهكذا فالله تعالى يفرق الأجزاء ويخرجها عن الصفة التى كانت عليها ثم يؤلف بينها مرة أخرى.

وقد قال تعالى: ﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ﴾[١] والقيامة ما هى سماء تنشقق وكواكب تنتثر وبحار تنفجر وقبور تتبعثر..

* * *

وإذا كان العلماء قد اختلفوا فى إعادة الأعراض فقال بعضهم - كما حكى صاحب المقاصد[٢] - يمتنع إعادتها مطلقًا لأن المعاد إنما يعاد معنى فيلزم قيام المعنى بالمعنى.

وقال الأكثرون منهم بامتناع إعادة الأعراض التى لا تبقى كالأصوات والإرادات لاختصاصها عندهم بالأوقات وقسموا الباقية إلى ما يكون مقدورًا للعبد وحكموا بأنه لا يجوز إعادتها لا للعبد ولا للرب وإلى ما لايكون مقدورا للعبد وجوزوا إعادتها..

أقول إن هذا الخلاف لم يعد له محل بعد التقدم العلمى الحديث فالأصوات تبقى فى الوجود لا تفنى ولا تتبدل ولا يعتريها أدنى تغيير...

والصوت يحدث موجات أثيرية تظل فى الهواء ويمكن التقاطها كما هو الحال فى الإذاعة بل «يدرس[٣] العلماء حاليًا محاولة استقبال إذاعة سابقة فأساس هذه النظرية هو نفس ما قامت عليه الإذاعة ويحاول العلماء استخدام أجهزة معينة تلتقط الأصوات الممعنة فى القدم وإذا عولجت هذه الأجهزة بحيث تعمل بأمواج معينة وأطوال محددة واهتزازات مقدرة فإنه يمكن التقاط أحاديث جماعات فى مكان محدد تمت منذ أزمنة معينة مهما كانت بعيدة...»

(١) سورة ق آية ٤.

(٢) المقاصد - تخريج الشيخ خميس ص ٨٠.

(٣) طريق إلى الله - للأستاذ عبد الرازق نوفل ص ١٣٦.

كذلك يؤكد العلم الحديث أن جميع الأعمال التى يباشرها الإنسان تصدر عنها اهتزازات حرارية تظل موجودة فى الفضاء تعكس صورة العمل، ومن الممكن تجميع هذه الصورة فى أى لحظة..

ويقول الأستاذ عبد الرازق نوفل[١].

لقد استمر العلماء فى أبحاثهم التى بدأوها منذ سنوات قليلة حول أثر العمل والحركة فى الوجود، ووصلت دراساتهم وتجاربهم إلى حقائق قاطعة وأدلة مادية وأصابهم النجاح إلى درجة كبيرة، وفى وقت قصير.

ولقد أصاب الناس العجب وأى عجب عندما نشرت الصحف صورة التقطها العلماء بأجهزة تصوير خاصة لمكان خال فظهرت فى الصورة سيارة كانت موجودة قبل التصوير بمدة تقرب من الساعة بل مما يثير الدهشة أكثر من ذلك أنه أمكن بملاحظة درجات لون السيارة معرفة درجة حرارتها أى السرعة التى كانت تسير بها، وما زالت الأبحاث مستمرة والدراسات متواصلة لعل العلماء يصلون بأبحاثهم هذه إلى تصوير حوادث وقعت فى أزمنة غابرة وبيان أعمال اعتقد الإنسان أن الزمن وقد مر عليها قد محاها..

كل هذا مما يقرب لنا المعنى الذى سجله القرآن الكريم فى قوله«هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إناكنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾[٢] وقوله سبحانه: ﴿ووجدوا ما عملوا حاضرًا ولا يظلم ربك أحدًا﴾[٣].

* * *

ومع التسليم الجدلى فإن الإنسان ليس مادة فقط.

وإنما هو روح وبها يتمايز عن الحيوان الأعجم، وهى مناط الإدراك وعليها مبنى الطاعة والعصيان فلا مانع من أن يكون المعاد مثل المبدأ لاعينه بأن يخلق الله تعالى بدنا تلابسه الروح ولهذا «يقال[٤] للشخص من الصبا إلى

(١) المرجع السابق.
(٢) سورة الجاثية آية ٢٩.
(٣) سورة الكهف آية ٤٩.
(٤) المقاصد - ص ٩٠.

الشيخوخة إنه هو بعينه وإن تبدلت الصور والهيئات بل وكثير من الآلات والأعضاء، ولا يقال لمن جنى فى الشباب فعوقب فى المشيب إنها عقوبة لغير الجانى».

٣ – وإلى هؤلاء الذين تتقاصر عقولهم عن إدراك حقية البعث وحقيقته وأن من أنشأ يمكن أن يعيد تسوق الآيات الكريمة توجيهين:

(أ) الشىء يحدث من نقيضه فالنار تخرج من الشجر الأخضر نتيجة احتكاك خاص فمن الأولى أن يحدث الشىء من ذاته ويعود الإنسان كما بدأ..

وقد قال العلماء إن هناك أنواعا من الشجر فيه هذه الخاصية، ولكن يمكن أن يكون العموم مرادا على أساس هذه الفكرة التالية:

دبب[1] طرف أحد الفروع حتى يصبح كالقلم الرصاص ثم احفر حفرة صغيرة فى جانب فرع آخر.. ضع طرف الفرع المدبب عموديا فى حفرة الفرع الآخر الأفقى ثم حرك الفرع الرأسى حركة دائرية سريعة بينما طرفه فى الحفرة وسوف تكتشف أن الاحتكاك أشعل الطرف المدبب.

وكانوا يشعلون – ومازالوا – السيجارة بهذه الطريقة فى الحبشة ويقولون سبحان: ﴿الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون﴾.

* * *

(ب) إن الإبداع الكونى والنواميس الطبيعية فى السماء والأرض تفيض بأسرار وحكم لا تتناهى..

إن عدد النجوم التى فى الكون لا يكاد يحصى ويقول أحد الباحثين – لو استطعنا أن نعد النجوم بسرعة (١٥٠٠) نجم فى الدقيقة لاستغرق عدنا للنجوم كلها (٧٠٠) سنة!!.

---

(١) صحيفة الجمهورية (١٩٧٢/١/٦).

وإذا علمنا أن لكل نجم مجموعة من الكواكب، وأن الشمس مثلاها تسعة كواكب فكم يا ترى يكون عدد الكواكب التابعة لهذه النجوم؟!.

ثم ما هى أحجام هذه الكواكب والنجوم مع العلم بأن حجم الكوكب الواحد يزيد آلاف بل ملايين المرات عن الأرض التى نعيش عليها؟!

وقد ثبت علميا أن بعض النجوم يصل ضوءها إلى الأرض فى ملايين السنين الضوئية...!!.

والسنة الضوئية تحسب هكذا:

(١٨٦) ألف ميل فى الثانية:

×٦٠ تضرب فى (٦٠) فنحصل على السرعة فى الدقيقة.

×٦٠ تضرب فى (٦٠) فنحصل على السرعة فى الساعة.

×٢٤ تضرب فى (٢٤) فنحصل على السرعة فى اليوم.

×٣٦٥ تضرب فى (٣٦٥) فنحصل على السرعة فى السنة.

فإذا ضربناها فى ملايين السنين كان عدد تصعب كتابته وإذا كتب فلا ينطق ولا نملك إلا أن نقول ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾.

فإذا اتجهنا إلى ما يحيط بالإنسان فى سمائه وأرضه من ليل ونهار وجبال وأنهار وزرع وثمار، وطيور وأنعام – نجد صوت الفطرة ينادى: أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم.. بلى وهو الخلاق العليم إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون.. فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون.

ثالثا: حكمة البعث

يقضى الإنسان حياته الموهوبة إلى أن يحين الأجل المسمى فينتقل من هذه الحياة لا تمنعه قوة ولا ترده حيلة ولايؤجله طب.. وتعجز الانسانية جمعاء وتقف حيرى أمام هذا الابتلاء الإلهى:

﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم، وأنتم حينئذ تنظرون، ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون، فلولا إن كنتم غير مدينين، ترجعونها إن كنتم صادقين﴾[١].

فهل تنتهى قصة الإنسانية بالقبر؟ إن هناك ضرورات تحتم أن يكون للإنسان غد ولأعماله ميزان.. ويمكن أن نجملها فيما يلى[٢]:

(أ) الجانب النفسى

إن لكل إنسان أمانى كثيرة لاتكلل بالنجاح فى حياته، وأنه يتمنى حياة أبدية ولكن الحياة التى أعطيت له تخضع لقانون الموت.. والعجيب أن الإنسان عندما يكون على أبواب حياة ناجحة عظيمة بعد ما كسب من العلم والمعرفة والخبرة والتجارب الثمينة حينئذ تداهمه دعوة الموت... ولقد أكدت احصائية عن تجار لندن الناجحين أن أمرهم يستقر فيما بين ٤٥- ٦٥ سنة من أعمارهم ثم يبدأون يربحون ما بين خمسة آلاف إلى عشرة آلاف جنية فى السنة، وفى ذلك الوقت الثمين فجأة تتوقف حركات قلوبهم ذات مساء أو ذات صباح فيرحلون إلى عالم مجهول..

ولا يوجد على ظهر الأرض من يفكر فى الغد غير الإنسان، ولا شك أننا قد نجد بعض الحيوانات تعمل لمستقبلها كالنمل الذى يدخر غذاءه للشتاء القادم، والطيور التى تصنع أعشاشا يسكنها أولادها بعد فقسهم ولكن هذا العمل لدى الحيوانات يعتبر غرزيا فهو صادر من غير شعور بالمسئولية، إنها لا تقوم بهذه الأعمال لقلقها من مشكلات الغد.

فالتفكير فى المستقبل يتطلب فكرا مدركا واعيا وهو من مميزات الإنسان فحسب.

فحياة الحيوانات هى حياة اليوم ولا توجد لديها فكرة الغد. ولكن حياة الإنسان وحده تقتضى غدًا.

---

(١) سورة الواقعة آية ٨٣:٨٧.
(٢) الإسلام يتحدى ص٩١ : ١٠٠ بتصرف.

(ب) الضرورة الأخلاقية

إن فطرة الإنسان تميز بين الخير والشر، والعدل والظلم.. ولكن الإنسان كثيرا ما يهدد هذه الفطرة ويظلم بنى جنسه، والعالم كله صورة من الاعتقالات والخطف والنهب والاتهامات الكاذبة والتجارة السياسية والدعايات الباطلة.. إن الحيوانات لا تظلم فصائلها فالأسد ليس فى الأسود أسدا، والنمر ليس فى العرين نمرا ولكن الإنسان أصبح يفترس إخوانه حتى الأقربين منهم مما لا يوجد له مثيل فى قانون الغابة.

وإن التاريخ الإنسانى – فى جزئه الأكبر – يفيض بقصص الظلم والفساد والعدوان... فهل خلق العالم ليكون مسرحًا للمآسى؟! ثم لا ينال الظالم والمظلوم جزاءهما؟!.

إن عالما من هذا القبيل إعلان فى حد ذاته عن أنه ناقص وهذا النقص فى ذاته يقتضى ما يكمله..

فإما أن يكون هناك خلود أو لا تكون عدالة..

(جـ) مشكلة السلوك:

ما هى كيفية إجبار الناس على سلوك طريق الحق؟ إن رهبة عقاب الدنيا لن تنجح فى قمع انحرافات الإنسان، ولن يفلح غير الباعث الداخلى للإنسان... وهذه ميزة غير متاحة إلا فى عقيدة الآخرة؛ تجعل الإنسان فى الظلام أو الضوء يفكر فى أنه لا بد من يوم للقاء الله وسوف يحاسبه حسابا عسيرا..

إن حاجتنا الملحة إلى الآخرة لتنظيم الحياة الدنيا وإقامتها على أسس عادلة – فى حد ذاتها – تأكيد بأن الآخرة من كبريات حقائق الكون.

وإذا كان «كانط» قد أنكر الألوهية بالعقل النظرى إلا أنه أكد ضرورتها كأساس لإقامة المبادئ الأخلاقية بالعقل العملى..

(د) الضرورة الكونية:

الكون بجميع أحزائه ينطق بوجود الصانع المبدع ووحدانيته وواسع علمه وعظيم حكمته.

فلابد من وجود علاقة بين الإله والإنسان.. فمتى ستظهر هذه العلاقة جليا؟ أما بالنسبة لهذه الحياة فمن الممكن الجزم بأن هذه العلاقة لم تظهر بعد فالرجل الملحد يصيح قائلا: إنى لاأخاف الله وقد لا يصاب بأذى بل قد يتسلم مقاليد الحكم..، أما الذين يبلغون رسالات الله فينالهم الكثير من الأذى والاضطهاد.. فلا مناص من الإيمان بالآخرة كنتيجة حتمية للإيمان بالله..

بعد هذا أستطيع أن أورد آية من كتاب الله فى كل جانب من الجوانب السابقة كتأكيد للمعنى الذى ساقه وحيد الدين خان:

(أ) قال الله تعالى: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا[١]﴾.

فهذا مما يؤكد الجانب النفسى لدى الإنسان، فإذا كان الموت سيحرمه من مال يكتنزه أو ولد يعتز به فإن هناك موعدا لنعيم لا يبلى فليكن أملك أيها الإنسان فيما هو أبقى.

(ب) قال الله سبحانه: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون، ليبين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين، إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾[٢] فإنكار هؤلاء للبعث إنما جهل منهم بمقتضى الحكمة وقصور عقلى عن إدراك الحقيقة فلابد من يوم تتجلى فيه الحقيقة.. وتتراءى للعالمين.

(جـ) قال الله سبحانه: ﴿إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس

---

(١) سورة الكهف آية ٤٦.

(٢) سورة النحل آية ٣٨ - ٤٠.

بما تسعى[١]﴾ فمحكمة العدل الإلهى لديها من الوثائق والبينات ما يجعل الناس يصرخون ﴿يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولاكبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولايظلم ربك أحدا﴾[٢].

(د) قال الله تعالى: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار، أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾[٣] فهذا الكون البديع له غاية يسعى إليها، وواهب الوجود له هو مدبر الأمر فيه وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه.. ولا يمكن فى العدل الإلهى أن يستوى من آمن بالله ومن كفر، فالدنيا دار ابتلاء لكن نعيم الآخرة خالص للمؤمنين..

رابعاً: الدين والحضارة

الإيمان بالله ليس دعوة إلى الانفراد عن الحياة والبعد عنها.. وإنما هو تحقيق للفضيلة والكرامة فى مجتمع البشر، وتخليص لأفراده من ذل العبودية الوضيعة لصنم أوطاغوت، وإزكاء لمثل رفعية تحفظ لهم قرائحهم الإنسانية ووجودهم الروحى والمادى معا، مما يؤهلهم للسير فى هذه الحياة على هدى وبصيرة بطيب العمل وقويم السلوك عمارة للأرض وزادا للسماء...

ويمكن تصور إشراقات الإيمان على الجنس البشرى، وأثره فى قيادة القافلة البشرية إلى حيث القيمة والقمة من ثلاثة مواقع نوجزها فيما يلى:

(أ) الفرد:

المؤمن – كما أراده الله – تجسيد لكل معانى الشرف والنبل وهو مثل حى يمتزج فيه السمو الروحى بالشعور الإنسانى فيستروح بقدس الله ويتصل بمصدر الكمال والجمال ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾.

(١) سورة طه آية ١٥.
(٢) سورة الكهف آية ٤٩.
(٣) سورة ص آية ٢٧، ٢٨.

وعلى العكس من ذلك نجد الإنسان الذى يهوى إلى الأرض يستلهم وجهته ممن عليها بما ينطوى عليه من ضعف فى الإدراك والسعى، وضعف فى العلم والإحاطة، وضعف فى القدرة والإرادة ﴿وخلق الإنسان ضعيفا﴾.

ثم إن المؤمن عصى على القلق بعيد عن أمراض النفس يستشعر روعة الحق، ويعيش مع من حوله فى جو تسوده نسمات السعادة وتحوطه بسمات العزة بلا نفاق أورياء وبلا كيد أودهاء ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[١].

ومن هنا يتغلل الإيمان فى نفس المؤمن فيسمو به على كل المعوقات وينطلق به من فوق كل المثبطات... فهو يوقن أنه لو اجتمع أهل السموات والأرض على أن ينفعوه بشىء لن ينفعوه إلا بشىء قد كتبه الله له ولو اجتمعوا على أن يضروه لن يضروه إلا بشىء قد كتبه الله عليه.

ولهذا فهو يلتزم منهج الحق فى نفسه ومنهج النصح لمجتمعه لا يخشى فى الله لومة لائم ويتمثل قول الرسول ﷺ «إن روح القدس نفث فى روعى أن نفسا لن تموت حتى تستوفى أجلها ورزقها».

إن النفس المؤمنة تسارع إلى الخير بمقتضى فطرتها.. وإن النفس الملحدة تساق من ظاهرها برهبة السوط وعين القانون، ومتى أخطأ السوط أو غفل القانون فهناك مجالات رحبة من فوضى الأخلاق والمعاملات وصراع الطبقات وغلبة الأقوياء وسريان قانون الغاب.

(ب) الحس الاجتماعى:

يتحقق خير المجتمع بمدى ما يتأصل فيه من معانى الأخوة وقرابة الرحم وكرامة الإنسان والتعاون التام.

والإيمان - وحده - هو الذى ينتظم هذه المعانى وينسق بينها ويقدمها فى

---

(١) سورة الرعد آية ٢٨.

أحسن صورة وأجلاها فهو يسعى إلى تربية النفس وتأصيل مبادىء الخير فيها، واستحثاثها غيرة على الحق لا تعرف الملق وخدمة للآخرين فى السر والعلن لا يشوبها من ولا أذى، ونصرة للضعفاء وذوى الحاجات لا تعرف خورا أو تفريطا. قال تعالى: ﴿لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرًا عظيما﴾.[١]

فالحس الاجتماعى المؤمن غير متأثر بالعاجل من المنافع بل يولى وجهه شطر غايات أرحب ألا وهى ما يفهم من قوله تعالى: ﴿إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولا شكورا﴾[٢].

ولدينا نموذج تطبيقى فريد عندما آخى الرسول صلوات الله عليه بين المهاجرين والأنصار ولم تكن بينهم وشيجة قربى أو صلة رحم، وشارك المهاجر الأنصارى فى ماله يقتسمه معه عن طيب خاطر تحقيقا للأصل القرآنى ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾[٣] تلك الأخوة القائمة على المحبة لله والمحبة فى الله فى إطار عزة الإيمان ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾[٤].

(جـ) حضارة الأمة:

إن أمة تتكون لبناتها من أفراد يمثلون الفضيلة فى أرقى صورها، ويسود مجتمعها حس اجتماعى مؤمن، ويقودها منهج للإصلاح يهدى للتى هى أقوم وتسير بخطى ثابتة فى كفالة العقل الرشيد - إن أمة هذا شأنها - هى بلا ريب من الإنسانية ذروتها ومن الحضارة قمتها ومن التقدم سنامه ومن الخير جماعه.

ويوم أن عرف المسلمون طريقهم إلى كتاب الله واستلهموه رشدهم قادهم إلى أمة من التاريخ غرته ومن الزمان ربيعه وأبدعوا حضارة شملت العالم من

---

(١) سورة النساء آية ١١٤.

(٢) سورة الانسان آية٩.

(٣) سورة الحجرات آية١٠.

(٤) سورة المنافقون آية٨.

أقصاه إلى أقصاه، وحفظت للإنسانية قرائحها وجاءت عليها باسمى ما ترنو إليه فى العلم والأدب.. فى الأخلاق والدين .. فى الحضارة والنهضة. وكانت مراكز حضارة الإيمان فى الأندلس وصقلية والقاهرة ودمشق وبغداد مشاعل أضاءت الطريق للحضارة الحديثة.

وما يقال من أن الدين والعلم نقيضان فتلك أسطورة تكونت منذ عصر النهضة فى أوربا بعد أن قاسى البحث العلمى من عوامل التدمير ومعاول الهدم على أيدى رجال الكنيسة الذين أزهقوا الأرواح ونكلوا بالعلماء فى وحشية قاسية باسم الكنيسة والمسيحية.. وحسب القارئ لهذه الفترة أن يصدم بصكوك الغفران ومحاكم التفتيش ليرى كيف كانت الكنيسة حجر عثرة فى سبيل التقدم الإنسانى.

ومن هنا انطلق الباحثون فى شبه بلبلة فكرية إلى إنكار مباحث الألوهية والقول بأن الكون كله يقوم وحده.

غير أن الحقيقة الضائعة هنا أن هؤلاء لم يفرقوا بين الدين كرسالة إلهية ورجال الكنيسة كبشر فتكونت عقدة نفسية لدى الباحثين استحكمت حلقاتها، وبعد أن تحطمت الكنيسة وسقطت أغلالها انحلت العقدة وظهرت الحقيقة التى لامرية فيها وهى أن الكون لابد له من مبدع...

وأن الحياة لابد لها من واهب... ونطق بها باحثون من جميع التخصصات العلمية[١].

وبهذا يظهر أن قضية الصراع بين الدين والعلم هى قضية مسيحية فى نشأتها وهى خاصة بزمان ومكان معين، ولايجوز أن يتناقلها غرٌّ ليلصقها بالإسلام أو المسلمين فقد كان التعليم فى المسجد يتصدر للتدريس فيه الفقيه والمتكلم والفيلسوف والفلكى والمحدث والنحوى.. إلخ فى جو يسوده الإقناع

---

(١) راجع كتاب «الله يتجلى فى عصر العلم» تأليف نخبة من علماء أمريكا ترجمة د. الدمرداش سرحان وكتاب «العلم يدعو للإيمان» تأليف كريسى موريسون ترجمة الأستاذ محمود صالح الفلكى.

والاقتناع، وتعلو فيه الحجة وينتصر لذى البرهان حتى لقد كان واصل بن عطاء شيخ المعتزلة يقرر مذهبه وإلى جواره فى المسجد الحسن البصرى شيخ أهل السنة.

وما يقال من أن الفكر قد صودر فى المحيط الإسلامى كما هو الحال مع الحلاج وابن رشد وابن خلدون وغيرهم فإن ذلك لم يكن لأجل فكره ورأيه فى ذاته بل كان سياسة مردها إلى الوشاية لدى الحكام أو محاولة قلب نظام الحكم أوالتعالى على الخليفة كما روى أن ابن رشد كان إذا تكلم مع الخليفة يقول له: تسمع يا أخى[1].

وما أعدم الحلاج لرأيه فقد قال به غيره وما أصيب بسوء وإنما الذى ساقه إلى حتفه صلات سرية تجمعه بالقرامطة أعداء الخلافة الألداء.

وما كان ابن خلدون يوم دخل السجن متهما بزيغ عقيدة أو انحراف فكر وإنما هى التقلبات السياسية التى عاصرها ومخاطر الاشتغال بالسياسة التى كابدها.

ومع التسليم الجدلى فإن الأفكار التى صودرت لم تكن بحثا علميًا تجريبيا - كما هو الحال فى أوربا - بل كانت بحثا نظريا تختلف فيه وجهات النظر إلى اليوم وإلى الغد بعده لأن الفلسفات النظرية عموما محاولات شخصية لفهم الحياة قد تصلح وقد تفشل ولا نعلم لها استقرارا... ولهذا يروى أن أمراء الأندلس حينما أمروا بإحراق كتب الفلسفة استثنوا منها الطب والرياضة..

وبعد - فالإيمان منطق ... يصحح المسيرة الفكرية للبشر، والإيمان فضيلة.. يسمو ببنى البشر إلى حيث القيمة والقمة، والإيمان حضارة... تسير بخطى حثيثة فى كفالة العقل الراشد وتحت أطياف الوحى الأمين..

وبهذا نكون قد انتهينا من المذهب المادى وأتينا عليه من القواعد بإيجاز مؤد للغرض واف به إن شاء الله.

---

(١) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة جـ ٢ ص ٧٧.

الفصل الثانى

مذهب الفلاسفة الإلهيين

من هم الفلاسفة الإلهيون؟

عرفهم الشهرستانى[1]:

بأنهم قوم لهم نوع تحصيل قد ترقى عن المحسوس وأثبت المعقول لكنهم لايقولون بحدود وأحكام وشريعة وإسلام، ويظنون أنهم إذا حصلوا المعقول وأثبتوا للعالم مبدأ ومعادا وصلوا إلى الكمال المطلوب من جنسه فتكون سعادته على قدر إحاطته وعلمه وشقاوته بقدر سفاهته وجهله، وعقله هو المستبد بتحصيل هذه السعادة، ووصفه هو المستعد لقبول تلك الشقاوة.

وهؤلاء هم الفلاسفة الإلهيون قالوا الشرائع وأصحابها أمور مصلحية عامية والحدود لهم والأحكام والحلال والحرام أمور وضعية، وأصحاب الشرائع رجال لهم حكم عملية، وربما يؤيدون من عند واهب الصور بإثبات أحكام ووضع حلال وحرام مصلحة للعباد وعمارة للبلاد، وما يخبرون عنه من الأمور الكائنة فى حال من أحوال عالم الروحانيين من الملائكة والعرش والكرسى واللوح والقلم فإنما هى أمور معقولة لهم قد عبروا عنها بصور خيالية جسمانية، وكذلك ما يخبرون به من أحوال المعاد من الجنة والنار، مثل قصور وأنهار وطيور وثمار فى الجنة فترغيبات للعوام بما تميل إليه فى طباعهم، ومثل سلاسل وأغلال وخزى ونكال فى النار فترهيبات للعوام بما تنزجر عنه طباعهم... وإلا ففى العالم العلوى لا يتصور أشكال جسمانية وصور جرمانية» اهـ.

---

(١) الملل والنحل - تحقيق محمد كيلانى جـ ٢ ص ٣.

ونقول إن هؤلاء الإلهيين يمثلهم فى الفكر اليونانى القديم سقراط وأفلاطون وأرسطو.

غير أن سقراط برز فى تحديد المفاهيم العقلية والمعانى الكلية والاهتمام بقيم الإنسان فى مواجهة السوفسطائيين ولذا قيل إن سقراط أول فيلسوف إنسانى وأول من أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض بمعنى أن الاهتمام الأول لديه هو البحث عن قيم الإنسان وفضائله ومفاهيمة العقلية.. وأما أرسطو فقد كان رأيه فى النفس غامضا وتناقض شراح أرسطو بين مغايرة النفس للبدن أم لا، وبين خلودها أوفنائها. ولسنا فى مقام التمحيص الآن وإنما نريد أن نقول: إن أفلاطون هو أكبر الفلاسفة الإلهيين القدامى وضوحًا فى رأيه ومذهبه المتكامل وأكثرهم تأثيرًا فى الفلسفة الإسلامية فى مباحث النفس خاصة ولذا سنعرض رأيه بشىء من التفصيل إن شاء الله.

وسنختار من بين الإسلاميين الشيخ الرئيس ابن سينا فهو علامة القوم كما يقول الشهرستانى وطريقته أدق ونظره إلى الحقائق أغوص «وكل الصيد فى جوف الفرا».

وقد أتى على رأى الفلاسفة من القواعد الإمام الغزالى فى كتابه «تهافت الفلاسفة» ثم كر عليه بالنقض الإمام ابن رشد فى كتابه «تهافت التهافت» ولذا سنحاول بتوفيق الله أن نلقى ضوءا على هذه الملحمة الفلسفية.

رأى أفلاطون

يكاد الباحثون أن يجمعوا على تسمية هذا الفيلسوف بأفلاطون الإلهى لأنه - كما يقول الدكتور محمد غلاب[1] - أول مؤله منهجى وضع الألوهية كنظرية فلسفية فى بلاد الاغريق بل إن تاريخ البرهنة الفلسفية على وجود الإله قد بدىء بعصر أفلاطون.

(١) مشكلة الألوهية ص ٣٣.

وقد قلت فى بداية البحث إن البعث مرتبط بالألوهية ارتباطا وثيقا.

ويلخص الشهرستانى رأى أفلاطون فيقول[٢]:

والعالم عنده عالمان: عالم العقل وفيه المثل العقلية والصور الروحانية، وعالم الحس وفيه الأشخاص الحسية والصور الجسمانية كالمرآة المجلوة التى تنطبع فيها صور المحسوسات فإن الصور فيها مثل الأشخاص وكذلك العنصر فى ذلك العالم مرآة لجميع صور هذا العالم يتمثل فيه جميع الصور كلها غير أن الفرق المنطبع فى المرآة الحسية صور خيالية ترى أنها موجودة تتحرك بحركة الشخص وليس فى الحقيقة كذلك، وأن المتمثل فى المرآة العقلية صور حقيقية روحانية هى موجودة بالفعل تحرك الأشخاص ولا تتحرك فنسبة الأشخاص إليها كنسبة الصور فى المرآة إلى الأشخاص فلها الوجود الدائم ولها الثبات القائم وهى تتمايز فى حقائقها تمايز الأشخاص فى ذواتها.. ثم قال: وإذا اتفقت العقلاء على أن هناك حسا ومحسوسا وعقلا ومعقولا وشاهدنا بالحس جميع المحسوسات وهى محدودة ومحصورة بالزمان والمكان فيجب أن نشاهد بالعقل جميع المعقولات وهى غير محدودة ومحصورة بالزمان والمكان فتكون مثلا عقلية» اهـ.

ونستطيع أن نجمل رأى أفلاطون فى البعث هكذا:

١ – النفس الإنسانية لها وجود متقدم على البدن فى عالم المثل وهى تحيط علما بكل مايجانسها فى هذا العالم.

٢ – النفس الإنسانية قديمة قدم عالم المثل الذى هو العالم الحقيقى وما العالم الحسى إلا ظل من آثاره وهو حادث.

٣ – المعرفة تذكر ما كان فى عالم المثل والجهل نسيان بسبب الكثافة المادية التى حلت فيها النفس.

---

(٢) الملل والنحل جـ ٢ ص ٨٩.

٤ - إن النفس كانت فى عالم الذكر - كما يحكى الشهرستانى - مغتبطة مبتهجة بعالمها وما فيه من الروح والبهجة والسرور فأهبطت إلى العالم حتى تدرك الجزئيات وتستفيد ما ليس لها بذاتها بواسطة القوى الحسية فسقطت رياشها قبل الهبوط فهبطت حتى يستوى ريشها وتطير إلى عالمها بأجنحة مستفادة من هذا العالم.

وظاهر من مقالة الشهرستانى هذه أن الهبوط كان لاستفادة أشياء جديدة من عالم الجزئيات ولكن الدكتور غلاب أورد نبذة من محاورة «فيدروس» نفهم منها أن الهبوط كان لعجزها عن اللحاق بمشاهدة الحقائق فيقول[1]: غير أن هذه النفوس جميعها أثناء تزاحمها على مشاهدة الحقائق يتصادم بعضها بالبعض الآخر فتفقد أجنحتها التى كانت تسمو بها فى عالم السماء فتهوى جميعا إلى الأرض وتحل فى أجسام بنى الإنسان.

٥ - البعث هو عودة الروح إلى عالمها بعد مفارقة البدن الذى هو من جملة المركبات التى مصيرها الانحلال والفناء.

وقد كان لهذه النظرية الأفلاطونية كبير الأثر فى الفلسفة الإسلامية وخاصة لدى المتصوفة.

---

(١) المعرفة عند مفكرى المسلمين ص ١٦٧.

رأى الفلسفة الإسلامية فى البعث كما يشرحه ابن سينا

١ - نشأة النفس:

راجع ص ٦٨ من الكتاب.

٢ - بقاء النفس:

بقاء النفس بعد موت الإنسان قضية متفق عليها بين المليين ولا خلاف بين المسلمين فى بقائها إلى النفخة الأولى ونعيمها أو عذابها فى القبر..

والمختار عند أهل الحق - كما يقول العلامة الباجورى[1] - هو ما قاله السبكى من خلود الروح وعدم فنائها لأن الأصل فى كل باق استمراره حتى يظهر ما يصرف عنه، والدليل على بقائها الاستصحاب فتكون من المستثنى فى قوله تعالى: ﴿ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون[2]﴾.

والفلاسفة مجمعون أيضا على بقاء النفس وخلودها حتى إن الغزالى نفسه - وهو الذى شاق الفلاسفة رأيهم - يقول به أيضا.

وندع ابن سينا يشرح لنا رأى الفلاسفة فيقول[3]: أعلم أن الجوهر الذى هو الإنسان فى الحقيقة لا يفنى بعد الموت ولايبلى بعد المفارقة عن البدن بل هو باق لبقاء خالقه تعالى وذلك لأن جوهره أقوى من جوهر

---

(١) حاشية الباجورى على الجوهرة.

(٢) الزمر آية ٦٨.

(٣) أحوال النفس ص ١٨٦.

البدن لأنه محرك هذا البـدن ومدبـره ومتصرف فيـه، والبدن منفصـل عنه تـابع لـه، فإذن لم يضـر مفارقتـه عن الأبدان وجـوده... ولأن النفس من مقولة الجوهر ومقـارنته مع البدن من مقـولة المضـاف، والإضافـة أضعف الأعراض، لأنه لا يتم وجودها بموضوعها بل يحتـاج إلى شيء آخر وهـو المضاف إليه، فكيف يبطل الجوهر القائم بنفسه ببطلان أضعف الأعـراض المحتاج إليه؟! ومثاله أن يكون مالكا لشيء متصرفا فيه فـإذا بطل ذلـك الشيء لم يبطل المالـك ببطلانـه، ولهذا فـإن الإنسان إذا نـام بطلت عنـه الحواس والإدراكات وصـار ملقى كالميت، فـالبدن النـائم في حالـة شبيهة بحال الموتى كما قال رسول الله ﷺ النوم أخو الموت؛ ثم إن الإنسـان في نومه يرى الأشياء ويسمعها بل يدرك الغيب في المنامـات الصادقـة بحيث لا يتيسر له في اليقظة فذلـك برهـان قاطـع على أن جـوهر النفس غـير محتاج إلى هذا البدن بل يضعف بمقارنة البدن ويتقوى بتعـطيله فإذا مـات البدن وخرب تخلص جوهر النفس عن جنس البدن.

٣ - الرأى في عودة البدن:

في كتاب «أحوال النفس» الذى يعد خلاصة الأبحاث النفسية لابن سينا، والتى ضمنها عدة كتب مثل الشفاء والنجاة والإشارات - فإننا نجده في الفصل الخامس عشر(من أحوال النفس)يتحدث عن السعادة والشقاوة للنفس بعد فراق البدن..

فإذا استطلعنا رأيه في السعادة البدنية نراه يفتتح هذا الفصل بقوله:

«يجب أن نعلم أن المعاد منه ما هو مقبول من الشرع ولا سبيل إلى إثباته إلا عن طريق الشريعة وتصديق خبر النبوة وهو الذى للبدن عند البعث، وخيرات البدن وشروره معلومة لا تحتاج إلى أن تعلم، وقد بسطت الشريعة الحقة التى أتانا بها سيدنا ومولانا ونبينا محمد ﷺ حال السعادة والشقاوة التى بحسب البدن؛ ومنه ما هو مدرك بالعقل والقياس البرهاني وقد صدقته النبوة

وهو عن السعادة والشقاوة البالغتان اللتان للأنفس إلا أن الأفهام تقصر عنها لما نوضح من العلل».

من هذا النص نفهم أن ابن سينا يعتقد أن البعث البدنى لا يثبت إلا بالشرع ولا مجال للعقل فيه بدليل قوله «ولا سبيل إلى إثباته إلا من طريق الشريعة».

وعندما تكلم عن البعث الروحانى وصفه بأنه قائم على البرهان العقلى وتصديق النبوة..

وحيث إن البعث البدنى بعيد عن المدخل العقلى وإن كان قد أتى به الشرع فهنا تظهر قضية كبيرة وهى قضية التأويل للنص الدينى، وهى قضية خطيرة فى الفلسفة الإسلامية وخاصة لدى ابن رشد وسنعرج عليها فيما بعد إن شاء الله.

فإذا استطردنا فى البحث مع ابن سينا عن السعادة والشقاوة نجده بالنسبة للبعث البدنى يؤكد هذه الحقائق:

١ – إن الحكماء الإلهيين لا يلتفتون إلى السعادة البدنية ولا يستعظمونها بجنب السعادة العقلية.

٢ – إن الهيئة البدنية مضادة لجوهر النفس، مؤذية لها وعائقة عن كمالها..

٣ – النفوس السعيدة تستشعر سعادتها بزوال البدن وفقد عائق المادة، والنفوس الشقية تستشعر شقاوتها بفراق البدن والانفصال التام عنه.

* * *

وفى هذا الفصل الذى استحوذ على صفحات كثيرة من رقم ١٢٧ – ١٤٠ لا نجد حديثاً عن البعث البدنى إلا الأربعة أسطر الأولى التى ذكرناها سابقاً..

وكل ما ذكر بعد – فهو شرح وتوضيح وتقريب للبعث الروحانى وكيفية

تصوره... بل كل ما فيه يناقض البعث البدنى ويؤكد عدم وجوده.

ومما يقطع الشك باليقين رسالة لابن سينا تسمى «رسالة أضحوية فى أمر المعاد».

ينكر فيها البعث الجسمانى إنكارا تامًا ويؤكد استحالته.

٤ - الأصول العامة لمعاد النفس:

قدم ابن سينا حديثه عن السعادة والشقاوة للنفس بالتركيز على أصول عامة يجب أن تعلم أولاً حتى يتسنى فهم مذهبهم فى السعادة والشقاوة.. وهذه الأصول العامة يمكن تلخيصها فيما يلى:

١ - إن لكل قوة نفسانية لذة وخيرًا يخصها وأذى وشرًا يخصها.. فمثلا لذة الشهوة أن يتأدى إليها كيفيات محسوسة من الحواس الخمسة، ولذة الغضب الظفر، ولذة الحفظ تذكر الأمور الموافقة الماضية؛ وأذى كل واحدة منها ما يضادها.

٢ - هذه القوى مراتبها فى الحقيقة مختلفة، فالذى كماله أفضل وأتم، والذى كماله أكثر، والذى كماله أدوم..

٣ - وجود الكمال والسعادة غير متوقف على تصور كيفيته ولاشعور لذائذه، وإنما الشوق إلى الكمال والسعادة هو المتوقف على الشعور بذلك مثل العنين فإنه متحقق أن للجماع لذة ولكنه لا يشتهيه ولا يحن نحوه ولا يتخيله، وكذلك حال الأكمه عند الصور الجميلة، والأصم عند الألحان المنتظمة.

٤ - إن الكمال قد يتيسر للمرء ولكن قد يؤثر ضده عليه لمانع مثل المريض يكره الطعم الحلو ويشتهى مر المذاق..

٥ - إن النفس قد تكون مكتسبة لضد ما هو كمالها ولا تحس به ولا تنفر عنه حتى إذا زال العائق تأذت كل الأذى ورجعت إلى غريزتها مثل الممرور

فربما لايحس بمرارة فمه إلى أن يصلح مزاجه وتتنقى أعضاؤه، فحينئذ ينفر عن الحال العارضة له..

هذه أصول عامة قدمها ابن سينا ليقيم عليها بناء تصوره للسعادة والشقاوة..

فبالنسبة للأصل الأول: سعادة النفس وكمالها أن تنقلب عالمًا عقليًا مرتسما فيها صورة الكل مبتدئا من مبدأ الكل وسالكًا إلى الجواهر الشريفة، وتشاهد الحسن المطلق والخير المطلق والجمال الحق..

وبالنسبة للأصل الثانى: فهذه المرتبة للنفس لا تتطاول إليها مرتبة أخرى بل لا نسبة لها بوجه من الوجوه..

وبالنسبة للأصل الثالث: فنحن لانحس بتلك السعادة لانغماسنا فى أبداننا ورذائلنا، ولا نحّن إليها اللهم إلا أن نكون قد خلعنا ربقة الشهوة والغضب وأخواتها عن أعناقنا، فحينئذ نطالع خيالاً طفيفًا ضعيفًا.

وبالنسبة للأصلين الرابع والخامس فإنا إذا انفصلنا عن البدن وكانت النفس قد تنبهت فى البدن لكمالها إلا أن اشتغالها به قد أنساها ذاتها ومعشوقها - فإنها تشعر بالبلاء العظيم بعد فراق هذا العائق..
وإن كانت القوة العقلية بلغت من النفس حدًا من الكمال يمكنها به إن فارقت البدن أن تستكمل سعادتها فإنها تشعر بلذة أجل من كل لذة وأشرف.

* * *

٥ - الطريق إلى السعادة:

إذا تساءلنا ما الطريق إلى السعادة؟ نجد الشيخ الرئيس يشرحه لنا فى رسالة خاصة[١] نستجلى منها الحقائق التالية:

---

(١) أحوال النفس - ص ١٩٦.

١ - تكمل السعادة للنفس بالعلم بالله والعمل لله أو بتعبير آخر التزكية العلمية والتزكية العملية.

٢ - التزكية العلمية تحصل بممارسة العلوم الحكمية النظرية فتحصل ملكة للنفس تتهيأ بها لاستحضار المعقولات كلها وتصير النفس كمرآة صقيلة تنطبع فيها صور الأشياء كما هى عليها من غير اعوجاج.

٣ - التزكية العملية تحصل بالمواظبة على الوظائف الشرعية والسنن الملية من العبادات البدنية والمالية والمركبة منهما فإن فى الوقوف عند مرضيات الشرع وحدوده والإقدام على امتثال أوامره - أثرًا نافعًا فى تطويع النفس الأمارة بالسوء للنفس الناطقة المطئنة.

٤ - إذا مارس الإنسان التزكية العلمية والعملية اعتدل مزاجه وكان أكثر استعدادًا لقبول الملكات الفاضلة وقبول الفيض الإلهى إلا أنه لايخلص من شوائب الأضداد، ومادامت النفس متعلقة بالبدن فلا تنكشف له المعقولات بأسرها وجملتها تمام الانكشاف.

٥ - عندما تنقطع علاقة النفس بالبدن بسبب الموت - والنفس قد اكتسبت الملكات الفاضلة العلمية والعملية - فقد زال المانع عن قبول الفيض الإلهى بالكلية- وهو علاقة التصرف فى البدن - فيقبل الفيض الإلهى وينكشف له ما كان محجوبًا عنه قبل المفارقة وتحصل المشابهة بالعقول المجردة..

٦ - مراتب النفوس فى السعادة أو الشقاوة:

أولًا: النفوس القدسية:[١]

وهى الكاملة بالعلم والحكمة والعمل الصالح، وهم من عناهم القرآن

---

(١) المصدر السابق ص ١٨٧ بتصرف.

بقوله: ﴿والسابقون السابقون أولئك المقربون﴾[١] ويلتحقون بعالم العقول ويتنزهون عن أن يقارنوا درن الأجسام ونفوس الأفلاك مع جلالة قدرها، وينجذبون إلى الأنوار الإلهية والملأ الأعلى انجذاب إبرة إلى جبل عظيم من المغناطيس وينادون من الملأ الأعلى ﴿يأيتها النفس المطمئنة، ارجعى إلى ربك راضية مرضية، فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى﴾[٢].

ثانيًا: أصحاب اليمين:

وهم فى المرتبة الوسطى يرتفعون عن عالم الاستحالة ويتصلون بنفوس الأفلاك ويتطهرون عن دنس عالم العناصر ويشاهدون النعيم الذى خلقه الله تعالى فى السموات من الحور العين وألوان الأطعمة اللذيذة وألحان الطيور التى تقصر أوصاف الواصفين عن ذكرها وشرحها كما قال عليه السلام حكاية عن ربه «أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» فهذه مرتبة المتوسطين من الناس ولا يبعد أن يتمادى أمرهم إلى أن يستعدوا للفوز بوصول الدرجة العليا فينغمسوا فى اللذات الحقيقية واصلين إلى السابقين بعد انقضاء دهور تأتى عليهم.

ثالثًا: أصحاب الشمال:

وهم النازلون فى المرتبة السفلى، والمنغمسون فى بحور الظلمات الطبيعية، المنتكسون فى قعر الأجرام العنصرية المنتحسون فى دار البوار، وهم الذين ﴿دعوا هنالك ثبورًا، لا تدعوا اليوم ثبورًا واحدا وادعوا ثبورًا كثيرًا﴾[٣]..

وفى موضع آخر من كتاب أحوال النفس تعرض ابن سينا لنفوس البُله والعامة فيقول[٤]:

أما النفوس البله التى لم تكتسب الشوق فإنها إذا فارقت البدن وكانت

---

(١) سورة الواقعة آية ١٠، ١١.

(٢) سورة الفجر آية ٢٧ : ٣٠.

(٣) سورة الفرقان آية ١٣، ١٤.

(٤) ص ١٣٨ بتصرف.

غير مكتسبة للهيئات البدنية الردية صارت إلى سعة من رحمة الله تعالى ونوع من الراحة.

وإن كانت مكتسبة للهيئة البدنية الردية وليس عندها هيئة غير ذلك ولا معنى يضاده وينافيه فتكون لا محالة ممنوة بشوقها إلى مقتضاها فتتعذب عذابًا شديدًا بفقد البدن ومقتضيات البدن من غير أن يحصل المشتاق إليه لأن آلة الذكر قد بطلت وخُلق التعلق بالبدن قد بقى.

أما النفوس العامة وهى التى تعتقد فى العاقبة اعتقادات مادية بقدر ما يمكن أن تخاطب به فيزعم ابن سينا أنهم إذا فارقوا البدن ولم يكن لهم معنى جاذب إلى الجهة التى هى فوقهم، لا كمال فيسعدوا تلك السعادة، ولا شوق كمال فيشقوا تلك الشقاوة، بل كل هيئاتهم النفسانية متوجهة نحو الأسفل، منجذبة إلى الأجسام - فتشاهد النفس جميع ماقيل لها فى الدنيا من أحوال القبر والبعث والخيرات الأخروية عن طريق التخيل بواسطة آلة من الأجرام السماوية.

أما الأنفس الردية فتتخيل العقاب المصور لها فى الدنيا كذلك..

ويزعم ابن سينا أن الصور الخيالية ليست تضعف عن الحسية بل تزداد عليها تأثيرًا أو صفاء كما يوجد فى المنام؛ وذلك أشد استقرارا من الموجودة فى المنام بحسب قلة العوائق وتجرد النفس وصفاء القابل.

شبهات المنكرين للمعاد الجسمانى
كما صورها الإمام الغزالى

رأى الغزالى فى الفلاسفة:

بمقياس الباحث النفسى وصف الغزالى الفلاسفة بأنهم قوم[1] تجملوا باعتقاد الكفر تحيزا إلى غمار الفضلاء بزعمهم، وانخراطا فى سلكهم وترفعا عن مسايرة الجماهير والدهماء، واستنكافا من القناعة بأديان الآباء ظنًا بأن إظهار التكايس فى النزاع عن تقليد الحق بالشروع فى تقليد الباطل جمال، وغفلة منهم عن أن الانتقال إلى تقليد عن تقليد حزق وخبال فأية رتبة فى عالم الله أخس من رتبة من يتجمل بترك الحق المعتقد تقليدا بالتسارع إلى قبول الباطل تصديقا (أى تقليدا) دون أن يقبله خبرًا وتحقيقا.

تحديد محل النزاع:

فى مقدمة «التهافت» حدد الغزالى الخلاف مع الفلاسفة فى ثلاثة أقسام نلخصها فيما يلى:

القسم الأول:

يرجع النزاع فيه إلى لفظ مجرد كتسميتهم صانع العالم - تعالى عن قولهم - جوهرا مع تفسيرهم الجوهر بأنه الموجود لافى موضوع ولم يريدوا بالجوهر المتحيز.

وقد رأى الغزالى عدم الخوض فى هذا القسم وهو يبحث عن العقائد وإنما يرجع البحث فيه إلى اللغة وإطلاقاتها وإلى الشرع وإجازته.

---

(١) تهافت الفلاسفة - تحقيق د. سليمان دنيا ص ٧٤.

القسم الثانى:

ما لا يصدم مذهبهم فيه أصلا من أصول الدين. وليس من ضرورة تصديق الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم منازعتهم فيه كقولهم إن الكسوف القمرى عبارة عن انمحاء ضوء القمر بتوسط الأرض بينه وبين الشمس.

وهذا الفن أيضا ليس يخوض الغزالى فى إبطاله إذ لايتعلق به غرض ومن ظن أن المناظرة فى إبطاله من الدين فقد جنى على الدين وضعف أمره.

القسم الثالث:

مايتعلق النزاع فيه بأصل من أصول الدين كالقول فى حدوث العالم وصفات الصانع وبيان حشر الأجساد فقد أنكروا ذلك فهذا الفن ونظائره، هو الذى ينبغى أن يظهر فساد مذهبهم فيه دون ما عداه.

أمانة الغزالى:

ليس هناك ريب فى أن الغزالى قد حمل على الفلسفة والفلاسفة حملة شعواء حيث حاربها بسلاحها الذى تعتمد عليه مما كان له كبير الأثر فى غروب شمسها فلم يأت بعد الغزالى فيلسوف مجدد، وكل من جاء فهو شارح أو مختصر لمؤلفات الشيخ الرئيس، وظل الأمر كذلك حتى صحت الفلسفة الإسلامية صحوة الموت على يد فيلسوف قرطبة أبى الوليد ابن رشد فى الأندلس.

ومع هذا العداء المستحكم فقد كان الغزالى أمينا فى نقل آراء خصومه دقيقا فى نسبتها لأصحابها، محايدًا فى عرض وجهة نظرهم.

ويسوق لنا الدكتور سليمان دنيا فى تقديمه لكتاب «التهافت» أنه خامره شعور نفسى مؤداه: أليس يجوز أن يدلس الغزالى على خصومه فيعرض أفكارهم فى صورة ركيكة مشوهة حتى يتأتى له ردها وإبطالها والتشنيع عليها؟!

ومما زاد الأمر ريبة فى نفس الدكتور سليمان دنيا أن الغزالى يتهم الفلاسفة بإنكار حشر الأجساد، والقول باستحالته مع أن ابن سينا – على حد تعبير الدكتور – يصرح بالبعث الجسمانى فى كتابيه النجاة والشفاء..

ثم يقول الدكتور سليمان دنيا[١]:
وهكذا تصورت الرجلين فى ذلكم الوقت.
أحدهما (ابن سينا) مضطرب متردد.
والآخر (الغزالى) مفتات متهجم.

ثم لبثت غير مطمئن إلى هذا التصوير إلى أن ساقت لى الصدفة مخطوطا صغيراً لابن سينا عنوانه «رسالة أضحوية فى أمر المعاد» فلما قرأته وجدته صريحا فى إنكار البعث الجسمانى ووجدته يشتمل على نفس الدليل الذى حكاه الغزالى فى التهافت على لسان الفلاسفة.

بعد هذا يحق لنا أن نساير الإمام الغزالى فى حكايته لشبهات المنكرين للمعاد الجسمانى، وسنعرضها إن شاء الله بتصرف فى التنظيم والتبويب ثم نحاول تمحيصها والتعقيب عليها.

والله المستعان وحده.

الشبهة الأولى

البعث الجسمانى موقوف على إعادة المعدوم، وما عدم لايعقل عوده واستئناف الخلق إيجاد لمثل ما كان لالعين ماكان، بل العود المفهوم هو الذى يفرض فيه بقاء شىء وتجدد شىء كما يقال عاد فلان إلى الإنعام أى أن المنعم باق وترك الإنعام ثم عاد إليه أى عاد إلى ماهو الأول بالجنس ولكن غيره بالعدد، فيكون عودا بالحقيقة إلى مثله لا إليه، ويقال: فلان عاد إلى البلد أى

(١) ص ٢٣.

بقى موجودا خارج البلد وقد كان له كون فى البلد فعاد إلى مثل ذلك.. فإن لم يكن شىء باقيا وشيئان متعددان متماثلان يتخللهما زمان لم يتم اسم العود.

الجواب:

إن المعدوم ممكن يستوى طرفا وجوده وعدمه وإلا لما وجد أولا ويستحيل - كما يقول صاحب المقاصد[١] كون الشىء ممكنا فى وقت ممتنعا فى وقت للقطع بأنه لا أثر للأوقات فيما هو بالذات، فالوجود الأول إن أفاده زيادة استعداد لقبول الوجود بناء على اكتساب ملكة الاتصاف بالفعل فقد صار قابليته للوجود ثانيا أقرب وإعادته على الفاعل أهون، وإن لم يفده زيادة استعداد فمعلوم بالضرورة أنه لا ينقص عما هو عليه بالذات من قابلية الوجود فى جميع الأوقات.

واتصاف الشىء بالوجود السابق واللاحق نظرا إلى وقتين وتخلل العدم بينهما لا ينافى اتحاده بالشخص كما أن الوجود قد تخلل بين العدم السابق واللاحق وهما سواء.. والوقت ليس من المشخصات فإننا قاطعون بأن هذا الكتاب هو بعينه الذى كان بالأمس حتى إن من زعم خلاف ذلك نسب إلى السفسطة - كما يقول صاحب المقاصد - وتغاير الاعتبارات والاضافات لا ينافى الوحدة الشخصية.

هذا وقد قلت سابقا فى الحديث عن المذهب المادى إن كل ما يعترى الإنسان هو التفتت والتفرق، والمادة تتشكل ولاتفنى فالله سبحانه يفرق الأجزاء ويخرجها عن الصفة التى كانت عليها ثم يؤلف بينها مرة أخرى[٢].

ومع التسليم الجدلى فإننا نؤمن بأن النفس باقية، والإنسان هو النفس بالحقيقة فتعاد إلى بدن سواء كان هو الأول بعينه أو مثلا له، ولا ضير فى ذلك

---

(١) ص ٨٠ تحقيق الشيخ خميس.

(٢) هناك خلاف بين المتكلمين القائلين بحشر الأجساد بأن ذلك إيجاد بعد الفناء أو جمع بعد تفرق الأجزاء وسنتعرض له إن شاء الله عند الحديث عن مذهب المتكلمين.

كما يقال أعد كلامك أى تلك الحروف بتآليفها وهيئاتها ومذهب أكثر المتكلمين يفيد أن المعاد مثل المبدأ لاعينه.

الشبهة الثانية

إن رد النفس إلى بدن إنسانى مثل الأول لاعينه هو قول بالتناسخ لأنه هو اشتغال النفس بعد خلاصها من البدن بتدبير بدن آخر غير البدن الأول... وما يدل على بطلان التناسخ يدل على بطلان هذا الرأى.

الجواب:

لابد من تحديد المفاهيم قبل الحكم... فما التناسخ؟ يقول الشهرستانى[١]: إن التناسخ هو أن تتكرر الأكوار والأدوار إلى ما لانهاية له، ويحدث فى كل دور مثل ما حدث فى الأول، والثواب والعقاب فى هذه الدار لا فى دار أخرى لا عمل فيها، والأعمال التى نحن فيها إنما هى أجز به على أعمال سلفت منا فى الأدوار الماضية، فالراحة والسرور والفرح والدعة التى نجدها هى مرتبة على أعمال البر التى سلفت منها فى الأدوار الماضية، والغم والحزن والضنك والكلفة التى نجدها هى مرتبة على أعمال للفجور التى سبقت منها وكذا كان فى الأول وكذا يكون فى الآخر.

هذا هو التناسخ..

أما التصوير الذى صورناه وهو عودة النفس إلى بدن مثل الأول فى اليوم الآخر لتنال ثوابها وعقابها على ما سلف منها فى الدنيا من غير تكليف جديد - ليس من التناسخ الباطل الذى صوره الشهرستانى فى شىء.

فإن سميتم هذا تناسخا فلا مشاحة فى الأسماء كما يقول الغزالى[٢] فما ورد

(١) الملل والنحل تحقيق الكيلانى جـ ٢ ص ٥٥.

(٢) تهافت الفلاسفة - تحقيق د. دنيا ص ٣٠٠.

الشرع به يجب تصديقه فليكن تناسخا ونحن إنما ننكر التناسخ فى هذا العالم وأما البعث فلا ننكره سمى تناسخا أو لم يسم تناسخا.

وقد ثبت علميا الآن أن الجسم الإنسانى يخضع لعملية تغيير مستمر بحيث يأتى عليه وقت لا تبقى فيه خلية قديمة لأن خلاياه قد تجددت كلها ومع هذا فلا يعد تناسخا بإجماع..!!

الشبهة الثالثة

المواد القابلة للكون والفساد متناهية، والأنفس المفارقة للأبدان غير متناهية، وقد تتداخل الأبدان بطريق التغذية وتتمايز النفوس.. فلا تفى الأبدان لو حشرت بعدد النفوس.

الجواب:

هذه الشبهة قائمة على أن العالم قديم بالنوع حادث بالشخص، فالنفوس نوع من أنواع العالم قديمة غير متناهية على زعمهم، والأبدان غير المتناهية تفتقر إلى امتداد غير متناه وقد قام البرهان على تناهى الأبعاد عند الفلاسفة القائلين بقدم العالم، وعلى هذا فمادة الأبدان لا تفى بعدد النفوس..

والقول بقدم العالم لم يقم عليه دليل عقلى قاطع، وكل ما فيه وهم وافتراض..

وقصة صدور العالم عن الله ممثلة فى العقول العشرة على رأى الفلاسفة هى اسطورة خرافية وثنية تلقفها الفلاسفة فى المحيط الإسلامى عن أساطير اليونان وأضفوا عليها من المسحة العقلية ما لايتناسب وجلال الله وكرامة العقل[1].

---

(١) راجع ص ٧٣ من الكتاب.

فالنفوس متناهية... وإن سلم أنها أكثر، فقدرة الله تعالى صالحة للخلق والإبداع ولا يعجز الله شىء فى الأرض ولا فى السماء وإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون.

الشبهة الرابعة

الإنسان المبعوث المحشور لا يمكن أن يتجدد بدنه دون أسباب وأطوار فأسبابه هو إلقاء النطفة فى رحم حتى يستمد من دم الطمث، وأطواره هى العلقة والمضغة ثم يكون جنينا ثم طفلا ثم شابا ثم كهلا وهكذا فانقلابه إنسانا دون تردده فى هذه الأسباب محال، فيكون البعث محالا.

الجواب:

إن ربط البعث بهذه الأسباب والأطوار تحكم لا دليل عليه، ونحن نؤمن بأن آدم عليه السلام قد خلق من غير هذه الأسباب والأطوار جميعا وأن عيسى عليه السلام قد مر بهذه الأطوار من غير الأسباب المألوفة، فمرجع الأمر كله إلى الفاعل المختار ﴿ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾.

ثم من أين لهم أن أسباب الوجود منحصرة فيما شاهدوه؟!.

ولم لا يجوز أن يكون هناك منهاج للإحياء غير ما هو مشاهد؟!

يقول الغزالى[1]:

لو خلق إنسان عاقلًا ابتداء وقيل له: إن هذه النطفة القذرة المتشابهة الأجزاء تنقسم أجزاؤها المتشابهة فى رحم آدمية إلى أعضاء مختلفة لحمية وعصبية وعظمية وعرقية وغضروفية وشحمية فيكون منها العين على سبع طبقات مختلفة فى المزاج، واللسان والأسنان على تفاوتها فى الرخاوة والصلابة

(١) تهافت الفلاسفة ص ٣٠٣.

مع تجاورهما وهلم جرًّا... إلى البدائع التى فى الفطرة - لكان إنكاره أشد من إنكار الملاحدة حيث قالوا: ﴿أإذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد﴾، وقد ورد فى بعض الأخبار أنه يغمر الأرض فى وقت البعث مطر، قطراته تشبه النطف وتختلط بالتراب.. فأى بعد فى أن يكون فى الأسباب الإلهية أمر يشبه ذلك ونحن لا نطلع عليه، ويقتضى ذلك انبعاث الأجساد واستعدادها لقبول النفوس المحشورة؟!

وهل لهذا الإنكار مستند إلا الاستبعاد المجرد؟!.

الشبهة الخامسة

الفعل الإلهى له مجرى واحد مضروب لا يتغير، لذلك قال تعالى: ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ فوجود الإنسان بطريق التوالد والتناسل أزلاً وأبدا، ومحال أن يحصل التبديل لسنة الله، لأن الفعل الإلهى يصدر عن المشيئة الإلهية، والمشيئة أزلية على سنن واحد لا يختلف بالإضافة إلى الأزمان..

الجواب:

إن مرجع الخلاف معهم هنا إلى نظرية السببية، والقول فيها أن الله سبحانه قد رتب الأسباب والمسببات ترتيبا عاديا يجوز تخلفه عند الإرادة الإلهية فالنار ليس من طبعها الإحراق فلا يمكن الكف عنه، والسكين ليس من طبعها القطع فلا يمكن المنع منه.. وليس هناك دليل على أن الأسباب هى الفاعلة وحدها إلا مشاهدة حصول الاحتراق مثلاً عند ملاقاة النار؛ وهذا لاينهض دليلاً على الفاعلية، فالموجود عند الشىء - كما يقول الغزالى - لايدل على أنه موجود به..

وقد تخرق العادة معجزة لنبى أو كرامة لولى.

وإرادة الله تعالى قديمة تخصص الممكن ببعض مايجوز عليه، ولا بعد فى العقل وضع ثلاثة أقسام[1]:

أن يكون الله تعالى موجودًا ولا عالم...

١ - أن يخلق العالم على النظام المشاهد..

٢ - ثم يستأنف نظامًا ثانيًا وهو الموعود به فى الجنة.

٣ - ثم يعدم الكل حتى لايبقى إلا الله تعالى وهو ممكن لولا أن الشرع قد ورد بأن الثواب والعقاب والجنة والنار لا آخر لها.

---

(١) المصدر السابق ص ٣٠٦.

دفاع فيلسوف قرطبة
ابن رشد

تمهيد:

انتهى الغزالى فى كتابه «تهافت الفلاسفة» إلى سؤال هام أورده فى خاتمته وهو:

فإن قال قائل قد فصلتم مذاهب هؤلاء أفتقطعون القول بتكفيرهم ووجوب القتل لمن يعتقد اعتقادهم؟!

قلنا: تكفيرهم لابد منه فى ثلاث مسائل: إحداها مسألة قدم العالم وقولهم إن الجواهر كلها قديمة، والثانية قولهم إن الله تعالى لايحيط علمًا بالجزئيات الحادثة من الأشخاص، والثالثة إنكارهم بعث الأجساد وحشرها،فهذه المسائل الثلاث لا تلائم الإسلام بوجه، ومعتقدها معتقد كذب الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه.

هكذا انتهى الغزالى فى موقفه مع الفلاسفه وهو موقف جد خطير من شأنه أن يزلزل أفكارا ويهدم صروحًا، ويقلب أفهامًا، ويطوى أعلامًا.

ومن هنا وقفت الفلسفة الإسلامية فى قفص الاتهام ليس فقط فى بعض آرائها بل فى كل آرائها فالأقسام التى ذكر الغزالى أنها لا تتعلق بالدين ولا تمس أصلاً من أصوله لم يخل دراستها من آفات القبول أو الرد..

فلابد إذن أن تدافع الفلسفة الإسلامية عن نفسها وتعطى حق توضيح آرائها، وقد قام بهذه المهمة خير قيام فيلسوف قرطبة أبو الوليد محمد ابن رشد فى كتابه «تهافت التهافت» الذى يقول فى مفتتحه:

فإن الغرض فى هذا القول أن نبين مراتب الأقاويل المثبتة فى كتاب «التهافت» لأبى حامد.. فى التصديق والإقناع وقصور أكثرها عن مرتبة اليقين والبرهان.

وسنحاول – بعون الله – أن نستوضح رأى ابن رشد فى قضية البعث من كتابيه «تهافت التهافت» و «مناهج الأدلة».

مزاعم:

أنكر ابن رشد ماذهب إليه الغزالى من أن الفلاسفة ينكرون حشر الأجساد وقال[1]:

وهذا شىء ماوجد لواحد ممن تقدم فيه قول، والقول بحشر الأجساد أقل ماله منتشر فى الشرائع ألف سنة، والذين تأدت إلينا عنهم الفلسفة هم دون هذا العدد من السنين، وذلك أن قول من قال بحشر الأجساد هم أنبياء بنى إسرائيل الذين أتوا بعد موسى عليه السلام، وذلك بين من الزبور ومن كثير من الصحف المنسوبة لبنى إسرائيل، وثبت ذلك أيضًا فى الإنجيل وتواتر القول به عن عيسى عليه السلام، وهو قول الصابئة وهذه الشريعة قال أبو محمد بن حزم إنها أقدم الشرائع..

وهذا الزعم من ابن رشد لا دليل عليه..

وهناك زعم آخر فى مناهج الأدلة يرى فيه أن الشرائع لم تختلف فى حقيقة المعاد وصفة وجوده وإنما اختلفت فى طرق التمثيل للجمهور ثم يقول[12] «وذلك أن من الشرائع من جعله روحانيًا أعنى للنفوس ومنها من جعله للأجسام والنفوس معًا».

وهذا افتراء آخر ولاندرى ما الشرائع السماوية التى تحدثت للناس عن

---

(١) تهافت التهافت – تحقيق د. سليمان دنيا ص ٨٦٤.

(٢) مناهج الأدلة – تحقيق د. محمود قاسم ص ٢٤١.

معاد روحانى فقط فى حين يقول كما سبق إن القول بحشر الأجساد منتشر فى الشرائع وتواتر القول به عن عيسى وأنبياء بنى إسرائيل؟

سعادة الإنسان:

* الإنسان أشرف من كثير من الموجودات.
* الإنسان لم يخلق عبثًا.

قضيتان اتخذهما ابن رشد أساسًا لتحديد سعادة الإنسان، فالكون لم يخلق عبثًا قال تعالى: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلًا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار﴾[١].

ووجود الغاية فى الإنسان أظهر منها فى جميع الموجودات وقد نبه الله سبحانه عليها فى غير ما آية من كتابه فقال: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثًا وأنكم إلينا لا ترجعون﴾[٢].

وما دام للإنسان غاية فلتكن خاصة به دون سائر الحيوان، وخاصية الإنسان إنما هى من حيث النفس الناطقة، وكمالها فى القوة العملية والعلمية.. ثم يقول ابن رشد[٣]:

«ولما كان الوحى قد أنذر فى الشرائع كلها بأن النفس باقية، وقامت البراهين عند العلماء على ذلك، وكانت النفوس يلحقها بعد الموت أن تتعرى من الشهوات الجسمانية فإن كانت زكية تضاعف زكاؤها بتعريها من الشهوات الجسمانية، وإن كانت خبيثة زادتها المفارقة خبثًا لأنها تتأذى بالرذائل التى اكتسبت وتشتد حسرتها على مافاتها من التزكية عند مفارقة البدن لأنها ليست يمكنها الاكتساب إلا مع هذا البدن .

---

(١) سورة ص آية ٢٧.
(٢) سورة المؤمنون آية ١١٥.
(٣) مناهج الأدلة ص ٢٤٣.

وإلى هذا المقام الإشارة بقوله تعالى: ﴿أن تقول نفس ياحسرتا على مافرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين﴾.

واتفقت الشرائع على تعريف هذه الحال للناس وسموها السعادة الأخيرة والشقاء الأخير..»

هكذا يرى ابن رشد السعادة والشقاء ولا نجد فيه اختلافًا يذكر عن رأى الفلسفة الإسلامية كما صوره ابن سينا وكما بيناه من قبل... ولهذا لم يتعقب ابن رشد الغزالى فقرة فقرة فى هذه المسألة كما فعل فى بقية كتابه «تهافت التهافت» بل اكتفى بكلمة عامة...

موقفه من النصوص الدينية:

يقوم رأى ابن رشد على تقسيم الناس إلى عوام وخواص، وتقسيم الشريعة إلى ظاهر ومؤول. والظاهر فرض الجمهور، والمؤول فرض العلماء ولا يحل للعلماء أن يفصحوا بتأويله للجمهور كما قال على رضى الله عنه «حدثوا الناس بما يفهمون أتريدون أن يكذب الله ورسوله».

وفى قضية البعث التى نحن بصددها يزعم أن المعاد الروحانى لايفهمه الجمهور، ولا يحرك لديهم بواعث العمل الخير فلابد من تمثيل هذه السعادة والشقاوة العقلية بأشياء مشاهدة لهم، فإعادة النفوس إلى الأبدان هو نوع من التمثيل للعامة فهو يقول[١]:

«فأصحاب الشرائع أخبروا أن الله يعيد النفوس السعيدة إلى أجساد تنعم فيها الدهر كله بأشد المحسوسات نعيمًا وهو مثلا الجنة، وأنه تعالى يعيد النفوس الشقية إلى أجساد تتأذى فيها الدهر كله بأشد المحسوسات أذى وهو مثلًا النار».

---

(١) مناهج الأدلة ص ٢٤٤.

والحكمة فى هذا التمثيل يوضحها ابن رشد بقوله: ويشبه أن يكون التمثيل الذى فى شريعتنا هذه أتم إفهامًا لأكثر الناس، وأكثر تحريكا لنفوسهم إلى ما هنالك، والأكثر هم المقصود بالشرائع، وأما التمثيل الروحانى فيشبه أن يكون أقل تحريكا لنفوس الجمهور إلى ما هنالك، والجمهور أقل رغبة فيه وخوفًا له منهم فى التمثيل الجسمانى.

تمويه ومداراة:

حاول ابن رشد فى نهاية كتابه «مناهج الأدلة» أن يجعل البعث مسألة خلافية بين العلماء فى فهم حقيقته وفهم التمثيل الذى يزعم أنه ورد على لسان الشارع..

فذكر أن أهل الإسلام ثلاث فرق:

١ - فرقة رأت أن ذلك الوجود هو بعينه هذا الوجود الذى ههنا من النعيم واللذة أعنى أنهم رأوا أنه واحد بالجنس وأنه إنما يختلف الوجودان بالدوام والانقطاع أعنى أن ذلك دائم وهذا منقطع.

٢ - وطائفة رأت أن الوجود متباين وهذه انقسمت قسمين: فطائفة رأت أن الوجود الممثل بهذه المحسوسات هو روحانى وأنه إنما مثل به إرادة البيان، ولهؤلاء حجج كثيرة من الشريعة فلا معنى لتعديدها.

٣ - وطائفة رأت أنه جسمانى ولكن اعتقدت أن تلك الجسمانية الموجودة هناك مخالفة لهذه الجسمانية لكون هذه بالية وتلك باقية ولهذه أيضًا حجج من الشرع.

ثم خلص ابن رشد إلى أن القول بعودة النفوس إلى الأبدان التى كانت فى الدنيا يلزمه محالات مثل أن المادة الواحدة بعينها توجد لأشخاص كثيرة فى أوقات مختلفة، وأمثال هذه الأجسام ليس يمكن أن توجد كلها بالفعل لأن مادتها واحدة... وأما إذا فرضت أجسام أخر فليس يلحقها هذه المحالات..

وقد انتهى إلى هذا الرأى أيضا فى كتابه «تهافت التهافت» حيث يقول[١]: إن التى تعود أمثال هذه الأجسام التى كانت فى هذه الدار لا هى بعينها لأن المعدوم لا يعود بالشخص وإنما يعود الموجود لمثل ما عدم لا لعين ما عدم..

وقد فهم بعض الناس أن ابن رشد يقول بالبعث الجسمانى بناء على هذا الرأى وأنه هو الذى ارتضاه لنفسه كما يقول الدكتور محمود قاسم فى تعليق له[٢].

ولكنى أبادر فأقول إن رأى ابن رشد هو رأى الفلسفة الإسلامية وهو أن المعاد روحانى فقط وأرشح قولى بما يأتى:

أولاً: لم يصرح ابن رشد بنسبة هذا الرأى لنفسه، وإنما كل ما قاله فيه «وأما إذا فرضت أجسام أخر فليس يلحقها هذه المحالات» فالكلام على سبيل الفرض وليس الاعتقاد، وأيضًا قوله قبل ذلك «ويشبه أن يكون هذا الرأى هو أليق بالخواص» ينهض دليلًا فالكلام على سبيل الاحتمال.

ثانيًا: رأى ابن رشد الصريح يصوره هو بنفسه فى العبارة التالية[٣] «والحق فى هذه المسألة أن فرض كل إنسان فيها هو ما أدى إليه نظره فيها بعد ألا يكون نظرًا يفضى إلى إبطال الأصل جملة وهو إنكار الوجود جملة».

ثالثا: ومما يؤكد هذا المعنى الأخير وهو أن المسألة متروكة للاجتهاد الفردى ماسلكة ابن رشد فى رده على الغزالى فلم يتعرض لآراء الغزالى وانتقاداته على الفلاسفة ليعقب عليها كما فعل فى بقية مسائل الكتاب، وإنما اكتفى بكلمة عامة دون تفاصيل الشبه والرد عليها.

رابعا: من خلال كتابه ابن رشد تتضح الحقائق التالية:

(أ) النفس باقية ولاتتعطل بفساد الآلة وهى الجسم.

---

(١) ص ٨٧١.

(٢) ص ٢٤٦ من مناهج الأدلة.

(٣) المصدر السابق ص ٢٤٧.

(ب) سعادة الإنسان هى فى كمال نفسه الناطقة.

(جـ) كل ماورد فى النصوص الدينية من اللذات والآلام الحسية فهو من باب التمثيل للجمهور.

(د) البدن عائق للنفس عن اللذة العقلية.

ولا أظن بعد هذا أننا نجهل رأى ابن رشد فى البعث والمعاد الذى ارتضاه لنفسه وأداه إليه اجتهاده..

وقفة تأمل

بعد استعراض رأى الفلسفة الإسلامية فى البعث كما صوره الشيخ الرئيس ابن سينا، وبعد تصوير الشبهات التى حكاها عن الفلاسفة حجة الإسلام الغزالى، وبعد توضيح فيلسوف قرطبة ابن رشد نستخلص - إذن - الحقيقة التالية:

إن البعث الروحانى هو رأى الفلسفة الإسلامية؛ وحقيقته عودة الروح إلى تجردها عن علائق المادة واتصالها بعالم العقول. ويرتكز هذا القول على أساس من نظرية العقول العشرة. وترتب على هذا الرأي محاولة تطويع النصوص الدينية لتحمل هذا الاتجاه.

* * *

ووقفتنا التأملية تستلزم نظرتين:

الأولى: إلى أساس هذا الرأى وهو القول بالعقول العشرة[١]..

الثانية: إلى قضية التأويل ومدخلها الصحيح..

---

(١) وقد عقبنا فى الفصل الثانى من الباب الأول على نظرية العقول العشرة وأثبتنا أنها أوهام وخرافات.

قضية التأويل:

أولاً: إن القضية التى أثارها ابن رشد وهى تقسيم الشريعة إلى ظاهر ومؤول وتقسيم الناس إلى عوام وخواص - قضية خطيرة تفتح أبواب الفتن وزلزلة العقائد وضياع الحقيقة،وتمهد للباطنية وغلاة الشيعة، وليس فى دين الله عقائد خاصة للعوام وعقائد خاصة بالعلماء بل هى عقيدة واحدة يشترك فيها العامى والعبقرى وإنما الخلاف بينهما فى الإجمال والتفصيل فالعامى يؤمن بها إجمالا والعالم يؤمن بها تفصيلا عن طريق الدليل والبرهان ودفع الشبهات..

ثانيًا: إن حديث القرآن عن البعث والحشر المادى بلغ من التفصيل والإطناب حدا يرفع كل احتمال ويبعد كل توهم فلا قرينة هنا تصرف اللفظ القرآنى عن ظاهر معناه بل على العكس كل القرائن ترشح المعنى الظاهر والقول بخلاف ذلك تضليل وانحراف،

ثالثًا: إن قياس البعث على مسألة المحكم والمتشابه قياس مع الفارق فالمتشابه من آى القرآن له أصل يحمل عليه وهو المحكم وقامت أدلة العقل على استحالة المعنى المتبادر من اللفظ وليس فى قضية البعث نص صريح فى البعث الروحانى فقط ولا استحالة عند العقل فى البعث الجسمانى خصوصا إذا قلنا إنه مثل الأول لا عينه.

رابعًا: قال سعد الدين التفتازانى[١]: وما ذكرتم من حمل كلام الأنبياء ونصوص الكتاب على الإشارة إلى مثال معاد النفس والرعاية لمصلحة العامة هو نسبة للأنبياء إلى الكذب فيما يتعلق بالتبليغ والقصد إلى تضليل أكثر الخلائق والتعصب طول العمر لترويج الباطل وإخفاء الحق لأنهم لايفهمون إلا هذه الظواهر التى لا حقيقة لها عندكم.

خامسًا: إن القضية التى كانت محل إنكار المكذبين للرسل جميعا هى ﴿أئذا

---

(١) المقاصد - تحقيق الشيخ خميس ص ٩٣.

كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعثون خلقا جديدا﴾ فلو كان الحق هو البعث الروحانى فقط لكان الطريق أيسر لإقناع منكرى البعث..

سادسًا: إجماع المسلمين منذ عهد المصطفى صلوات الله عليه وعلى مدى ثلاثة قرون كاملة قبل بدء ترجمة الفلسفة الإلهية - قائم على احترام هذه الظواهر للنصوص الدينية، والقول بغير ذلك خرق للاجماع ومصادمة للنص الصريح.

الفصل الثالث

التناسخية

التناسخ في اللغة:

التناسخ والمناسخة في الميراث موت ورثة بعد ورثة وأصل الميراث قائم لم يقسم.. وتناسخ الأزمنة تداولها وانقراض قرن بعد قرن.. وبلدة نسيخة - بفتح فكسر - ونسخية - بضم ففتح - بعيدة ونسخه كمنعه - أزاله وغيره وأبطله وأقام شيئا مقامه..

المعنى الاصطلاحي:

التناسخ - في عرف القائلين به - رجوع الروح بعد موت البدن إلى العالم الأرضي متلبسة بجسد جديد..

وهو أنواع[1]:

١ - النسخ وهو: رجوع الروح إلى بدن إنساني آخر.

٢ - المسخ وهو: رجوع الروح إلى بدن حيواني جديد.

٣ - الرسخ وهو: رجوع الروح إلى جسم نباتي.

٤ - الفسخ وهو: رجوع الروح إلى جسم جمادي.

القائلون بالتناسخ:

أصل التناسخ نشأ من فرقة من الصابئة تسمى الحرنانية قالوا - كما حكى الشهرستاني[1] - إن التناسخ هو أن تتكرر الأكوار والأدوار إلى ما لانهاية،

---

(١) المواقف جـ ٨ ص ٣٠٠.

(١) الملل والنحل - تحقيق - كيلاني جـ ٢ ص ٥٥.

ويحدث فى كل دور مثل ما حدث فى الأول، والثواب والعقاب فى هذه الدار، لا فى دار أخرى لا عمل فيها... والأعمال التى نحن فيها إنما هى أجزية على أعمال سلفت منا فى الأدوار الماضية، فالراحة والسرور والفرح والدعة التى نجدها هى مرتبة على أعمال البر التى سلفت منا فى الأدوار الماضية، والغم والحزن والضنك والكلفة التى نجدها هى مرتبة على أعمال الفجور التى سبقت منا.. وكذا كان فى الأول وكذا يكون فى الآخر والانصرام من كل وجه غير متصور من الحكيم.

ويعنون بالأكوار والأدوار أن الحياة تجدد نفسها كل فترة معينة قدروها بستة وثلاثين ألف سنة وأربعمائة وخمس وعشرين سنة يوجد فيها من كل زوجين اثنين فإذا انقضى الدور انقطع التناسل والتوالد ويبتدئ دور جديد من الإنسان والحيوان والنبات وكذلك أبد الدهر فلا بعث ولا قيامة ولا دار سوى هذه الدار.

وقد كان للبراهمة دور كبير فى إشاعة التناسخ فالقول به من أخص عقائدهم فميلاد[1] الإنسان فى درجة عالية أو منحطة ليس نتيجة الإتفاق المحض ولا هو لازم لزوما ماديا محضا ولا هو تابع لإرادة إله قدير ولكنه نتيجة أعمال طيبة عملها الشخص أو آثام ارتكبها فى حياة قبل حياته الحالية».

ومن فرق الثنوية من يقول بالتناسخ وأن[2] الإنسان أبدا فى أحد أمرين إما فى فعل وإما فى جزاء، وما هو فيه، فإما مكافأة على عمل قدمه وإما عمل ينتظر المكافأة عليه، والجنة والنار فى هذه الأبدان وأعلى عليين درجة النبوة وأسفل السافلين دركة الحية فلا وجود أعلى من درجة الرسالة ولا وجود أسفل من دركة الحية ومنهم من يقول الدرجة الأعلى درجة الملائكة والأسفل دركة الشيطان.

---

(١) دائرة المعارف القرن العشرين جـ ٢ ص ١٦١.

(٢) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٥٤.

هذا وقد أثرت هذه الأفكار فى المحيط الإسلامى فمن فرق الشيعة الهاشمية من يرى أن الأرواح تتناسخ من شخص لآخر سواء كان من بنى آدم أو من الحيوانات وأن روح الله تناسخت حتى وصلت إلى إمامهم وحلت فيه.

وقال بذلك أيضا أحمد بن حابط، وأحمد بن نانوس، وأبو مسلم الخراسانى ومحمد بن زكريا الرازى الطبيب، وقال لولا أنه لا سبيل إلى تخليص الأرواح عن الأجساد المتصورة بالصور البهيمية إلى الأجساد المتصورة بصور الإنسان إلا بالقتل، والذبح لما جاز ذبح شىء من الحيوان ألبتة[1]..

أدلة القائلين بالتناسخ وإبطالها:

بالنظر إلى القائلين بالتناسخ نجد أن منهم منتسبين إلى الإسلام وهؤلاء حاولوا جذب بعض النصوص.. ومن هنا نجد اتجاهين فى الاستدلال: الاتجاه العام وهو التمسك ببعض الشبهات العقلية.. والاتجاه الخاص وهو لىّ بعض النصوص الدينية.. وسنختار نموذجا لكل اتجاه.

النموذج الأول من الاتجاه العام:

قال بعض من ذهب إلى التناسخ من الحاملين ذلك على سبيل الجزاء أن الله تعالى : عدل حكيم رحيم كريم وإذ هو كذلك فمحال أن يعذب من لا ذنب، له فلما وجدناه تعالى يقطع أجسام الصبيان الذين لا ذنب لهم بالجدرى والقروح، ويأمر بذبح بعض الحيوان الذى لاذنب له وبطبخه وأكله، وتسليط بعضه على بعض فيقطعه ويأكله ولاذنب له – علمنا أنه تعالى لم يفعل ذلك إلا وقد كانت الأرواح عصاة مستحقة للعقاب بلبس هذه الأجساد لتعذب فيها[2]:

---

(١) راجع الفصل لابن حزم جـ ١ ص ٩٠، والملل للشهرستانى جـ ١ ص ١٥١.

(٢) الفصل جـ ١ ص ٩١.

والجواب:

إن مايقع لهؤلاء الأطفال المرضى ليس بالضرورة أن يكون عقابا فلعله امتحان لآبائهم كما قال تعالى ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين﴾[١].

وما يصاب به الإنسان طفلا أو كهلا لايستدل به على سوء العمل وسيء السلوك فلعله رفع درجات، فإن المرء يبتلى على قدر دينه، والشدائد محك الإيمان كما قال تعالى: ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾[٢].

ثم إن الخير والشر أمر نسبى بل يذهب البعض إلى أنهما عنصران متكاملان لابد منهما، والحياة الدنيا قائمة على الجمع بين الأضداد: كفر وإيمان، باطل وحق، مرض وصحة، شقاء وسعادة، فقر وغنى، موت وحياة.

والصراع دائم حتى يرث الله الأرض ومن عليها ﴿ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾.

ولنعلم أن الابتلاء الذى هو قانون الحياة يكون بالشر والخير كما قال تعالى: ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾[٣].

يقول الأستاذ فتحى رضوان[٤]: فالله يبتلى الإنسان بالسلطان والثروة والنفوذ، وجمال الوجه وحب الناس وكثرة العلم إذ قد يكون له من وراء كل هذه الخيرات شرور وأذى كبير.. كما يبتليه بالضعف والمرض والجهل والفقر ويكون له من وراء ذلك خير كبير.

---

(١) سورة البقرة آية ١٥٥.

(٢) سورة الحج آية ١١.

(٣) سورة الأنبياء آية ٣٥.

(٤) الإسلام ومشكلات الفكر ص ٥٠.

فى الأولى: قد يبطره الجاه والمال ويدخل فى قلبه الغرور، ويضيع عليه فرصا ويجلب عليه كراهية الناس فيفقد كل ما جمع.

وفى الثانية: قد يدفع شعور الإنسان بجهله إلى طلب العلم، ويدفعه الفقر إلى التواضع وتآلف الناس وضبط النفس واحتمال مشقات الحياة، وما يحدث للأفراد يحدث للجماعات فكم من جماعة ابتليت بموقع من الأرض جدب فأحسنت رعايته واستخرجت منه الكنوز والثروات، وأخرى أصابت موقعا غنيا وسخيا أفاء عليها فيه الله فأورثها الرخاء والترف والرخاوة والاستهانة فغلبها على أرضها أقوام آخرون أجلاف لا نصيب لهم من العلم والمدنية.

وهذا هو قانون الحضارة الدائم: أمم تعلو بجدها وصبرها وتقوى بتماسك ابنائها وتحملهم المشاق فإذا حققت الثروة والجاه غفلت عن سلاحها وأهملت علمها فإذا هى لقمة سائغة لغيرها ممن هم أقل منها علما وثروة وأكثر منها جلدا وصبرا.

وفى القرآن آيات كثيرة تذكر المسلمين بهذا القانون وتعرضه فى أكثر من صيغة ﴿أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة﴾[1].

﴿أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وماكان لهم من الله من واق﴾[2].

﴿أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا فى الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾[3].

وهذا هو القانون الذى يفسر به «توينبى» المؤرخ الإنجليزى التاريخ

---

(١) سورة فاطر آية ٤٤.

(٢) سورة غافر آية ٢١.

(٣) سورة غافر آية ٨٢.

العام كله ويسميه قانون التحدى فمن نزل به شر سواء كان ضيقا فى الرزق أو فقرا فى الأرض أو ابتلاء بجار لا يكف عن العدوان حفزه هذا المكروه أو ذلك الشر إلى تجميع قوته واستثارة كامن مواهبه ليعلو عليها وينجوَ منها، فإذا هو أحسن حالا وأقوى مما كان وأقدر على الحياة. اهـ.

هذا وأما ذبح بعض الحيوان فإنما هو تكريم للإنسان الذى فضله خالق السموات والأرض وما فيهن وسخر له ما عداه لعمارة الدنيا التى لا تستقيم إلا بذلك التسخير كى يمارس الإنسان، مهام خلافته فى الأرض.

النموذج الثانى من الاتجاه الخاص:

قال الله تعالى: ﴿يأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم، الذى خلقك فسواك فعدلك، فى أى صورة ما شاء ركبك﴾[1].

والمعنى – فى زعمهم – أن روح الإنسان تنتقل فى صور شتى إنسانية كانت أو غير إنسانية.

والجواب:

أن الآية أبعد ما تكون عن التناسخ، والسورة مسوقة لتذكير الإنسان بيوم الجزاء يوم تعلم كل نفس ما قدمت وأخرت، ثم هى تقدم له عجائب الخلق والتكوين شاهدة على أحقية يوم الدين﴿يوم لاتملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله﴾، ولنستمع إلى الشيخ القاسمى وهو يقول[2]:

﴿الذى خلقك فسواك﴾ أى جعلك سويا متساوى الأعضاء والقوى وأصل التسوية جعل الأشياء على سواء فتكون على وفق الحكمة ومقتضاها بإعطائها ما تتم به.

(١) سورة الانفطار آية ٦: ٨.

(٢) محاسن التأويل جـ ١٧ ص ٦٠٨٦.

«فعدلك» أى جعلك معتدلا متناسب الخلق، معتدل القامة لا كالبهائم، وقرئ بالتخفيف وهو بمعنى المشدد أو بمعنى صرفك عن خلقة غيرك إلى خلقة حسنة مزت بها على سائر الحيوان.

﴿فى أى صورة ما شاء ركبك﴾ أى فى أى صورة شاءها ركبك عليها يعنى أنه ركبك فى صورة هى أبدع الصور وأعجبها «فأى» استفهامية والمجرور متعلق بـ«ركبك» و«ما» زائدة وجملة «شاء» صفة صورة والقصد أن من خلق هذا الخلق البديع وسواه وعدله بقدرته وتقديره حتى أحكم صورته فى ذلك التركيب لجدير بأن يتقى بأسه ويحذر بطشه ويرهب أشد الترهيب».

هذا والرد العام على التناسخية باختصار هو أن قولهم رجم بالغيب وتوسيع لأوهام العقل وخيالاته الجامحة، فما كانت قصة الحياة الإنسانية فى دابرها ومستقبلها لتؤخذ من أفواه الناس هكذا كأحدوثة عجيبة أو رواية طريفة بل لابد من إلقاء السلم لبارى الحياة وخالق الأحياء يقص الحق وهو خير الفاصلين.

مناقشة رأى التناسخية فى البعث

خلاصة رأيهم فى البعث نجمله فى ثلاث نقاط هى:

١ - الروح لا تعود إلى بدنها الأول وإنما تعود إلى بدن آخر.

٢ - لاقيامة ولاجنة ولانار بالمعنى الشرعى.

٣ - الجزاء فى هذه الدنيا وتعاقب الأرواح على الأبدان فى هذا العالم هو الجزاء على ما أسلفت من خير أو شر.

أما النقطة الأولى: وهى عدم عودة الروح إلى بدنها الأول فقد نسلم به بناء على رأى المحققين وهو أن البعث عودة الروح إلى مثل بدنها الأول لا إلى عينه... مع ضرورة الابقاء على الصورة الإنسانية تحقيقا لتمايز الأنواع.

أما قولهم بأن الدنيا دار جزاء فمحل نقاش لأنها دار تكليف وما بعث الرسل إلا لبيان ذلك بالأمر والنهى ﴿رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ وحياة الإنسان فى هذه الدار مرحلة لممارسة ذلك التكليف والقيام بتبعاته... ومنطق العقل يقول بترتيب الجزاء بعد إنهاء فرصة الحياة ووقت التكليف..

لكن هل تخلو الدنيا من جزاء؟

الحق - كما يقول صاحب المقاصد[1] نقلا عن بعض المعتزلة - أن التكليف لا يجامع كل الجزاء للزوم المحال (وهو الجمع بين المتناقضين فإن من شرط الثواب الخلوص عن شوب المشاق ومن لوازم التكليف الشوب بها) بخلاف البعض كتعظيم المؤمن ونصرته على الأعداء وكالحدود فإنه يجامع التكليف فلم يجب تأخيره.

---

(١) المقاصد - تحقيق د. سليمان خميس ص ١٢٨.

وأما أنكارهم للقيامة والجنة والنار فمصادمة للنص الدينى القاطع وخرق لإجماع أهل الأديان السماوية جميعا إن كانوا قائلين بالنبوة والشرع أما إذا كان التناسخية دهريين فالنقاش معهم فى أصل العقيدة ومبدئها وهو الإيمان بالله واجب الوجود ومانح الحياة فإن عقيدة البعث مرتبطة بالألوهية فلا بعث بغير إله قادر عليم.. وقد أفردنا فصلا عن المذهب المادى[١] وأجهزنا عليه بحول الله وقوته.

فالقول هو أن الروح تعاد لمثل بدنها فى عالم آخر هو يوم القيامة لتنال جزاءها عقابا أو ثوابا.. وقد حكى القرآن استحالة عودة الروح إلى الدنيا مرة أخرى كى تتدارك ما فات من تقصير، وصوره فى صور بيانية رائعة..

ففى سورة الأنعام يصور القرآن مشاعرهم حين واجهوا المصير السيئ فيقول ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولانكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾ - ٢٧.

ثم يفصح القرآن عن حقيقة نفوسهم التى قد استحكم فيها الفساد فيقول: ﴿بل بدا لهم ماكانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ - ٢٨.

وأبعد من ذلك لو ردوا لأنكروا ما عاينوه فى ذلك الموقف الصعب وتشبثوا بالحياة الدنيا ونسوا الآخرة ﴿وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾ فقد جعل بعض المفسرين هذا القول معطوفا على جواب ولو ردوا وهو ملحظ دقيق.

وفى سورة المؤمنون نرى مشهدا لهؤلاء عند الموت: ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت﴾ ثم تبين أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد كلمة جوفاء لا مضمون لها ولا رجاء فيها: ﴿كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾ وتسير بنا الآيات حتى

(١) راجع ص ١٥٤ من الكتاب.

نلمحهم ﴿تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون﴾ ونسمع التقريع لهم:

﴿ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون﴾ فيقدمون الاعتراف ويتبعونه برجاء أن يعودوا إلى الدنيا ليحسنوا ﴿قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾.

والنهاية التى لا مفر منها ولا وزر:

﴿قال اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾.

وسورة «فاطر» تقدم مشهدا من مشاهد العذاب:

﴿والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور، وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل﴾.

والجواب الحاسم أنه قد أعذر من أنذر: ﴿أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾.

* * *

ومن ذلك كله تتهاوى دعاوى القائلين بالتناسخ.. على أنه لا فائدة ترجى عقلية أو خلقية من نظرية التناسخ بحجة التطهير من أدران البشر فليس من دليل – كما يقول يوسف كرم[1] – على أن المعاصى المرتكبة فى هذه الحياة يجب أن يكفر عنها فى هذه الحياة وليس من شهادة للوجدان بأننا قد مررنا بحيوات سابقة، ولا ضرورة لما يستشهدون به من أن تفاوت بنى الإنسان فى الصفات الفطرية ليس صنع الله الكلى العدالة فهو نتيجة حسن استعمال الأنفس للحرية أو سوء استعمالها إياها من قبل.

ويمكن القول أيضا بما يذهب إليه ابن سينا – كما يفهم من إشاراته[2] – أنه لو صح التناسخ لا قتضى فساد بدن ما وجود بدن آخر تحل فيه

(١) الطبيعة وما بعد الطبيعة ص ١٣٢.

(٢) الإشارات – القسم الرابع النمط الثامن.

النفس واقتضى ذلك أيضا أن توجد أجسام ناشئة بعدد الأجسام التى تفنى ولكن ذلك منقوض بحالات الحرب والأوبئة فيفنى العدد الكثير من الأبدان ومن المعلوم بداهة أن ما يتكون فى ذلك الوقت من الأبدان الجديدة أقل مما يفنى فلو كان تعلق النفوس على طريقة التناسخ للزم تعطل بعضها إلى أن يحدث بدن تتعلق به، أوعدة نفوس تتصل ببدن واحد فتحل فيه متجاورة أو تتنازع وتتدافع وتتمانع وكل ذلك باطل.

وما القول بتناسخ الإنسان فى الحيوان والنبات إلا ضرب من السفسطة ومصادمة لبديهة العقل وضرورة الحس، ويحكى ابن الجوزى واقعة حال هى أقرب إلى الخيال فيقول بإسناده[1]:

كان يحضر معنا ببغداد شيخ الإمامية يعرف بأبى بكر بن الفلاس فحدثنا أنه دخل على بعض من كان يعرفه بالتشيع ثم صار يقول بمذهب التناسخ قال فوجدته بين يديه سنور أسود وهو يمسحها ويحك بين عينيها، ورأتها وعينها تدمع كما جرت عادة السنانير بذلك وهو يبكى بكاء شديدا فقلت له: لم تبكى؟ فقال: ويحك أما ترى هذه السنور تبكى كلما مسحتها، هذه أمى لاشك.. تبكى من رؤيتها إلىّ حسرة..!! قال: وأخذ يخاطبها خطاب من عنده أنها تفهم منه وجعلت السنور تصيح قليلا قليلا. فقلت له: فهى تفهم عنك ما تخاطبها به؟! فقال: نعم فقلت: أتفهم أنت صياحها؟! قال: لا، قلت: أنت المنسوخ وهى الإنسان..!!.

ومن هنا فالنفوس الإنسانية متميزة نوعًا وشخصًا فلا تحل فى أبدان نوع آخر ولا تعاود الكرة مرة أخرى فى تلك الحياة الدنيا..

بقيت لنا وقفة مع قوله تعالى فى شأن بعض اليهود ﴿كونوا قردة خاسئين﴾[2]، وللعلماء فيه وجهان:

الأول: إن المسخ هنا معنوى كما روى عن مجاهد أنه قال «ما مسخت

---

(١) تلبيس إبليس ص ٨٠.

(٢) سورة البقرة آية ٦٣.

صورهم ولكن مسخت قلوبهم فلا تقبل وعظا ولا تعى زجرا» ويكون المقصود من الآية تشبيههم بالقردة، وهو مثل قوله تعالى: ﴿كمثل الحمار يحمل أسفارًا﴾ وقول القائل:

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى — فكن حجرًا من يابس الصخر جلمدا

وقال الإمام الرازى فى تفسيره[1]:

«ماذكره (مجاهد) غير مستبعد جدا لأن الإنسان إذا أصر على جهالته بعد ظهور الآيات وجلاء البينات فقد يقال فى العرف الظاهر إنه حمار وقرد، وإذا كان هذا المجاز من المجازات الظاهرة المشهورة لم يكن فى المصير إليه محذور ألبتة».

ويذهب صاحب المنار[2] إلى أنه لو صح المسخ الحقيقى لما كان فى الآية عبرة ولا موعظة للعصاة لأنهم يعلمون بالمشاهدة أن الله لا يمسخ كل عاص فيخرجه عن نوع الإنسان إذ ليس من سنته فى خلقه، وإنما العبرة الكبرى فى العلم بأن من سنن الله تعالى فى الذين خلوا من قبل أن من يفسق عن أمر ربه ويتنكب الصراط الذى شرعه له يتنزل عن مرتبة الإنسان ويلحق بعجماوات الحيوان. ولذلك قال تعالى: ﴿فجعلناها نكالا لما بين يديها وماخلفها وموعظة للمتقين﴾.. ثم يقول صاحب المنار: «ولا يتم كون تلك العقوبة نكالا للمتقدمين والمتأخرين وموعظة للمتقين إلا إذا كانت جارية على السنة المطردة فى تربية الأمم وتهذيب الطباع».

الثانى: أنهم مسخوا قردة على الحقيقة وهو رأى جمهور المفسرين، فهل هذا من باب التناسخ؟والجواب بالنفى لما يأتى:

١ - أنهم بعد أن مسخوا لم يأكلوا ولم يشربوا ولم يتناسلوا، والرواية عن ابن عباس أنهم ما مكثوا إلا ثلاثة أيام ثم هلكوا. وذلك على عكس

(١) التفسير الكبير جـ ٣ ص ١١٩.

(٢) تفسير المنار جـ١ ص ٣٤٤.

رأى التناسخية بأن الأرواح تتقلب فى الأجساد دائما ثوابًا وعقابًا، وقد سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير أهى مما مسخ؟فقال «إن الله تعالى لم يهلك قومًا أو يعذب قومًا فيجعل لهم نسلاً وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك» رواه مسلم عن ابن مسعود.

٢ – إن ذلك لم يكن عامًا فى جميع البشر وإنما هو خاص بطائفة معينة أعرضت عن الحق وأستمرأت الباطل وذلك بخلاف قول التناسخية بعموم تنقل الأرواح.

٣ – إن من مسخ قردًا تحولت بنيته الإنسانية إلى هيكل القرد فقط وبقيت الروح فيه بخلاف رأى التناسخية بأن الروح تفارق بدنها الأول وتنقل إلى بدن آخر قد يكون إنسانًا وقد يكون حيوانًا.

الفصل الرابع

مذهب المتكلمين

قدمنا فى الباب الأول من هذا الكتاب خلاف المتكلمين حول مادية الروح وتجردها، ورأينا أن جمهورهم يذهب إلى نفى المجردات مطلقًا وأن المحققين منهم يقولون بتجرد الروح.

وبناء على ذلك فالقائلون بمادية الروح يذهبون إلى أن البعث جسمانى فقط بمعنى أنه عودة الإنسان إلى الحياة مرة أخرى ليساق إلى المحشر لفصل القضاء.

والإنسان روح وبدن وكلاهما مادى، والروح تعود إلى البدن بعد المفارقة والبدن يعود إلى الوجود بعد الفناء أو إلى الاجتماع بعد التفرق على خلاف فى ذلك كما سيأتى.

أما القائلون بتجرد الروح فالرأى عندهم أن البعث هو جسمانى وروحانى معًا، بمعنى أن النفس وهى جوهر مجرد يعود إلى البدن عندما يريد الله إحياء من فى القبور.. وتكون لذة النفس فى الشعور بالجمال والكمال بإطلاعها على حقائق الوجود والاتصال برب العالمين والقرب من صفاته والتشبه بها، وتكون لذة الجسم فيما عهده من مطعم شهى ومشرب هنى ومنكح بهى مع التسامى عليه فى الجنس والحقيقة واللذة كما قال تعالى: ﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقًا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابهًا ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون﴾[1].

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥.

فكلا الفريقين قائل بوجوب عودة البدن تصديقًا للخبر الإلهى، على نقيض مذهب الفلاسفة القائلين باستحالة عودته.

أما المعاد الروحانى أعنى التذاذ النفس بعد المفارقة وتألمها باللذات والآلام العقلية فلا يتعلق التكليف باعتقاده - كما يقول جلال الدين الدوانى[1] - ولا يكفر منكره ولا منع شرعًا ولا عقلًا من إثباته.

طريق إثبات البعث الجسمانى:

هل البعث الجسمانى واجب الوقوع بدليل الشرع أم بدليل العقل؟

يدعى المعتزلة وجوب وقوع البعث الجسمانى بدليل العقل وتقريره أنه يجب عقلًا ثواب المطيع وعقاب العاصى وذلك لا يتأتى إلا بإعادتهم بأعيانهم فيجب، لأن مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب ولا يكفى المعاد الروحى وحده لأن المطيع والعاصى هو هذا البدن بآلاته وأعضائه ولايصل الجزاء إلى مستحقه إلا بإعادتها.

ويمكن الرد على إدعاء المعتزلة بالوجوب العقلى بأن نقول مع صاحب المقاصد[2] - إنه إن اعتبر الأمر بحسب الحقيقة فالمستحق هو الروح لأ مبنى الطاعة والعصيان على الإدراكات والإرادات والأفعال والحركات وهو المبدأ للكل، وإن اعتبر بحسب الظاهر يلزم أن يعاد جميع الأجزاء الكائنة من أول التكليف إلى الممات ولا يقولون بذلك!؟

والحق أن العقل يقدم لنا دليل الإمكان من وجهين:

١ - الممكن لا ينقلب مستحيلًا فوجود الإنسان ممكن لذاته بدليل وقوعه فعوده ثانيًا جائز لأن مقتضى الذات لا يختلف بحسب الأزمنة.

٢ - الله سبحانه وتعالى محيط علمًا بكل شىء وقدرته صالحة لجميع

---

(١) الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين - تحقيق د. سليمان دنيا جـ ٢ ص ٦١٩.

(٢) المقاصد - تحقيق د. خميس ص ٩١.

الممكنات وصحة القبول من القابل - كما يقول صاحب المواقف[1] - والفعل من الفاعل توجب الصحة أى صحة الوقوع وجوازه قطعًا.

ومن هنا نعلم أن الحشر الجسمانى ممكن الوقوع عقلًا فإذا ضممنا إلى ذلك إخبار الصادق المصدوق فى نصوص صريحة لاتقبل التأويل حكمنا بأن الحشر واجب الوقوع شرعًا فالمعتمد إذن فى إثبات حشر الأجساد دليل السمع.

دلائل الحشر الجسمانى:

وردت نصوص القرآن المجيد وتواتر النقل عن النبى ﷺ بـاثبات المعاد الجسمانى لأن كمال الإنسان بما هو إنسان لايتم إلا بالحفاظ على جزأيه الجسم والروح معًا لا أن ينقلب عن حدود نوعه إلى نوع آخر.. كل ما هنالك أن النشأة الثانية أجمل وأسمى فالروح أكثر إشراقا والبدن أكثر طهرا فى جانب الثواب، وأخبث وأنقض فى جانب العقاب ولو كان[2] البعث للأرواح وحدها لنقص من ملكوت الله تعالى هذا النوع الكريم المكرم بين الخلق، المؤلف من روح وجسد، فهو يدرك اللذات الروحية واللذات الجثمانية ويتحقق بحكم الله وأسرار صنعه فيهما معًا من حيث حرم الحيوان والنبات من الأولى والملائكة من الثانية، وما جنح من جنح من أصحاب النظريات الفلسفية إلى البعث الروحانى المجرد إلا لاحتقارهم اللذات الجسدية وتسميتها بالحيوانية مع شغف أكثرهم بها، وإنما تكون نقصًا فى الإنسان إذا سخر عقله وقواه لها وحدها حتى صرفه اشتغاله بها عن اللذات العقلية والروحية بالعلم والعرفان أو أضعفها - وأصل هذا الإفراط والتفريط غلو الهنود فى احتقار الجسد وجعلهم مدار تربية النفس على تعذيبه بالرياضات الشاقة وتبعهم فى ذلك نساك النصارى كما تبعوهم فى عقيدة الصلب والفداء والتثليث».

---

(١) المواقف جـ ٨ ص ٢٩٥.

(٢) الوحى المحمدى - محمد رشيد رضا ص ١٣٥.

وإذا تتبعنا الدلائل السمعية وجدنا أن هناك نصوصًا تدل على أن المعاد للجسم وهناك نصوص أخرى تدل على أن الجزاء واقع على الجسم.

وهاك البيان:

١ - قال الله تعالى: ﴿وضرب لنا مثلًا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾[1] قال المفسرون. نزلت هذه الآية فى أبى بن خلف خاصم النبى ﷺ وأتاه بعظم قد رم وبلى قبضه ففتته بيده وقال:

يا محمد أترى الله يحيى هذا بعد ما رم؟

فقال ﷺ: نعم ويبعثك ويدخلك النار..

وهذا مما يقطع عرق التأويل بالكلية، وقد سبق لنا وقفة مع هذه الآيات الكريمة[2].

٢ - قال الله سبحانه: ﴿وقالوا أئذا كنا عظامًا ورفاتًا أئنا لمبعوثون خلقًا جديدًا، قل كونوا حجارة أو حديدًا، أو خلقًا مما يكبر فى صدوركم، فسيقولون من يعيدنا، قل الذى فطركم أول مرة، فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون متى هو، قل عسى أن يكون قريبا﴾[2].

فالقوم استبعدوا أن يرجعوا أحياء بعد أن صاروا عظامًا ورفاتًا وقد كانت أجزاء لبدن حى، فرد الله عليهم بأنهم حتى ولوصاروا على أوضاع لا تقبل الحياة أصلًا كالحجارة والحديد أو شيئًا آخر أبعد عن قبول الحياة فإن الله العليم بكل شىء القادر الذى لا يعجزه شىء - يعيدهم إلى الحياة فهو الذى خلقهم ولم يكونوا شيئًا.

٣ - فى سورة «الواقعة» تفصيل دقيق للجزاء وبرهان قوى على

---

(١) سورة يس آية ٧٨.

(٢) راجع ص ١٦٠ من الكتاب.

(٣) الإسراء آية ٤٩: ٥١.

البعث فقد قسمت السورة الناس إلى ثلاث طوائف:

(أ) السابقون.

(ب) أصحاب اليمين.

(جـ) أصحاب الشمال.

ووصفت جزاء كل فريق وصفا دقيقًا رائعًا فقالت عن السابقين:

﴿على سرر موضونة، متكئين عليها متقابلين، يطوف عليهم ولدان مخلدون، بأكواب وأباريق وكأس من معين، لا يصدعون عنها ولا ينزفون، وفاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون، وحور عين، كأمثال اللؤلؤ المكنون، جزاء بما كانوا يعملون، لا يسمعون فيها لغوا ولاتأثيما، إلا قيلاً سلامًا سلامًا﴾.

وعن أصحاب اليمين: ﴿فى سدر مخضود، وطلح منضود، وظل ممدود، وماء مسكوب، وفاكهة كثيرة، لا مقطوعة ولا ممنوعة، وفرش مرفوعة، إنا أنشأناهن إنشاء، فجعلناهن أبكارًا، عربًا أترابًا﴾.

وقد جمع الثواب فى كلا الفريقين بين المطعوم والمشروب والمنكوح إلا أنه فى القسم الأول أكمل وأجل لإخلاصهم فى العمل ومسارعتهم إلى الخيرات ومن هنا يلحظ بعض العلماء أن الله سبحانه لم يقل فى حق أصحاب اليمين ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾ كما قال فى حق السابقين إيماء إلى أن فى عمل أصحاب اليمين قصورا يقعد بهم عن اللحاق بالسابقين. فالفضل فى حقهم متمحض.

وجاء فى تفسير الألوسى[1] «لما شبه حال السابقين بأقصى ما يتصور لأهل المدن من كونهم على سرر تطوف عليهم خدامهم بأنواع الملاذ شبه حال أهل اليمين بأكمل ما يتصور لأهل البوادى من نزولهم فى أماكن مخصبة فيها مياه وأشجار وظلال إيذانا بأن التفاوت بين الفريقين

---

(١) روح المعانى جـ ٢٧ ص ١٢١.

كالتفاوت بين أهل المدن والبوادى».

وعن أصحاب الشمال:

﴿فى سموم وحميم، وظل من يحموم، لا بارد ولا كريم...﴾ ثم قالت الآيات: ﴿ثم إنكم أيها الضالون المكذبون، لآكلون من شجر من زقوم، فمالئون منها البطون، فشاربون عليه من الحميم، فشاربون شرب الهيم، هذا نزلهم يوم الدين﴾.

وقد تكفلت الآيات بعد ذلك بالرد عليهم وسياق الحجج الدامغة وقدمت لنا أربعة أدلة هى:

الدليل الأول: قياس النشأة الثانية على الأولى.

﴿أفرأيتم ما تمنون﴾.. إلى قوله تعالى ﴿ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون﴾.

فإن الفاعل لتلك الأطوار العجيبة لخلق الإنسان قادر على إعادته بل الإعادة أهون فى منطق العقل وبرهان الواقع.

الدليل الثانى: إحياء الأرض بعد موتها بخروج النبات منها.

﴿أفرأيتم ما تحرثون، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون.. الآيات﴾ فإن القادر على شق الأرض وإخراج النبات من كل زوج بهيج ومن كل زوجين اثنين لاريب قادر على إحياء الموتى ﴿إن الذى أحياها لمحيى الموتى إنه على كل شىء قدير﴾[1].

الدليل الثالث: إنزال الماء من السحاب فينتفع به الناس والأنعام ﴿أفرأيتم الماء الذى تشربون، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون﴾.

وفى سورة الأعراف تفصيل لذلك الدليل فيقول جل شأنه: ﴿وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد

---

(١) سورة فصلت آية ٣٩.

ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون﴾.

فإن القادر على إحداث الأجسام وخلق خواصها المتباينة طعما ولونا ورائحة لاشك قادر على أن يعيد الحياة إلى بدن الميت.

الدليل الرابع: ابداع أشجار توقد بها النار أو توقد منها النار وما ذلك على الله العزيز.

﴿أفرأيتم النار التى تورون، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون﴾.

وإذا كان الشيء يحدث من نقيضه فالنار تخرج من الشجر الأخضر فمن باب أولى أن يحدث الشيء من ذاته ويعود الإنسان كما بدأ..

والقول بتأويل هذه الدلائل على وجوب البعث الجسمانى إلى ضرب من التمثيل لتقريب المعنى وتفهيم العوام هو مصادم للنص وخرق للاجماع ونسبة للأنبياء إلى الكذب فيما يتعلق بالتبليغ كما سبق أن وضحنا ذلك[١].

كيفية الإعادة

اتفق المتكلمون على وقوع البعث الجسمانى وحقية إعادة البدن، لكنهم اختلفوا هل ذلك بإيجاد بعد العدم المحض أم بالجمع بعد تفريق الأجزاء وإخراج الجسم عن هيئته المعهودة؟.

وقد التجأ كل فريق إلى النصوص يحاول ضمها لرأيه، وليس ههاك قاطع شرعى فى ذلك وحاول كل فريق إخراج اللفظ المستدل به عن المعنى الذى احتج به الآخر ولهذا توقف إمام الحرمين وقال[٢]:

---

(١) راجع قضية التأويل ص ٢٠١ من الكتاب.

(٢) الارشاد إلى قواطع الأدلة فى أصول الاعتقاد – تحقيق د. محمد يوسف موسى وعلى عبد المنعم عبد الحميد ص ٣٧٤.

«يجوز كلا الأمرين عقلا ولم يدل قاطع سمعى على تعين أحدهما فلا يبعد أن تصير أجسام العباد على صفة أجسام التراب ثم يعاد تركيبها إلى ما عهد قبل، ولا نحيل أن يعدم منها شىء ثم يعاد والله أعلم بعواقبها ومآلها».

ونقدم هنا دليلا لكل فريق ثم رد الآخر عليه...

دليل القائلين بأن الإعادة عن عدم: قال تعالى: ﴿كل شىء هالك إلا وجهه﴾[1] وقال سبحانه: ﴿كل من عليها فان﴾[2] فإن الهلاك والفناء هو العدم المحض.

ورد هذا الاستلال بما يأتى:

١ - إن المراد بالهلاك والفناء هو الخروج عن الانتفاع المقصود به اللائق بحاله كما يقال: هلك الطعام أوفنى إذ لم يبق صالحا للأكل وإن صلح لمنفعة أخرى.

٢ - أو المراد بهما الموت كما قال تعالى: ﴿إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك﴾[3] وكما يقال: أفناهم الحرب.

٣ - أو المراد أنه قابل للهلاك والفناء بمعنى العدم المحض لأن وجوده من غيره والقابل قد لا يعدم فليست الآية نصا فى وقوع وتحقق العدم المحض لكل شىء.

دليل القائلين بأن الإعادة عن تفريق:

حكى القرآن مقالة المشركين فى إنكارهم البعث فقال:

﴿بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شىء عجيب، أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد﴾[4].

فهؤلاء استبعدوا إعادتهم ورجوعهم أحياء بعد صيرورتهم ترابا وعظاما

---

(١) سورة القصص آية ٨٧.
(٢) سورة الرحمن آية ٢٦.
(٣) سورة النساء آية ١٧٦.
(٤) سورة ق آية ٢، ٣.

فرد الله عليهم بقوله: ﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ﴾.

فبين سبحانه أنه عالم بأجزائهم وما تنقص الأرض منهم وقادر على جمعها بعد تفريقها وإعادتها كما كانت بدنا واحدًا.

وقد ردّ هذا الاستدلال بما يأتى:

١ - أنها لا تنفى الإعادة عن عدم وإن لم تدل عليه.

٢ - هذه واقعة خاصة لأنها جواب عن سؤال.

٣ - أنها معارضة بآيات مشعرة بالفناء.

رأى واتجاه:

المسألة إذن ليست اعتقادية فلكل وجهة والأمر هين.. ولكن أرجح أن الإعادة عن تفريق حتى نسد الطريق على القائلين باستحالة البعث الجسمانى من الفلاسفة بناء على امتناع إعادة المعدوم، فهذا الرأى لا يتوقف على امتناع إعادة المعدوم أو جوازه لأنه لامعدوم ثمة بل أجزاء متفرقة.

وهناك قسم لا يدخله الخلاف السابق أى أنه لايعاد عن عدم ولا عن تفريق بل يعاد عن جسمه الذى كان كما هو مثل الأنبياء والشهداء والصالحين الذين لاتأكل الأرض أجسادهم ومثل الأجسام التى حفظها الطب عن البلى كقدماء المصريين الذين برعوا فى فن التحنيط ومازالت أجسادهم كما هى رغم مرور دهور سحيقة.

وهناك أمور ثانوية مثل خلافهم فى الأعراض هل يجوز إعادتها أم يمتنع؟ وإذا جاز إعادتها فهل تعود جميعا أو بعضها وهل الإعادة دفعة واحدة أم على التدريج حسبما كانت فى الدنيا؟

ومع كونها ثانوية فإنى أقول إن الاتجاه إلى امتناع إعادة الأغراض أو قصر الإعادة على بعضها واستحالة الآخر - هذا الاتجاه يتنافى مع دليل

الإمكان العام وهو أن كل ما وجد فهو ممكن والممكن لا ينقلب مستحيلا فى وقت من الأوقات للقطع بأنه لاأثر للأوقات فيما هو بالذات.

وقد سبق[١] أن أوردنا تأكيد العلم الحديث أن جميع الأعمال التى يباشرها الإنسان تصدر عنها اهتزازات حرارية تظل موجودة فى الفضاء تعكس صورة العمل ومن الممكن تجميعها فى أى لحظة مما يقرب معنى قوله سبحانه: ﴿ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدًا﴾.

وبعد - فواجب الاعتقاد أن الجسم يعاد وهو من ضروريات الدين، وإنكاره هو الكفر الصراح - على حد تعبير الغزالى - أو الكفر بيقين على حد تعبير السعد.

---

(١) راجع إمكان البعث، ص ١٥٨ من الكتاب.

الفصل الخامس

منهج القرآن فى إثبات البعث

نحاول فى هذا الفصل أن نقف خاشعين أمام الهدى الإلهى مستلهمين منهجه فى عرضه لعقيدة البعث والاستدلال عليها بعد هذه الجولة الطويلة فى معترك المذاهب والآراء...

والحديث عن البعث ذو شقين:

١ - إمكانه.

٢ - وقوعه.

والإمكان يستدل عليه بالعقل أما الوقوع فيستدل عليه بالنقل.

وقد حرص القرآن فى منهجه هنا على بيان الامكان والوقوع واستدل عليهما ولفت الأنظار إليهما.

ونستطيع أن نجمل أصول هذا المنهج القرآنى فيما يلى:

١ - الاتجاه الأول:

مادام البعث ممكنا عقلا فالوقوع يحتاج إلى صحة النقل عن المعصوم فقط، ومن هنا جاءت آيات تؤكد وقوعه من غير أن تستدل عليه لكون الوقوع لا يحتاج إلا لمجرد الإخبار من الله تعالى به مثال ذلك ماجاء فى سورة الصافات:

﴿أئذا متنا وكنا ترابا وعظامًا أئنا لمبعوثون، أوآباؤنا الأولون﴾ فرد الله عليهم بقوله: ﴿قل نعم وأنتم داخرون﴾.

فاكتفى هنا بتأكيد الوقوع بناء على جوار الإمكان عقلا.

وكذلك ما جاء فى سورة التغابن:

﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير﴾.

٢ - الاتجاه الثانى:

قياس الإعادة على البدء فإن من أنشأ قادر على أن يعيد بل الإعادة أهون... مثال ذلك قوله تعالى فى سورة العنكبوت.

﴿أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير، قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير﴾.

وفى سورة «ق»:

﴿أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد﴾.

٣ - الاتجاه الثالث:

الاستدلال بالاقتدار على خلق السموات والأرض وهو أكبر وأعظم من خلق الناس فإن القادر على الأعظم قادر على ما هو دونه مثال ذلك ما جاء فى سورة الأحقاف:

﴿أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شيء قدير﴾.

٤ - الاتجاه الرابع:

الاستدلال على الحشر والنشر بقدرة الله على أمور تشبهه مثل إحياء الأرض بخروج النبات منها وإنزال الماء من السماء عليها. من ذلك قوله تعالى فى سورة «فصلت»:

﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحيى الموتى إنه على كل شيء قدير﴾.

٥ - الاتجاه الخامس:

بيان حكمة البعث وضرورة وقوعه تحقيقا للعدل الإلهى.. من ذلك ما جاء فى سورة «يونس»:

﴿إليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا إنه يبدئ الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾.

٦ - الاتجاه السادس:

النماذج التطبيقية التى قدمتها القدرة الإلهية فى دنيا الناس من إحياء الله الموتى وذلك على صور شتى منها:

(أ) قصة البقرة وذلك حين اختلف قوم من اليهود فى قتيل لم يظهر قاتله فأوحى الله إليهم على لسان رسوله موسى عليه السلام أن اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها فأحياه الله وأخبر بقاتله.. وفى نهاية القصة يقول سبحانه:

﴿كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾.

(ب) قصة الذى مر على قرية خاوية على عروشها فتعجب كيف يحييها الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه فظن أنه لم يلبث إلا يوما أو بعض يوم لأن طعامه وشرابه لم يتغير فأخبره سبحانه بالحقيقة ﴿قال بل لبثت مائة عام﴾ وبين تعالى حكمة ذلك فى قوله: ﴿ولنجعلك آية للناس﴾.

(جـ) قصة عيسى عليه السلام ولها جانبان:

١ - ولادته من غير أب.. وحين استشعرت مريم عليها السلام الحرج ﴿قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر﴾.

رد الحق سبحانه عليها:

﴿قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون﴾.

٢ - معجزات عيسى كما فى قوله تعالى:

﴿قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾[١].

(د) أصحاب الكهف وهم فتية آمنوا بربهم وآووا إلى الكهف فرارا بدينهم فجعلهم الله آية للعالمين حيث لبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعًاثم بعثهم الله من مرقدهم وذكر الحكمة فى قوله:

﴿ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لاريب فيها﴾.

صدق الله العظيم.

(١) سورة آل عمران آية ٤٩.

حمد ودعاء

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله..

وإلى هنا نكون قد طوفنا مع الروح فى نشأتها ومراحل تعلقها بالبدن وحياتها فى عالم الجزاء.. يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا..

وبهذا قد أكملنا المسيرة المؤمنة فى رحاب الدين وصحبة العقل وصولا إلى حيث ينادى المنادى:

يا أهل الجنة.. خلود بلا موت.

ويا أهل النار... خلود بلا موت.

* * *

ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا.

وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أهم المراجع

(أ)

١ - آراء أهل المدينة الفاضلة. — الفارابى ط مصطفى الكتبى سنة ١٣٢٤ هـ.

٢ - ابن القيم وموقفه من التفكير الإسلامى. — د. عوض الله مجازى ط مجمع البحوث الاسلامية سنة ١٣٩٢هـ.

٣ - أحوال النفس — ابن سينا - تحقيق د. أحمد فؤاد الأهوانى ط عيس الحلبى سنة ١٣٧١هـ.

٤ - إحياء علوم الدين — الغزالى - تحقيق د. بدوى طبانة ط دار إحياء الكتب العربية.

٥ - الإسلام يتحدى — وحيد الدين خان - ترجمة ظفر الإسلام خان ط المختار الاسلامى سنة ١٩٧٣م.

٦ - الإسلام والعقل — د. عبد الحليم محمود ط دار الكتب الحديثة سنة ١٩٦٦.

٧ - الإسلام ومشكلات الفكر — فتحى رضوان - سلسة اقرأ ع ٣٧٧.

٨ - الإشارات والتنبهات — ابن سينا مع شرح نصير الدين الطوسى تحقيق د. سليمان دنيا - ط دار المعارف.

٩ - أصول الفلسفة الإشراقية عند شهاب الدين السهروردى — د. محمد على أبو ريان.

١٠ - الإنسان فى القرآن الكريم — عباس محمود العقاد - كتاب الهلال.

١١ - الإرشاد إلى قواطع الأدلة فى أصول الاعتقاد — الجوينى - تحقيق د. محمد يوسف موسى والأستاذ على عبد المنعم عبد الحميد.

(ت)

١٢ - تاريخ الفلسفة الحديثة — يوسف كرم ط دار المعارف - الطبعة الخامسة.

١٣ - تحفة المريد على جوهرة التوحيد	الباجورى.
١٤ - التفسير الكبير	الرازى طـ دار الفكر.
١٥ - التراث اليهودى الصهيونى والفكر الفرويدى	د. صبرى جرجس ط عالم الكتب.
١٦ - التفكير الفلسفى فى الإسلام	د. عبد الحليم محمود مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٦٨.
١٧ - تلبيس أبليس	ابن الجوزى ط إدارة الطباعة المنيرة سنة ١٣٦٨هـ.
١٨ - تهافت الفلاسفة	الغزالى - تحقيق د. سليمان دنيا ط دار المعارف الطبعة الخامسة.
١٩ - تهافت التهافت	ابن رشد - تحقيق - د. سليمان دنيا ط دار المعارف الطبعة الأولى سنة ١٩٦٤.

(ج)

٢٠ - الجانب الإلهى من التفكير الإسلامى	د. محمد البهى ط دار الكاتب العربى سنة ١٩٦٧.

(ح)

٢١ - الحياة البرزخية فى القرآن	د. محمود بن الشريف ط دار الشعب.

(د)

٢٢ - دائرة معارف القرن العشرين	محمد فريد وجدى.
٢٣ - الدراسات النفسية عند المسلمين والغزالى بوجه خاص	عبدالكريم العثمانى - مكتبة وهبة سنة ١٣٨٢هـ
٢٤ - دراسات فى الفلسفة الإسلامية	د. محمود قاسم طـ دار المعارف سنة ١٩٧٢م.

(ر)

الكتاب	المؤلف
٢٥ - الـروح	ابن القيم طـ صبيح سنة ١٣٩٧ هـ
٢٦ - روح المعانى	الألوسـى.

(س)

الكتاب	المؤلف
٢٧ - السراج المنير	الخطيب الشربينى.

(ش)

الكتاب	المؤلف
٢٨ - الشيـخ محمد عبـده بين الفلاسفة والكلاميين	تحقيق د. سليمان دنيا طـ عيسى الحلبى.

(ط)

الكتاب	المؤلف
٢٩ - الطاقة الإنسانية	أحمد حسين المحامى طـ مطبعة مصر سنة ١٩٦٢.
٣٠ - الطبيعة وما بعد الطبيعة	يوسف كرم ط دار المعارف.
٣١ - طريق إلى الله	عبد الرازق نوفل.

(ف)

الكتاب	المؤلف
٣٢ - الفصـل فى الملل والأهـواء والنحل	ابن حزم - تحقيق عبد الرحمن خليفة ط صبيح سنة ١٣٤٧، ط دار الفكر سنة ١٤٠٠هـ
٣٣ - فلسفـة ابن طفيل ورسـالـة حى بن يقظان	د. عبد الحليم محمود مكتبة الأنجلو المصرية.
٣٤ - الفلسفة ومباحثها مع تـرجمة كتاب المدخل إلى الميتافيزيقا لبرجسون	د. محمد على أبو ريان ط دار المعارف.
٣٥ - فى النفس والعقـل لفلاسفـة الإغريق والإسلام	د. محمود قاسم.

(ق)

٣٦ – قراءات فى الفلسفة — د. على سامى النشار، د. محمد على أبو ريان ط الدار القومية ١٩٦٧م.

٣٧ – قضايا العصر فى ضوء الإسلام — أنور الجندى – سلسلة البحوث الإسلامية شعبان ١٣٩١هـ.

(م)

٣٨ – محيى الدين بن عربى ولبنتر — د. محمود قاسم ط مكتبة القاهرة الحديثة.

٣٩ – محاسن التأويل — محمد جمال الدين القاسمى ط عيسى الحلبى.

٤٠ – مشكلة الألوهية — د. محمد غلاب ط الحلبى سنة ١٣٧١هـ.

٤١ – المعرفة عند مفكرى المسلمين — د. محمد غلاب ط الدار المصرية للتأليف.

٤٢ – المقاصد — سعد الدين التفتازانى – تحقيق د. سليمان خميس.

٤٣ – مقالات الاسلاميين — الأشعرى.

٤٤ – مقدمة ابن خلدون — تحقيق د. على عبد الواحد وافى.

٤٥ – مقدمة فى الفلسفة العامة — د. يحيى هويدى ط دار النهضة.

٤٦ – الملل والنحل — الشهرستانى – تحقيق محمد سيد كيلانى.

٤٧ – مناهج الأدلة فى عقائد الملة — ابن رشد – تحقيق د. محمود قاسم ط مكتبة الأنجلو.

٤٨ – المنقذ من الضلال — الغزالى – تحقيق د. عبد الحليم محمود ط دار الكتب الحديثة ١٣٨٨هـ

٤٩ – المواقف — عضد الدين الإيجى مع شرح السيد الشريف الجرجانى ط الساسى.

٥٠ – موقف القرآن الكريم بين الكتب السماوية والفلسفة فى عقيدة البعث — د. عبد الحميد عبد الشافى عبد الباقى (رسالة دكتوراه غير مطبوعة فى مكتبة كلية أصول الدين بالقاهرة).

(و)

٥١ – الوحى المحمدى للسيد محمد رشيد رضا – مكتبة القاهرة.

٥٢ – الوسيط فى تاريخ الفلسفة الإسلامية الشيخ عبد المتعال الصعيدى مكتبة الجامعة الأزهرية – الطبعة الخامسة.

الصفحة

الصفحة

رقم الايـــداع	٨٨/٨٠٣٣
الترقـيم الـدولى	٩ ــ ٢٥٩٥ ــ ٠٢ ــ ٩٧٧

٣/٨٨/٤

طبع بمطابع دار روتابرينت

هـ
٦٧٥